المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثاني والتسعين

فبراير سنة ١٩٣٨ — ١ ذي الحجة سنة ١٣٥٦

Radiations

الاشعاع

قديماً وحديثاً (١)

موضوع الاشعاع موضوع عويص وواسع النطاق في آن ، قلما يعرف الباحث،اذا حاول ان يلقي محاضرة واحدة فيه، اين يبتدئ واين ينتهي . فامواج الاشعة المرئي منها والخفي تحيط بنا من كل ناحية ، وتؤثر في معظم وجوه المعرفة والعمل والحياة . من الامواج اللاسلكية الطويلة والقصيرة ، الى امواج الحرارة الخفية ، الى امواج الطيف المرئي ، الى امواج الاشعة التي فوق البنفسجي ، الى الامواج التي وراءها كالاشعة السينية ، واشعة غمّا ، الى الاشعة الكونية ، التي تستطيع ان تنفذ من خلال الواح من الرصاص كثافتها عشرون قدماً او تزيد

ما هذه الاشعة ؟ وكيف تتشابهُ وكيف تختلف ؟ وكيف تنبعث ؟ وكيف تنتقل في الفضاء ؟ وما صلتها بالمادة ؟ وكيف يفسَّر فعل العناصر التي تطلق اشعةً ؟ وما العلاقة بين ما نعرفهُ عن هذه العناصر وبناء المادة الاساسي ؟ وهل في المستطاع مجاراة الطبيعة فيتاح للانسان ان يخرج من المواد الجامدة ، غير المشعة ، مواد تتأجج في احشائها الطاقة وتنطلق منها الدقائق والامواج ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي تخطر للباحث عندما يقترب من موضوع الاشعاع . والغرض من هذا البحث محاولة الاجابة عن بعضها، على اساسين من الايجاز والتبسيط ، فالتطويل ممتنع بالميعاد المضروب للمحاضرة،والتعمق الرياضي ليس هذا محلّهُ وهو على كل حالٍ فوق طاقتي

(١) من محاضرة اعدها رئيس تحرير المقتطف لتلقى في المجمع المصري للثقافة العلمية باجتماع يناير ١٩٣٨

١ — مدى طيف الاشعاع

ولعلَّ خيرَ ما نستهلُّ بهِ البحث، تعيين مدى الاشعاع في الطبيعة، وخواص الامواج في كل قسمٍ منهُ. ولعلَّ خير تقسيم نعتمد عليهِ في هذا الصدد، مع انهُ تقسيمٌ عرفيٌّ، هو اتخاذ الطيف المرئي اساساً ثم البحث في مدى الامواج التي على جانبيهِ

عرف من عهد نيوتن في القرن السابع عشر انهُ اذا دخلت شعاعة من ضوء الشمس حجرة معتمة من ثقب، في جدارها او في ستارٍ اسودَ مسدل على نافذتها، ووقعت هذه الشعاعة على منشور زجاجي، نفذت منهُ في الناحية المقابلة، وقد انحلت الى الوانٍ سبعة هي الاحمر فالبرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي. الاحمر اطولها امواجاً والبنفسجي اقصرها امواجاً، وامواج الالوان الاخرى بينهما متدرجة قصراً من الاحمر الى البنفسجي

الاَّ ان مدى الاشعاع في الطبيعة لا ينتهي عند الاحمر من ناحية ولا عند البنفسجي من ناحية اخرى. فوراءَ الاحمر اشعة تعرف بالاشعة التي تحت الاحمر وهي اشعة حرارة لا تبلغ امواجها في سرعة تواليها المبلغ الذي تتأثر بهِ عين الانسان فتعجز عن رؤيتها، ولكننا نحسُّ حرارتها. ويرجع الفخر في اكتشاف فعل هذه الاشعة الى العلامة هرشل، السر وليم هرشل مكتشف السيار اورانوس. فقد كان يجرّب التجارب بالامواج التي يتألف منها طيف الشمس المرئي وما لها من تأثير في مقياس الحرارة، فكان يحلُّ شعاعة الضوء، بالطريقة التي تقدّم ذكرها، ثم ينقِّل المقياس الحراريَّ من البنفسجي الى الاحمر، في فسحات متساوية من الوقت، ويدوِّن تأثير أشعة الالوان المختلفة في رفع درجة الحرارة فيهِ، فلاحظ ان اشعة اللون الاحمر اشدُّ رفعاً لدرجة الحرارة في المقياس وان اشعة اللون البنفسجي اقلها. ثم خطا الخطوة التالية، وهي خطوة يحتمها المنطق، اذ وضع مقياس الحرارة في المنطقة التي تلي اللون الاحمر، وهي منطقة لا تتبين العين فيها لوناً ما، فوجد ان درجة حرارتهِ، ترتفع وهو فيها، اكثر من ارتفاعها اذ يكون المقياس مغموراً بالامواج الحمر. فثبت لهُ ان وراء اللون الاحمر، امواجاً خفية، تبعث حرارة في الجسم الذي يغمر بها. ثم طبق هو وطائفة من الباحثين الذين تلوه، ما كان معروفاً عن خضوع امواج الالوان المختلفة، لقوانين الانعكاس والتكسر والاستقطاب والتداخل فثبت ان طبيعة هذه الامواج الخفية من طبيعة الامواج المرئية

ولم يكتف هرشل باستكشاف المنطقة التي وراء اللون الاحمر بمقياس الحرارة، بل حاول كذلك استكشاف المنطقة التي وراء اللون البنفسجي، فوجد الفعل مختلفاً، اي كان كلما بعد بمقياسهِ عن امواج اللون البنفسجي يرى الحرارة فيهِ وقد هبطت. وكان ذلك مما توقعهُ وتوصل اليهِ بالاستنتاج

من مشاهدة التدرج في هبوط درجات الحرارة في المقياس ، بالانتقال بهِ من وراء الاحمر او تحت الاحمر الى الاحمر الى ما يليهِ من الالوان

وكان الكيمياوي السويدي شيل ، قد اكتشف ان أملاح الفضة تتغير لوناً اذا عرضت لضوء الشمس . فتساءَل الباحثون ، هل للاشعة التي فوق اللون البنفسجي تأثير في املاح الفضة ؟ وفي سنة ١٨٠٢ جرّب ولاستن التجربة التي اسفرت عن الجواب . ثم اثبت يونغ ان الفعل الكيمياوي الذي تتصف بهِ الاشعة التي فوق البنفسجي سببها امواج اثيرية ، لانها تنعكس وتنكسر وتستقطب كأمواج الضوء . ونحن نعلم ، الآن ، ان هذه الاشعة هي التي تؤثر في املاح الفضة التي تغطي طبقة الافلام وألواح التصوير فتجعل التصوير الضوئي ممكناً . ونعلم كذلك ان ما تتصف بهِ هذه الامواج من الفعل الكيمياوي يستعمل الآن لتوليد بعض انواع الفيتامين في مواد خاليةٍ منهُ . وليس هنا مجال التبسط في ذلك

ولعلي لا أخرج كثيراً عن الموضوع ، اذا قلت ان الباحث الاميركي ميز Mees اثبت من عهد قريب ان الاشعة التي تحت الاحمر ، وهي اشعة حرارة كما قدمت ، تؤثر تأثيراً كيمياويًّا في بعض المواد ، فصنع ألواح تصوير تغشاها المادة التي تتأثر بالاشعة التي تحت الاحمر ، وأحمى مكواة ووضعها في حجرة معتمة ، فلم يرها بعينيهِ ولكنهُ استطاع تصويرها ، لان اشعة الحرارة المنطلقة منها أثرت في لوح التصوير فرسمت المكواة عليهِ

وكذلك امتدَّ طيف الاشعاع من اليمين ومن اليسار ، أو من تحت ومن فوق ، فشمل من ناحية اللون الاحمر ، اشعة الحرارة ، ومن ناحية اللون البنفسجي الاشعة الكيمياوية ، فالاولى تعرف باسم الاشعة التي تحت الاحمر ، والثانية بالاشعة التي فوق البنفسجي . وكذلك ثبت ، أن بين الضوءِ والحرارة صلة وثيقة . فهل ثمة ظاهرة اخرى من ظاهرات الطاقة تتصل بهما ؟

هذه مسألة تستهوي العقول التي يشغلها ويحيرها ما في الطبيعة من اسرار ، ويحثها الشوق الى التساآل والتجربة . وكان من الطبيعي ان يتجه فراداي الانكليزي وهو امير العلماء المجربين في عصره ، الى هذا السؤال . ففي سيرتهِ ما ينبئنا انهُ كان في سنة ١٨٢٢ معنيًّا بالبحث عن الحلقات الخفية الناقصة، في سلسلة الظاهرات الطبيعية وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً في ان الاشكال المختلفة التي تظهر فيها قوى المادة ترتدُّ الى اصلٍ واحد ، وكان بطبيعة مباحثهِ الاخرى ، يهتم بالضوء والمغناطيسية والكهربائية . وكان الضوء المستقطب يحيرهُ . وكان يحسُّ وليس عندهُ دليل، ان هناك صلة بين المغنطيسية والكهربائية . فامرَّ شعاعة من الضوءِ المستقطب بين قطبي مغنطيس كهربائي قوي ، فتبين لهُ ان شعاعة الضوء تدور عندما يجري التيار الكهربائي في المغنطيس . فاذا انقطع عادت الشعاعة الى وضعها الاصلي . ثم اخذ لفّـة من السلك بدلاً من

مغناطيس واجرى فيها تياراً فكان تأثيرها في شعاعة الضوء المستقطب كتأثير المغناطيس الكهربائي
نخلص فراداي من هذه التجارب الى النتيجة المحتومة بان للضوء خواص كهربائية ومغناطيسية .
وفي سنة ١٨٤٦ تنبأ فراداي بأنهُ لا بدّ ان يجيء يوم يثبت فيهِ انَّ ثمة صلة بين الضوء والاهتزازات الكهربائية المغنطيسية (الكهرطيسية) في الاثير . وكان فراداي مجرّباً عبقريًّا ولكنهُ كان غير راسخ العلم في الاساليب الرياضية ، وهذا التنبوء الجريء ، لا بدّ لهُ من سحر الرياضة ليحوّلهُ من خاطر ومشاهدةٍ الى حقيقة علمية

ومن محاسن الاتفاق ، او من اسرار الخلق ، ان العصر الذي انجب فراداي ليكشف هذا الكشف ويقذف بهذه النبوءة الجريئة ، انجب كذلك اميراً من امراء البحث العلمي الرياضي في جميع العصور اعني جيمس كلارك مكسول . كان مكسول مجرّباً لا يستهان بهِ ، ولكن قلَّ من يجاريهِ في عبقريتهِ الرياضية . فنظر مكسول في نتائج التجارب التي اجراها فراداي وقال في ذات نفسهِ لا بدّ من وجود تفسير لما يتصف بهِ الضوءِ المستقطب من الخواص الكهربائية والمغناطيسية . فعكف على التحليل الدقيق ، وخرج منهُ بمعادلات رياضية ، تدلُّ على ان في الفضاء اضطرابات كهربائية مغنطيسية تتصف بصفات الضوء . فكأن مكسول قال : ان الضوء مظهر اضطراب موجي في الاثير ، وكذلك الاضطرابات الكهربائية الناشئة من شرارة كهربائية تبدو في مظهر امواج في الاثير ، لا نراها ، ولكنها هناك كالامواج التي تحدث النور والحرارة والطاقة الكيمياوية تسير جميعها بسرعة واحدة ، هي السرعة المعروفة للضوء اي ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية

وقضى مكسول ، في سنة ١٨٧٩ وهوِ في الثامنة والاربعين من عمره ، ومعادلاتهُ الرياضية لا تزال ارقاماً ورموزاً على ورق ، ولكن لم تكد تنقضي سبع سنوات على وفاته حتى حقق هينريش هرتز الالماني بالتجربة ، ما كان ظنًّا في ذهن فراداي ومعادلة رياضية في بحوث مكسول . ففي يوم من ايام سنة ١٨٨٦ كان هرتز يجرب التجارب في معمله ، بملفين من الاسلاك المعزولة ، واذ هو يجرب لاحظ انهُ اذا افرغت جرة ليدن في احد الملفين احدث افراغها تاثيراً في الملف الآخر البعيد عنهُ . فدهش لذلك . ومضى في التجربة بغية الاستيثاق ، فثبت له ان التأثير في الملف الثاني لا يقع الاَّ اذا كان في حلقة الملف الاول فراغ صغير بين طرفيهِ اي متى كان الملف كالخاتم وقد احدثت فيه ثغرة صغيرة . ثم ثبت لهُ كذلك ان تفريغه جرة ليدن في الملف الاول يحدث تاثيراً في الملف الثاني ولو ابعد عنه بعداً لا بأس بهِ

ثم نوَّع التجربة ، فاحدث ثغرة في الملف الثاني كالثغرة التي في الملف الاول ، ثم افرغ جرة ليدن في الاول فقفزت شرارة بين الطرفين ، وقفزت شرارة مثلها بين طرفي السلك الثاني مع انه لم يكن ثمة اي اتصال بينهما . وتفسير ذلك ان قفز شرارة بين طرفي الحلقة الاولى

احدث اضطراباً او ذبذبة في الفضاء ، فانتقل هذا الاضطراب او الذبذبة الى الملف المقابل فاحدث فيه تياراً كهربائياً مؤثراً induced فقفز شرارة بين طرفي الحلقة حيث تقوم الثغرة. فكان ذلك الجهاز اللاسلكي الاول في ابسط اشكاله

وكانت الخطوة التالية ، ان عُني هرتز بدراسة الاضطراب الذي يحدث في الفضاء ، اي الذبذبات او الامواج التي تنتقل من الملف الاول الى الملف الثاني . فاثبت ان هذه الامواج تكسر وتستقطب وقاس سرعتها فوجدها كسرعة الضوء تماماً، ثم بين انها تتداخل interference كامواج الضوء . ان هذه الامواج التي تنتقل في الفضاء على اثر تفريغ جرة ليدن تتصف بجميع صفات الامواج الضوئية ، والفرق الوحيد بينها وبين الامواج الضوئية ، انها كانت اطول كثيراً من امواج الضوء

وكذلك تحققت نبوءة من اعظم النبوءات العلمية في العصر الحديث ، فافضى تحقيقها الى تقدم عملي عجيب في المخاطبات اللاسلكية

كان هرتز في السابعة والثلاثين من عمره ، عند ما أصيب بتسمم في دمه وقضى . ولكنهُ كان قد طبق جميع اساليب البحث على الاشعة الكهربائية المغنطيسية — وهي المعروفة باللاسلكية الآن — ليعرف هل هي من نوع امواج الضوء فعكسها وكسَّرها وفرقها وداخل بعضها في بعض . ومن المعروف الآن انها تمتدُّ من حيث طول موجتها عشرات الاميال الى حيث طولها بضعة سنتمترات . وهي من حيث المدى بين اطولها واقصرها اوسع مدى من طيف الضوء المرئي ، ألوف المرات ، حتى ولو اضفت اليه الاشعة التي فوق البنفسجي والاشعة التي تحت الاحمر

واذن ، كان مدى الاشعاع ، عند ما اثبت هرتز في منتصف العقد التاسع من القرن الماضي وجود الامواج الكهرطيسية ، يشتمل على الضوء المرئي ، وما يحيط بطرفيه من الاشعة الكهرطيسية وأشعة الحرارة — التي تحت الاحمر ، والاشعة الكيمياوية — التي فوق البنفسجي . ولكن الفرق بين اقصر الامواج الكهرطيسية واطول الامواج الحمر كان كبيراً في البدء ، الا أن المباحث الحديثة كشفت عن امواج كهرطيسية قصيرة جدًّا تساوي في طولها او تحاذي اطول الامواج الحمر وكذلك يمكن ان يقال ان طيف الاشعاع من اطول اشعة الراديو الى الاشعة التي فوق البنفسجي ، اصبح بالبحث الدقيق والتجربة البارعة « مكشوفاً » للعلم ولا ثغرة فيه . في الناحية الواحدة امواج يقاس طولها بالاميال ، وفي الناحية الاخرى امواج يقاس طولها باجزاء صغيرة من السنتمتر أو الملمتر

ولكن ايقف طيف الطاقة عند هذا الحدّ من ناحية الاشعة التي فوق البنفسجي ؟ اليس وراءها اشعة اخرى ، امواجها اقصر من هذه الامواج التي تؤثر في املاح الفضة ؟

هذا سؤال لم تُنر الطريق الى الجواب عنهُ الاّ بعد انقضاء نحو عشر سنوات على اكتشاف الاشعة الكهرطيسية او اشعة الراديو او الاشعة اللاسلكية

ففي سنة ١٨٩٥ كان وليم رنتجن في فرتزبرج . وكان في احد الايام يبحث في حجرة معتمة، وكان من ادوات بحثهِ انبوب استنبطهُ السر وليم كروكس الطبيعي الانكليزي فنسب اليه ،وكان رنتجن قد غطاه بورقة سوداء . فلاحظ في احد الايام ظاهرة عجيبة استرعت نظرهُ واستوقفت فكرهُ . ذلك ان تياراً كهربائيًّا كان منطلقاً في انبوب كروكس ، وهو مغطى بالورقة السوداء . وعلى بضع اقدامٍ منهُ كانت لوحة مغطاة بطبقة من مركب (بلاتينو سيانور الباريوم) ، فتألقت اللوحة تألقاً عجيباً . فظن اولاً ان اشعة المهبط احدثت هذا التألق . ولكنهُ بعد تفكير عرف ان هذه الاشعة لا يسعها اختراق زجاج الانبوب . فعدل عنها الى القول بان هناك اشعة اخرى تخترق الزجاج والورق الاسود وطبقة من الهواء كثافتها بضع أقدام — المسافة بين الانبوب واللوحة — وعندئذٍ جعل يجرب التجارب ليعرف قدرة هذه الاشعة الخفية على اختراق الاجسام والنفوذ من خلالها ، وذلك بوضع أجسام مختلفة الكثافة والصلابة بين الانبوب واللوح . ومن جملة ما وضع يداً بشرية وراءها لوحة فوتغرافية حسّاسة . ولشدة دهشتهِ وجد صورة اليد وعظامها قائمة في الصورة حالة ان الانساج المحيطة بها كانت رمادية الى البياض. فكأنَّ هذه الاشعة اخترقت اللحم والدم ولم تخترق العظام

وفي ٢٤ دسمبر سنة ١٨٩٥ اعلن رنتجن اكتشافهُ لهذه الاشعة الخفية في رسالة تليت على جمعية برلين الطبيعية . ووسمها بحرف X الذي يرمز بهِ الى المجهول في علم الجبر . وبعدما دعيت بالعربية اشعة اكس واشتهرت بها رأى بعضهم اطلاق اسم الاشعة السينية عليها لان الحرف «س» يحلُّ محلَّ الحرف X في الجبر العربي ويسهل استعمالهُ منسوباً اليهِ

عند ذلك اخذ العلماء يسألون ، هل امواج هذه الاشعة ، من نوع اشعة الضوء واشعة الحرارة والاشعة الكيمياوية ، والاشعة اللاسلكية . وانقضت ست عشرة سنة قبل ان فاز العلم بالجواب الاول . ففي سنة ١٩١١ تمكن العلامة الالماني فون لاو Von Laue من تفريقها بوساطة لوحة محزّزة . ثم جاراهُ وليم براج الانكليزي في هذا البحث فعكسها وقاس طول امواجها فوجدها اقصر من امواج الاشعة التي فوق البنفسجي ، واقصر الوف المرّات من اشعة الضوء الذي يرى . وفي سنة ١٩٢٥ كسّرت، فاجتمعت الادلة الوافية ، على انها جزءٌ من ذلك الطيف طيف الاشعاع الذي يجمع اشعة الراديو واشعة الحرارة واشعة الضوء والاشعة الكيميا وية

هل ينتهي الطيف عند هذا الحدّ ؟ هوذا السؤال نفسهُ يتردد ثانية وثالثة . اوليس وراء الاشعة السينية اشعة اخرى ، اقصر امواجاً واعظم نفوذاً واختراقاً للاجسام ؟ في الرد

عن هذا السؤال تنطوي جميع المباحث الخاصة بالمواد المشعّة التي مهّد لها بكريل الفرنسي الطريق وعبّدها بيير كوري وزوجته ماري باكتشافهما عنصري البولونيوم والراديوم وما تلا ذلك من مباحث عشرات من العلماء الاعلام الذين اثبتوا ان انواع المقذوفات المنطلقة من الراديوم ثلاثة، هي دقائق الفا ، ودقائق بيتا وهي الكهيربات، واشعة غمّا . واشعة غمّا هذه اقصر امواجاً من الاشعة السينية واشدّ نفوذاً من خلال الاجسام المادية . وما كاد الستار يزاح عن اشعة غمّا حتى بدأ البحث بقصد معرفة طبيعتها وهل هي تابعة للطيف الكهرطيسي . وكانت اقامة الدليل على ذلك من اعسر الامور . ولكن ڤيلار اثبت انها تعكس وتكسّر وتسير بسرعة الضوء وفي سنة ١٩١٤ تمكن رذرفورد واندراده من قياس طول امواجها فثبت انها اقصر امواجاً من الاشعة السينية واذن فقدرتها على اختراق الاجسام اعظم من قدرة تلك ، فضمت الى الطرف القصير الامواج من طيف الاشعاع

وما كادت هذه الحقائق تعرف او يعرف بعضها ، حتى خطّت في افق علم الطبيعة الحديثة علامة استفهام قديمة مؤدّاها ، هل ينتهي مدى طيف الاشعاع عند هذا الحدّ ؟ وكان من المتعذّر الاجابة قبل التجربة والامتحان ، اذ كان يعسر على الذهن البشري ان يتصور اشعة اقصر امواجاً من اشعة غمّا المنطلقة من الراديوم ، وتستطيع لقصرها ان تخترق لوحاً من الرصاص سماكتهُ اكثر من بوصتين . ولكن هذا الذي كان يصعب تصوّره ويتعذّر توقعهُ اصبح حقيقة واقعة ، باكتشاف الاشعة الكونية . وقد سبق لي أن تشرفت بالقاء محاضرة في موضوعها في هذا المجمع الموقر نشرت في كتابه السادس فلا اعيد ما جاء فيها وانما اكتفي بالقول بان اقصر الاشعة الكونية التي تبينتها اجهزة العلماء الدقيقة تخترق ما سماكتهُ ٢٨٠ قدماً من الماء أو ٢٥ قدماً من الرصاص ! مع ان الاشعة السينية لا تخترق الاّ ما سماكتهُ سنتمتران فقط !

بقي علينا ، ان نقول كلمة في وحدة المقاييس التي يعتمدها العلماء في قياس امواج قصيرة من هذا القبيل قبل الاتيان على هذا الجانب من المحاضرة . وهذه الوحدة التي اعتمدها العلماء في قياس طول الامواج القصيرة تعرف « بالانجستروم » وهي جزء من عشرة ملايين جزء من المليمتر

على هذا الاساس من القياس تكون اطوال الامواج في الطيف الكهرطيسي ، كما يلي

ضرب الامواج	اطوال الامواج
الامواج اللاسلكية	من عدة كيلومترات الى عشر المليمتر (مليون انجستروم)
الاشعة التي تحت الاحمر	من مليون انجستروم اي عشر المليمتر الى ٨٠٠٠ انجستروم
اشعة الطيف المرئي	من ٨٠٠٠ انجستروم الى ٤٠٠٠ انجستروم
الاشعة التي فوق البنفسجي	من ٤٠٠٠ انجستروم الى ١٠٠ انجستروم

ضرب الامواج	طول الامواج
الاشعة السينية	انجستروم واحد
اشعة غما	من بضعة اعشار الانجستروم الى سبعة اجزاء من الف جزء من الانجستروم
الاشعة الكونية	اقصر من ذلك كثيراً

٢ — طبيعة الاشعاع

نستيقظ في الصباح فاذا الضوء يغمر الكائنات . فلا يخطر للذهن البشري ان هذا الضوء يصدر ويسير ويستغرق في صدورهِ وسيرهِ ووصولهِ وقتاً . فكان لا بدّ من خيال متيقظ ليتصوّر ان الضوء يتحرك وانهُ يتحرّك بسرعةٍ ثابتة . وليس في تاريخ العلم ذكر من سبق الى فكرة انتقال الضوء ولكن اول من طبق هذه الفكرة تطبيقاً علميًّا على ما نعلم هو الفلكي الدنماركي رويمر . ففي سنة ١٦٧٦ كان رويمر يراقب حركة الاقمار الاربعة التي تدور حول المشتري ، وفي دورانها حول هذا السيار ، تجيء عليها فترات تغيب عن النظر وراءهُ . ثم تبرز للعيان . وكان كل قمر يغيب فترة معينة من الزمن . فدوّن رويمر مدى غياب كلٍّ منها في أرصاد مختلفة . فدهش عند ما رأى ان مدة غياب القمر الواحد ليست واحدة ، فحيرهُ ذلك لانهُ لم يرَ كيف السبيل الى حسبان سرعة دوران المشتري على محوره سرعة متغيرة . ولا كان في وسعهِ كذلك ان يسلم بأن هذه الاقمار تغير سرعتها في دورانها حول المشتري . ثم لاحظ ان هذا التغير في مدى غياب الاقمار ، او في سرعتها الظاهرة على صلة بحركة الارض بالقياس الى حركة المشتري . فالمشتري تبعاً لحركتهِ وحركة الارض حول الشمس ، يكون آناً مقترباً من الارض وآناً مبتعداً عن الارض . فاذا فرضنا ان المشتري ، آخذ في الابتعاد عن الارض . وانهُ لكذلك نرصد احد أقماره فنراهُ يغيب وراءه ثم يظهر . ولكن في الفترة بين غيابهِ وظهوره يكون المشتري قد ابتعد عن الارض . واذن فالضوء الواصل الينا من القمر بعد ظهوره ، يقطع مسافة أبعد من المسافة التي كان قد قطعها قبل غيابهِ ، لابتعاد المشتري في اثناء ذلك . واذا كان المشتري آخذاً في الاقتراب كانت المسافة التي يقطعها قمر المشتري بعد ظهوره اقصر من المسافة التي قطعها قبل غيابهِ ، لان المشتري يكون قد اقترب منا في اثناء ذلك . فاذا كان الضوء يستغرق زمناً مهما يكن صغيراً في اختراقهِ الفضاء او اجتيازه المسافات ، فلا يمكن أن تكون الفترتان اللتان يستغرقهما القمر بين الغياب والظهور ، في حالتي اقتراب المشتري وابتعادهِ واحدة . وكذلك حلّ رويمر العقدة التي حيرتهُ بقولهِ ان الضوء يستغرق زمناً في اجتياز المسافات . وحسب حساب سرعتهِ فاذا هي ١٩٢٠٠٠ ميل في الثانية . وقد صحح هذا الرقم في خلال الزمن الذي انقضى على حساب

رويمر ، وتعددت التجارب واساليب القياس ، والرقم المقبول الآن هو ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية . وعلى هذا القياس يستغرق ضوء الشمس في الوصول الينا نحو ثماني دقائق

هذا القياس الذي قام بهِ رويمر في العقد الثامن من القرن السابع عشر ، اثار سؤالاً كبير الشأن ، لا يزال حتى يومنا هذا يحفز عقول العلماء الى الرد عليهِ . ماذا يحدث خلال سير الضوء في الفضاء اي ما طبيعتهُ وكيف ينتقل ؟ و العصر الذي انجب رويمر فقاس سرعة الضوء واثار بقياسها هذا السؤال ، انجب كذلك نيوتن وهوجنس فذهب كلٌّ منهما مذهباً يخالف مذهب الآخر في طبيعة الضوء وسر انتقالهِ . اما نيوتن فذهب الى ان الضوء ذرات او دقائق تنطلق من الجسم المنير ، بالسرعة التي قاسها رويمر وفي خطوط مستقيمة . فكأنهُ تصور الاشعاع حركة من حركات المادة . وأما هوجنس فتصور الضوء والاشعاع حركة تموجية . اي حركة الطاقة لا حركة المادة . فكأنهُ قال ان امواج البحر تنتقل بتموج الماء . وامواج الضوء تنتقل بتموج الهواء . فلما قيل لهُ ان الضوء يخترق الرحاب الشاسعة بين الاجرام حيث لاهواء يتموج وانهُ ينتقل كذلك في الفراغ ، فرض وجود الاثير ، على انهُ وسط شفاف لا وزن لهُ يملأ رحاب الكون وفجواتهِ

كانت الغلبة في البدء لمذهب نيوتن ، لما كان لهُ من المقام العلمي العظيم ، ولان الظاهرات الضوئية المعروفة في عصره ، امكن تعليلها بمذهبه على اوفى وجهٍ . ولكن ظهرت ظاهرات ضوئية اخرى ، لم يمكن تعليلها بمذهبهِ الذرّي ، وأمكن تفسيرها بالمذهب التموُّجي فعقد لهذا اكليل النصر وظل معتمد العلماء الى اواخر القرن التاسع عشر

ولكن ظهر في اواخر القرن الماضي حقائق تتعلق بالطاقة ومنها الضوء ، اثبتتها التجارب ولكنها جاءت مناقضة للنظرية التموجية . فابتدعت نظرية جديدة ، اصبح لها الشأن الاول في مباحث الطبيعة الجديدة ، ونعني نظرية المقدار (Quantum) وقد كان مولدها الرسمي يوم ١٤ دسمبر سنة ١٩٠٠ وهو اليوم الذي قرأ فيهِ العلامة الالماني ماكس بلانك رسالة في الجمعية الطبيعية الالمانية ضمنها قواعد هذه النظرية

ويجدر بنا قبل ان نصف الصورة الجديدة التي رسمها العلم الحديث لطبيعة الاشعاع ان نوطىء للوصف بفذلكة عن فكرة الانفصال في الطبيعة . فلنفرض اننا نملك منجماً للفحم . وان في هذا المنجم اربعمائة عامل . وانهُ ينتج في الاسبوع خمسمائة طن . ولنفرض ان الاحوال الاقتصادية قضت بنقص عدد العمال . فالنقص لا يمكن ان يتمّ في وحدات اقل من عامل واحد . اي اننا لا نستطيع ان ننقص عدد العمال من ٤٠٠ عامل الى ثلاثمئة عامل ونصف

عامل . بل يجب ان يكون اما ثلثمائة عامل واما ثلثمائة عامل وعامل واحد . اما مقدار الانتاج فيمكن ان يزيد او ينقص بكسور من الطن

وكذلك في الطبيعة . ففيها كميات ، تتغير تغيراً متصلاً واخرى لا تتغير الاّ تغيراً منفصلاً . فالوقت والمسافة من النوع الاول وان كانا يقاسان بمقاييس تنتقل قفزاً من أصغر وحداتها الى الوحدة التالية. ولكن عند ما نسأل كم ذرة من الايدروجين في لتر من هذا الغاز ، لا يمكن ان يكون الجواب الاّ عدداً كاملاً من الذرات . لا كسور فيهِ . اذ لا يمكن ان يكون في اللتر كذا مليون من ذرّات الايدروجين ونصف ذرة او ثلث ذرة منهُ . فالطبيعيات الكلاسيكية كانت تتناول الكميات المتصلة كالوقت والمسافة والكتلة والقوة والطاقة

ولكن نشوء النظرية الذرّية في القرن التاسع عشر ، احدث التغيير الاول . اذ اثبتت ان المادة منفصلة لا متصلة . فالايدروجين المحفوظ في وعاءٍ يحتوي على عدد كبير جداً من الذرات الكاملة . وهذه النظرية القائمة على مبدإ الانفصال مكنت العلماء من تعيين كتلة ذرة واحدة من الايدروجين . وكانت النتيجة الاولى ان انهارت فكرة الميكانيكيات الكلاسيكية القائمة على اتصال الكتلة . اذ ليس في الامكان ان تضيف الى وعاءٍ يحتوي غاز الايدروجين مليون ذرة ونصف ذرة من هذا الغاز ولا ان تزيل منهُ مليون ذرة ونصف ذرة

ثم اتصل اثر ذلك بالكهربائية نفسها . ذلك انهُ لما ثبتت النظرية الكهربية (الالكترونية) القائلة بان الذرة قوامها بروتونات والكترونات ، وان هذه الوحدات هي وحدات الكهربائية السالبة والموجبة ، ظهر ان الشحنات والتيارات الكهربائية ليست متصلة فلا يمكن ان تنقص ولا ان تزيد الاّ بوحدات كاملة

واذا كان ذلك كذلك فاي جديد اتت بهِ نظرية المقدار ؟ الجديد الجريء في نظرية المقدار ، ان العلامة بلانك ، قال بان جميع ضروب الطاقة منفصلة القوام . اي انها غير متصلة ، وانها مجموع وحدات اطلق على كلّ منها « كوانتوم » وقد ترجمناها بلفظ « مقدار » والجمع « مقادير » . فاصبح عندنا المقادير الاساسية في المادة وهي الذرات ، والمقادير الاساسية في الكهربائية وهي الكهيربات والبروتونات والبوزيترونات ، ومقادير الطاقة

تطلق الاجسام المضيئة اشعاعاً ، وتمتص المادة هذا الاشعاع او تعكسهُ او تفرقهُ . قال بلانك: كل ما تطلقهُ الاجسام المضيئة من الاشعاع وما تمتصهُ المادة منهُ لا يتم الاّ في « مقادير ». فالجسم يطلق عدداً معيّناً من المقادير الكاملة والآخر يمتص حين يمتصُّ عدداً معيناً من المقادير الكاملة

هذه نظرية « المقدار » في ابسط اشكالها . ومن الطبيعي ان يكون اول سؤال يتبادر الى الذهن في هذا الصدد ، ما حجم المقدار . فلنعمد الى التشبيه في التوطئة للردّ على هذا السؤال الوحدة الاساسية في الميزانية المصرية هي المليم . فلا يمكن ان تزيد الميزانية او تنقص الاّ

ملاليم مهما يكبر عددها . ولنفرض ان الوحدة الاساسية في الميزانية الانكليزية هي « البنس ». فلا تزيد الميزانية البريطانية ولا تنقص الا « بنسات ». وان الوحدة الاساسية في الميزانية الفرنسية هي « السنتيم » فلا تزيد او تنقص الا سنتيمات . كلٌّ منها وحدة اساسية ولكن قيمة هذه الوحدات الاساسية الثلاث ليست بمتساوية

فاذا كانت هذه الوحدات هي « المقادير » الاساسية في الميزانيات الثلاث، فالمقادير مختلفة القيمة أو الحجم . وهي كذلك في الطبيعة . ان « مقدار » الضوء الاحمر يختلف عن « مقدار » الضوء البنفسجي . والمقدار يزيد كبراً بالقياس إلى قصر الموجة في الطاقة التي يمثلها . فطول الموجة في الضوء البنفسجي نصف طول الموجة في الضوء الاحمر . وإذن فمقدار الضوء البنفسجي ضعف مقدار الضوء الاحمر

واذن يتحوَّل سؤالنا : ما هو المقدار اي الكوانتم الاساسي للطاقة الى سؤال آخر : ماهو المقدار الاساسي لضرب معين من الطاقة ذي طول موجة واحد . وفي الرد على هذا السؤال لا بد من استعمال كمية ثابتة استنبطها بلانك وتعرف في علم الطبيعة الحديث « بثابت بلانك » ويرمز اليها في اللغات الاعجمية بالحرف h الصغير فلنرمز اليها بالحرف (ه) . وهذه الكمية ليست من ابتداع المخيلة وانما توصل اليها بلانك من تجارب ومباحث دقيقة كلّ الدقة . وعن طريق هذا الثابت (ه) نستطيع ان نعين « مقدار » او كوانتوم كل ضرب من ضروب الاشعاع اذا عرفنا طول موجته بحسب المعادلة التالية

$$\text{مقدار الطاقة} = \frac{\text{ه} \times \text{سرعة الضوء}}{\text{طول الموجة}}$$

ومن هنا يتبين انهُ كلما قصرت الموجة زاد المقدار . ويجب ان تكون جميع الكميات في هذه المعادلة بالسنتمتر او بأجزاء منهُ

ولا يخفى على حضراتكم انهُ اذا رفع ما وزنهُ كيلوغرام مسافة مترٍ انفق على هذا الرفع قدر من الطاقة . فاذا قسمتم هذا القدر من الطاقة مائة مليون جزء دعي كل جزءٍ منها « ارج » فهذه الوحدة الصغيرة من وحدات الطاقة يمكن ان يقاس بها العمل الذي تعملهُ النملة الصغيرة في بناء قريتها . فاذا سألنا ما عدد مقادير الضوء الاحمر في « الارج » افضى بنا الحساب الى انهُ ٤٠٠ مليون مقدار في الارج الواحد . وكان عدد مقادير الضوء البنفسجي في الارج الواحد ٢٠٠ مليون مقدار . وعدد المقادير ينقص في الاشعة التي امواجها أصغر مما تقدم كالاشعة السينية واشعة غما

وفي سنة ١٩٠٥ نشر عالم شاب في « انالن در فيزيك » بحثاً في تطبيق نظرية « المقدار » على الضوء . وكان ذلك العالم البرت اينشتين . فتقدم بالنظرية التي اخرجها بلانك خطوة الى الامام . اذ قال ان الضوء ليس تموجاً وانما هو « مقادير » دعاها فوتونات (وقد ترجمها احد اعضاء مجمعنا الاستاذ اسماعيل مظهر بضويئات قياساً على جزيئات) تسير بسرعة الضوء . فكانهُ أحيا نظرية نيوتن الذرية في طبيعة الضوء ، مبدلاً فيها التبديل الذي يقتضيه تقدم العلوم الطبيعية في

هذا العصر . ولكن اذا الغينا النظرة التموجية في الضوء ، حذفنا من علمنا صورة « طول الموجة » فماذا يحل محلها ؟ بمقتضى هذا التغيير يصبح علينا أن نقول « الطيف المرئي قوامه ضويئات مختلفة الطاقة » بدلاً من « الطيف المرئي قوامه أمواج مختلفة الاطوال » . و « ان طاقة الضويء في المنطقة الحمراء من الطيف نصف طاقة الضويء في المنطقة البنفسجية في الطيف نفسه» بدلاً من « إن طول الموجات في الاشعة الحمر ضعف طول الامواج في الاشعة البنفسجية »

وليس خروج العلماء على نظرية الضوء التموجية نتيجة نزوة من النزوات، ولكن لان النظرية الجديدة تفسر ظاهرات عجزت النظرية التموجية عن تفسيرها ، وتنبئ بحقائق اثبت البحث صحتها

الاّ ان نظرية « المقدار » لم تحلّ جميع المصاعب التي تعترض العلماء في بحث الطاقة . ففي دراسة الضوء ظاهرة تعرف باسم الفعل « الكهربائي النوري » او « الكهرنوري » لا يمكن تفسيرها بنظرية الضوء التموُّجية . ويمكن تفسيرها أحسن تفسير بنظرية المقدار . ولكن هناك ظاهرة أخرى تعرف بظاهرة « التداخل » لا تجدي نظرية المقدار في تعليلها ولكن النظرية التموجية تجدي . وهذا مما يحيّر . فقد تعودنا ان نحسب الضوء نوعاً من التموج . ولكن بعض الظاهرات تقتضي ان يكون تياراً من المقادير دعيت الضويئات . وتعوَّدنا ان نحسب المادة مجموعة من الدقائق . ولكن بعض التجارب يثبت ان دقائق المادة تتصرف كأنها امواج . وقد منح جرمر الاميركي وطمسن الانكليزي — نجل السر جوزف طمسن — جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٣٧ لاثباتهما ذلك بالتجربة . ولذلك سعى العلماء في العشر السنوات الاخيرة ، الى الجمع بين الرأيين في صورة جديدة ، أطلق عليها اسم « الميكانيكيات الموجية » . فبمقتضى هذه الصورة الجديدة يكون الكهيرب متصلاً حين ينطلق او مصحوباً بسلسلة من الامواج . ولكنها ليست امواجاً طبيعية ، فكأنها امواج غير مادية كامواج الغبطة أو الحزن او الحماسة التي تكتسح شعباً من الشعوب

لا تزال هذه النظرية غير مفهومة تماماً الاّ لنفر يسير من العلماء . لانها لا تزال في دور البحث الرياضيّ العالي . ولان مقتضياتها ليست مما يسهل افراغهُ في صور قريبة من الذهن ، ولا سيما الذهن الذي تعوَّد التفكير الطبيعي على أساس الطبيعة الكلاسيكية

ولعلّ عالمنا الطبيعي الكبير الدكتور مشرَّفة يبسط لنا في محاضرة خاصة الفكرة الحديثة في ثنائية المادة والطاقة ، فانهُ من الاعلام الذين أضافوا اليها إضافات سجّلت لهُ في الجمعية الملكية البريطانية واشار اليها غير واحدٍ من العلماء في مؤلفاتهم الحديثة . قال السر جيمز جينز في كتابه « الكون الخفيّ » ما يلي صفحة ٧٧ : وقد اقترح مشرّفة وغيرهُ ان السرعة قد تكون الفرق الوحيد بين الاشعاع والمادة ، فالمادة نوع من الاشعاع المتجمد سائراً بسرعة أقل من سرعته السوية

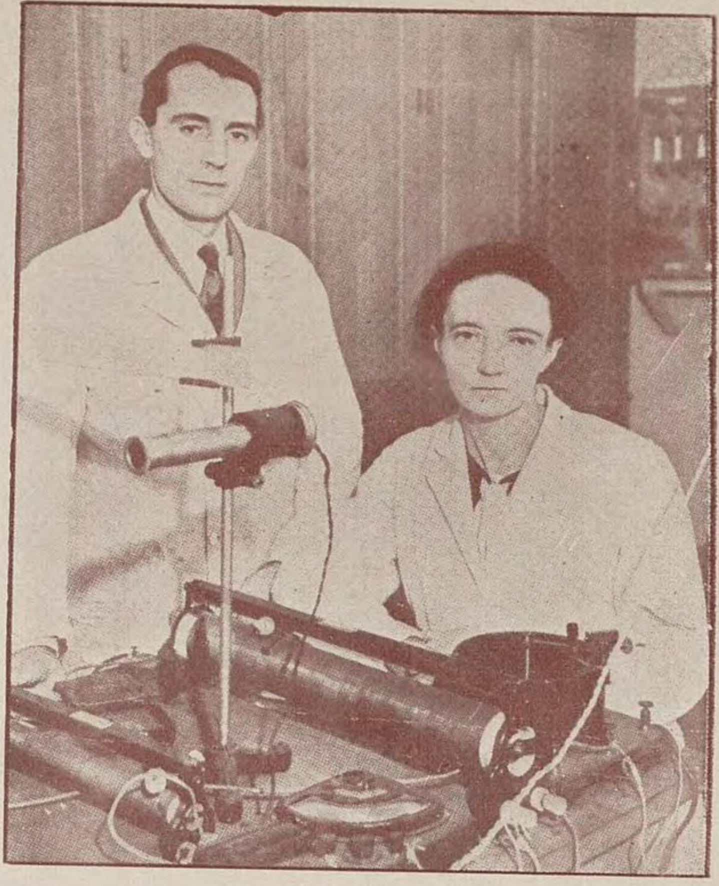

الاستاذ كوري جوليو وزوجهُ مكتشفا النشاط الاشعاعي الصناعي

ارنست لورنس مستنبط « السيكلوترون »

٣ — النشاط الاشعاعي الصناعي

استعملنا لفظ الاشعاع في ما تقدم من القول مقابلاً للفظ Radiation الاعجمي. ولكن هناك لفظاً آخر لا بدّ من وضع مقابل خاص لهُ للتمييز وهو لفظ Radio-activity وقد رأينا ان نختار لهُ مقابلاً عربيًّا فاخترنا « النشاط الاشعاعي »

هذا الفصل من البحث ذو مشهدين. احدهما بدأ عند ما كشف بيير كوري وزوجه ماري سكولودوفسكي البولندية الاصل، عنصر الراديوم قبيل نهاية القرن الماضي. وقد دام هذا الدور حتى مستهل العقد الرابع من القرن العشرين. اما المشهد الثاني فيبتدىء باسم كوري كذلك، ولكنهُ اسم ايرين كوري كريمة مكتشفي الراديوم. وهي الآن زوج الاستاذ جان فردريك جوليو، وقد قبل زوجها ان يضاف اسم كوري الى اسمهِ، تخليداً لذلك الاسم الكريم اللامع في تاريخ الطبيعة الحديثة، لان الاستاذ بيير لم يعقب ذكراً، فاصبح الاستاذ جوليو وقرينته يعرفان باسم مركب هو « كوري، جوليو »

ما اعجب اسرار الخلق! تفرُّ فتاة بولندية من وطنها ابتعاداً عن الاستبداد فتؤمُّ باريس، وفيها تلتقي بباحث وديع، فيتزوجان، فيتاح لهما كشف عنصر الراديوم المشعّ فينالان جائزة نوبل الكيماوية ١٩٠٣ ثم يصاب الزوج بحادثة اودت بحياته فتحل قرينتهُ محلَّهُ في السوربون، وتوالي بحثها قصد استفراد ذلك العنصر العجيب، فتنال جائزة نوبل الطبيعية وحدها. ومدام كوري فذّة في تاريخ جوائز نوبل في ان احداً غيرها من العلماء لم ينل جائزتين منها. وهاهي ذي ابنتها تقتفي خطواتها، فتكشف في هذا الميدان ما يجعلها جديرة بجائزة نوبل ايضاً فتنالها هي وزوجها من سنتين (١٩٣٥)

امتاز المشهد الاول في تاريخ النشاط الاشعاعي بدراسة ما يقذف من الراديوم. فاذا هو ثلاثة انواع، دقائق الفا وهي نوى ذرّات الهليوم، ودقائق بيتا وهي الكهيربات، واشعة غمّا وقد تقدم ذكرها. هذه المقذوفات تنطلق من الراديوم انطلاقاً ذاتيًّا لا يؤثر فيها ضغط ولا حرارة عالية او واطئة، فالانسان عاجز عن ان يزيد انطلاقها سرعة او بطئاً، فكأنها خارجة عن نطاق إمكانهِ

اما المشهد الثاني، فيمتاز بانكشاف الطريق الى توليد العناصر المشعة من العناصر غير المشعة. ان عناصر ساكنة مستقرة كالفضة والنحاس والكربون، وهي ابعد ما يكون طبيعة عن عنصر دائم الانحلال كالراديوم، يمكن ان تهيجها فتشعُّ. فكأنك اخذت مقعداً مشلولاً ونفخت فيهِ روحاً جديداً او حقنتهُ بعقار قوي، فقفز عن سريره واصر على ان يشترك في الالعاب الاولمبية

العناصر المشعة نادرة في الطبيعة . ولذلك نجدها غالية الثمن . حتى ان الغرام الواحد من عنصر الراديوم يزيد ثمنه الآن على عشرة آلاف جنيه . وقد كان قبل عقدين من السنين يبلغ ثلاثين الفاً او نحو ذلك . ولذلك يصح القول بأن الكشف الحديث عن تحويل العناصر غير المشعة الى مواد مشعة ، تقدم عظيم الشأن في علم الطبيعة ، وقد يكون ، بل لا يبعد ان يكون ، نفحة جليلة اخرى من نفحات العلم النظري لعلوم الطب العملية . اذ لا يخفى ما للعناصر المشعة من فائدة في بعض انواع العلاج

هذا الكشف الجديد ، الذي اثبت ان الانسان يستطيع ان يحوّل بعض العناصر غير المشعّة الى عناصر مشعّة ، بأساليب صناعية ، وبمقذوفات لا يد للطبيعة في اطلاقها ، نتيجة النشاط العجيب ، الذي بدا في علم الطبيعة التجريبي ، ودار حول نواة الذرة ، عن طريق تهشيمها بغية الوصول الى معرفة قوامها . فقد أذيعت الانباء الاولى عن هذا الكشف في ١٥ يناير سنة ١٩٣٤ في رسالة للاستاذ كوري جوليو وزوجه ايرن كريمة مكتشفي الراديوم . وما ذاع النبأ الذي انطوت عليهِ رسالتهما حتى اكبت عليهِ طائفة من البحّاث في مختلف البلدان ، فتوسعت فيهِ ، وأيدت بتجاربها الحقائق التي كشفاها . وفي مقدمة الذين تناولوها وأضافوا اليها ، اللورد رذرفورد واعوانهُ — وقد كانت وفاة رذرفورد في السنة الماضية خسارة علمية فادحة — والاستاذ ارنست لورنس الاميركي وغيرهم

***

قلنا ان هذا الكشف الجديد ، اي ان هذه المرحلة الجديدة في دراسة النشاط الاشعاعي ، نشأت عن العناية بدراسة نواة الذرة ، والتوسل بتهشيمها الى معرفة قوامها

ولا يخفى ان تهشيم الذرة ، او بالحري تهشيم نواتها ، يقتضي أولاً — قذيفة تطلق على نواة الذرة فتخترق النطاق الكهربائي الذي يحيط بها فتهشمها . وثانياً — وسيلة صالحة لاطلاق تلك القذيفة بزخم كافٍ للتهشيم . وثالثاً — هدفاً يحتوي على الذرات التي نبغي تهشيم نواها كلوح رقيق من البورون او الالومنيوم او المغنسيوم او الصوديوم — وليس بضروري ان يكون الهدف لوحاً — فيوضع الهدف في مسار القذيفة فتصطدم بهِ . ورابعاً — اسلوباً يمكن الباحث من معرفة نتيجة التصادم

تطلق هذه القذائف العديدة على الهدف فلا بد ان يتفق لاحداها ان تصطدم بذرة من الذرات التي في الهدف فتهشم نواتها وقد تتحد بجزء منها فينشأ من هذا الاتحاد مادة جديدة او قد تلصق بالنواة بغير ان تهشمها فينشأ من ذلك جسم اكبر وزناً من جسم الذرة الاصلية . ويكون هذا الجسم غير مستقرّ التركيب فلا يلبث حتى ينحل فتنطلق منهُ دقائق ذرية واشعة

غمًا . وهذه الحالة الاخيرة هي ما يعرف بالنشاط الاشعاعي الصناعي لان النشاط الاشعاعي الذاتي في الراديوم ليس في الواقع الاَّ انطلاق دقائق وأشعة من ذلك العنصر

كانت القذائف التي استعملها اللورد رذرفورد أولاً في تحويل العناصر قذائف تستمدُّ طاقتها وزخمها من الطبيعة ، اي الدقائق المنطلقة بسرعة عظيمة من العناصر والمواد المشعة كالراديوم والبولونيوم والثوريوم وغيرها . فلم يكن لهُ يدٌ في اطلاقها أو في زيادة طاقتها . الاَّ ان العلماء مقتنعون كاقطاب العسكريين بالفائدة العظيمة التي تجنى من استعمال الاجهزة الميكانيكية . ولذلك عمدوا الى استنباط الوسائل والاجهزة التي تمكنهم من ان يتناولوا دقائق مادية منوّعة ، فيطلقوها بوساطة اجهزتهم ، بزخم عظيم

أما الوسائل المستعملة لهذا الغرض فمختلفة. وافضلها جهاز لورنس المعروف باسم السيكلوترون او الجهاز الرحوي . وجميع الاجهزة التي سبقت اتقان طريقة لورنس ، تتصف بخزن مقادير كبيرة من الطاقة الكهربائية واطلاقها بين قطبين ضخمين . ولكن ظهر بعد التجربة انهُ إذا ارتفع الضغط الكهربائي في القطبين وبعدت المسافة بينهما ، تعذر وجود انابيب تصلح لمرور الشرارة العظيمة بين القطبين . وقد صنع فعلاً جهاز عظيم في معهد ماستشوستس التكنولوجي قبل اربع سنوات ، بحيث تنطلق الشرارة الكهربائية فيهِ عندما تنطلق بقوة سبعة ملايين فولط ولكنهُ لم يستعمل لانهُ تعذَّر حتى الآن صنع انبوب صالح لذلك

ولكن ارنست لورنس الاميركي ، احتال على تحقيق الغرض نفسهِ باسلوب بارع . فقد كان في سنة ١٩٢٩ — وهو حينئذٍ في الثامنة والعشرين من عمره — يطالع رسالة لباحث الماني غير مشهور فوقع فيها على وصف لما يحدث للايونات عندما تكون في حقل مغناطيسي ، وكيف تمكن من ان يجعل طاقة الحركة في ايونات البوتاسيوم ، ضعفي الطاقة الاصلية التي قذفت بها . فخطر للورنس ، ان يسعى الى صنع جهاز ، القصد منهُ أن يطلق فيهِ الدقائق بقدر معيَّن من الطاقة واطىء الضغط بالقياس الى الطاقة العظيمة في الاجهزة التي تقدم وصفها . ولكنهُ يجعل الجهاز بحيث تؤثر هذه الطاقة مرة بعد اخرى في الدقائق ، فتزيد سرعتها رويداً رويداً حتى تصبح طاقة انطلاقها اضعاف الطاقة الاصلية التي اطلقت بها. وقد شبه الاستاذ كارل كمطن مدير معهد ماستشوستس التكنولوجي هذا الجهاز تشبيهاً لطيفاً يقرب معناهُ . قال انهُ اشبه ما يكون بفتى واقف على عارضة ارجوحة ساكنة فيطلب الى احد رفاقهِ ان يدفعهُ الى الامام . فيفعل . ولكن الفتى يستطيع ان يبلغ علوًّا عظيماً وزخماً كبيراً اذا عرف كيف يرتب حركة قيامهِ وقعودهِ في الارجوحة . وقد استطاع لورنس فعلاً ان يبدأ اطلاق القذائف في جهازهِ بقوة تبلغ ضغطها خمسين الف فولط فقط فيبلغ طاقة حركتها ستة ملايين من الفولطات.

وأحدث الانباء من كاليفورنيا تشير الى انهُ معنيٌّ الآن بصنع جهاز يمكنهُ من ان يقذف به قذائف معينة بطاقة ١٢ مليوناً الى ٣٠ مليوناً من الفولطات ودقائق اخرى بطاقة ٢٤ مليوناً الى ٤٠ مليوناً من الفولطات

قلنا ان القذائف الاولى التي اعتمدها لورد رذرفورد كانت تنطلق انطلاقاً ذاتيًّا من العناصر المشعة . ثم استعملت البروتونات وهي نوى ذرات الايدروجين . ولكن في خلال المدة التي انقضت والعلماء يبحثون عن استحداث جهاز لاطلاق هذه القذائف بطاقة عظيمة ، اكتشف الباحثون دقائق مادية جديدة ، هي اصلح من البروتونات للاطلاق . ففي سنة ١٩٣٢ اكتشف شدك الانكليزي ما يعرف باسم « النوترون » — ومعناه المحايد — وهو دقيقة وزنها واحد اي كوزن البروتون ولكنها لا تحمل شحنة كهربائية واذن يسهل عليها اختراق النطاق الكهربائي حول النواة لعدم تأثرها بفعل الجذب والدفع الكهربائيين . وحوالي ذلك الوقت ايضاً اكتشف يوري الاميركي الدوتيريوم او الدبلوجين ، وهو الاسم الذي يطلق على الايدروجين الثقيل ، اي الايدروجين الذي كتلة نواتهِ ضعف كتلة النواة في الايدروجين العادي . ولما كان البروتون من القذائف المستعملة في هذا البحث ، فالدوتون او الديبلون خير منهُ لان كتلته ضعفا كتلة البروتون ، واذاً فزخمه عند اطلاقه يجب أن يكون اعظم

وكذلك توافرت للباحثين القذيفة . والجهاز اللازم لاطلاقها بزخم عظيم . فتمهَّد الطريق لاحداث النشاط الاشعاعي في عناصر غير مشعة . وفي احدث ما لديَّ من المصادر ان اربعين عنصراً غير مشع استحدث فيها النشاط الاشعاعي باحدى الطرق المتقدمة

ومن العجب ماتمَّ في هذا الميدان صنع الصوديوم المشع باطلاق الدوتونات عليهِ . فعندما يصيب الدوتون ، وهو منطلق بطاقة ٠٠و١٧٥٠ فولط نواة ذرة الصوديوم يندمج فيها ويطلق منها بروتوناً ، ولكن الدوتون ضعفا كتلة البروتون ، اذن يزيد وزن نواة الصوديوم واحداً فتصبح بذلك ذرة صوديوم مشعة . وهذه الذرة تطلق اشعة غمَّا تماثل اشعة غمَّا المنطلقة انطلاقاً ذاتيًّا من عنصر الراديوم! الاَّ ان نصف حياة الراديوم ١٦٠٠ الى ١٧٠٠ سنة. ولكن نصف حياة الصوديوم المشعّ خمس عشرة ساعة . ويمتاز الصوديوم المشع على الراديوم في انهُ لا يطلق الاَّ اشعة غما حالة ان الراديوم يطلق دقائق الفا ودقائق بيتا كذلك . واذن فاستعمال الصوديوم المشع في الطب قد يكون اسهل من استعمال الراديوم

هذا ايها السادة ما اتسع لهُ المقام من القول في الاشعاع من ناحيتهِ الطبيعية فقط دون الابواب المتعددة التي فتحها بحثهُ على العلوم الاخرى ، وحسبي ان تتلقَّوه بحلمكم وتغضوا الطرف عمَّا فيهِ من تقصير

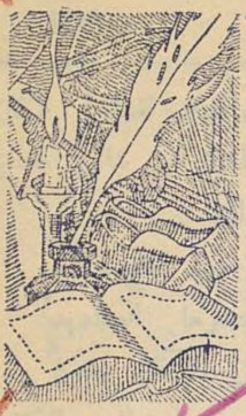

العوامل الفعالة

في

الادب العربي الحديث

عُني حضرة العلاَّمة الاستاذ انيس المقـدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية باعداد بحث نفيس عنوانه « العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث » وهو دراسة تحليلية للنزعات المتجلية في آداب النهضة العربية الحديثة وبواعثها السياسية والاجتماعيـة والفكرية . وقد اتيح المقتطف ان يظفر بهذا البحث . فشرعنا في نشر الحلقة الاولى التي عالج فيها المؤلف « العوامل السياسية في المواطن الرئيسية للنهضة اي مصر والعراق والاقطار السورية من منتصف القرن الماضي الى الوقت الحاضر » . والاستاذ المقدسي يعـلم « ان هذه طريق وعرة لا يأمن سالـكها العثار او الضلال . فاذا كنا نحاول سلوكها فان جلّ همنا ان نشقّها شقًّا واضحاً لمن يسلكها بعدُ فيمهدها ويعبّـدها حتى يصل بها الى الغاية القصوى . وها نحن نعرض هذه الدراسات التمهيدية في المقتطف — المعرض العربي العلمي العام — راجين اولي الاطلاع النظر فيها والتكرُّم بكل ملاحظة تفيد كاتبها وتخدم الحقيقة العلمية المنشودة »

النزعات الادبية

العامة قبل دستور ١٩٠٨

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

— ١ —

﴿ الرابطة العثمانية ﴾ ظلت تركيا الى عهدٍ قريب سيدة الامم العربية من الناحية السياسية، وظلت عاصمتها الاستانة مقرّ سلطنة مترامية الاطراف ، وخلافة دينية واسعة النفوذ

وبرغم ما بلغتهُ في اواخر عهدها من فساد اداري واختلال اقتصادي ، وبرغم الدعايات[1] الواسعة التي كانت تقوم بها الدول الاوربية ، واخصّها روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا ، لا ترى في الشرق العربي منذ ايام ابراهيم باشا المصري حتى اواخر القرن التاسع عشر حركة جدية للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسيّ منظَّم. ولم يكن لقطر عربي من الاسباب الممهّدة لظهور ادب قومي عربيّ النزعة ما كان لمصر في القرن التاسع عشر فهي اسبق البلدان العربية الى انشاء وحدة ادارية ذاتية ، بل هي اول مكان بعثت فيهِ الروح العربية الاستقلالية ، كما يستدل من سياسة ابرهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطار العربية عن جسم السلطنة وتأسيس مملكة عربية كبيرة[2]. كان ابرهيم باشا يحلم بالاستقلال حينما صرّح للبارون بوالكونت بقوله[3] « ما انا بتركي بل انا ابن مصر ان شمسها قد غيّرت دمي فجعلتني عربيًّا قحًّا » وقد سارت مصر بعده بخطى ثابتة في ذلك السبيل ومع كل ذلك ظلّ الادب العربي فيها عثمانيّ الروح . والذي يراجع نفثات الادباء المصريين في القرن الاخير كابي النصر علي ، والشيخ علي الليثي ، وسامي باشا البارودي ، وعبد الله نديم وسواهم يتجلّى له ما نقصد اليه

(١) الدعايات لفظة غير قاموسية . ولكننا آثرنا استعمالها لشيوعها بين الكتاب السياسيين ولانطباقها على قاعدة ذكرها ابن جني في الخصائص تحت باب التدريج

(٢) Rustum, The Royal Archives p. 92-96

(٣) Douin, Mission du Baron Boisle Comte p. 249

وسبب ذلك ، على ما يظهر ، ما كان للخلافة ودعاتها من تأثير في نفوس المسلمين . فكان سلطان تركيا الممثل الاكبر لعظمة الشرق والاسلام . وإذا سمعنا الشيخ الليثي شاعر الخديو اسماعيل يقول في السلطان عبد العزيز (على الطريقة الشعرية في ذلك العهد)

دعْ ذكر كسرى وقصّرْ إن اردت ثنا عن قيصر الروم حيث النفع مفقودُ
واشرح ما آثر من سارت بسيرته ركائب الجود تحدوها الصناديدُ
مَلْكِ الملوك الذي من يمن دولته ظلّ العـدالة في الآفاق ممدودُ

فانما قوله انموذج لما كان يقال في العرش العثماني وخلافة الاسلام . وقد ظلت الروح العثمانية شديدة البروز في مصر حتى حدث ما حدث بعد الحرب الكبرى من سقوط الخلافة وانقلاب السلطنة العثمانية الى دولة تركيّة صرفة . وكان قادة الحركة الادبية على اتصال بعقر الخلافة . تغمرهم النِّعم السلطانية كعلي ابي النصر المتوفي سنة ١٨٨٠ وعبد الله فكري ١٨٨٩ وعبد الله نديم ١٨٩٦ وابراهيم المويلحي ١٩٠٦ ومصطفى كامل ١٩٠٨ ثم المتأخرون عن هؤلاء بالوفاة كاحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري وسواهم

وشوقي على ما يظهر هو اعظم من تغنى شعريًّا بمحامد الخلافة وتعظيم رجالها . فان له في ذلك قصائد سائرة . ومن اشهرها ما نظمهُ في وقائع الحرب العثمانية اليونانية سنة ١٨٩٧ وكان في ابّان شبابه كقوله في بائيتهِ العصماءِ (صدى الحرب) يخاطب السلطان : —

بسيفك يعلو الحقّ والحقّ اغلبُ ويُنصر دين الله ايّان تضربُ
وما السيف الاّ آية الملك في الورى ولا الامر إلاّ للـذي يتغلّبُ

ومنها في وصف معركة ملونا وبأس الاتراك الظافرين : —

فهل من « ملونا » موقفٌ ومسامعٌ ومن جَبَلَيها مِنبرٌ لي فاخطبُ
فاسأل حصنيها العجيبين في الورى ومدخلها الأعصى الذي هو أعجبُ
وأستشهدُ الاطوادَ شمّاء والذُّرى بواذخ تلوي بالنجوم وتجذبُ
هل البأسُ الاّ بأسهم وثباتُهم ام العزمُ الاّ عزمهم والتلدّبُ
أم الدين الاّ ما رأت من جهادهم أم الملك الاّ ما اعزّوا وهيّبوا

والحق يقال ان هذه القصيدة ملحمة حربية . بل هي فيض من العواطف العثمانية . وكذلك كان كثير من شعر شوقي في كل ادوار حياتهِ . فقد نشأ على حب العثمانيين وظلّ من اكبر الدعاة لهم . ومن أراد ان يتحقق عثمانية هذا الشاعر الكبير فليراجع من قصائده ما يلي : —

تحية الترك ومطلعها :

بحمد الله ربّ العالمينا وحمدك يا امير المؤمنينا

ضيف امير المؤمنين ومطلعها :

رضي المسلمون والاسـلام فرع عثمان دمْ فداك الدوام

نجاة امير المؤمنين ومطلعها :

هنيئاً امـير المؤمنين فانما نجاتك للدين الحنيف نجاة

الاسطول العثماني ومطلعها :

هزّ اللواء بعزّك الاسلام وعنت لقائم سيفك الايام

في سبيل الهلال الاحمر ومطلعها :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا

في سبيل الهلال الاحمر ومطلعها :

جبريل هلّلْ في السماء وكبِّر واكتب ثواب المحسنين وسطّر

الاندلس الجديدة ومطلعها :

يا اخت اندلسٍ عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام

تحية للترك ومطلعها :

الدهر يقظان والايام لم تنم فما رقادكمُ يا اشرف الامم

رثاء الخلافة ومطلعها :

عادت اغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الافراح

فمن قراءة هذه القصائد وسواها يتبين لك ما كان للخلافة العثمانية من مقام في نفوس المصريين اما في الادب المنثور فاكثر ما ترى ذلك في خطب السيد عبد الله نديم ومقالاته . ثم في الحركة الوطنية التي قام بها مصطفى كامل وفي كتابات السيد توفيق البكري . ومن امثلته قول الاول في خطاب (١)

« هذي يدي في يد من اضعها ؟ ضعها في يد وطنك واعقد خنصرك على محبة امير المؤمنين الخليفة الاعظم والاّ فقطعها خير من وضعها في يد اجنبي يستميلك اليهِ بوعود كاذبة وحيل واهية لتكون عونه الاكبر على ضياع حقوقك واذلال اخوانك ونزع سلطة اميرك وسلطانك » وهذه الروح بارزة في كثير من اقوال هذا الخطيب

وكان مصطفى كامل (وهو زعيم الحركة الوطنية قبل الحرب الكبرى) يرى ان مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم . فكان كما قال زيدان « شديد المدافعة عنهُ كثير السعي في نصرتهِ . وقد كان يخدم مصلحة الدولة العثمانية من طرق كثيرة فانعم عليه السلطان بالرتب

(١) راجع مقالاته المنشورة على نفقة المطبعة الجديدة (مصر) ولا سيما الثالثة والتاسعة

والالقاب [١] » ومن قرأ خطبه تحقق صدق عثمانيته . ومن امثلة ذلك قوله من خطاب القاه على المصريين في باريس سنة ١٨٩٥ [٢]

« حقاً ان سياسة التقرب من الدولة العلية لاحكم السياسات وأرشدها . فضلاً عن الاسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب فان العدوّ واحد . ولا يليق بنا ان نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه اعداؤنا على تجزئة دولتنا . ولا غرو ان كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن الاّ ابناؤها المستظلون بظلها الوريف المجتمعون حول رايتها » ... الى ان يقول «وقصارى القول ان الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب ان نجتمع حولها . ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والائتلاف فلنتحد قلباً ولساناً ولنكن يداً واحدةً في خدمة الاوطان واسعادها . ولنقل اليوم جميعاً من صميم افئدتنا ليحي جلالة السلطان عبد الحميد وليحي العباس ولتحي العثمانية ومصر »

ولا نستطيع الآن البت في هل كان مصطفى كامل يستخدم الدعوة العثمانية مناوأةً للاحتلال الانكليزي في مصر او كان يستخدم مناوأة الاحتلال اداة لخدمة الخلافة . على ان الذي لا شبهة فيه ان كلتا العثمانية والمصرية بارزتان في حياته وادبه ، وانه كان من اكبر الدعاة في مصر بل في الشرق لتوطيد دعائم الجامعة العثمانية في ظل الخلافة الاسلامية

وقد نشأ قبله اثنان كان لهما يد طولى في هذه الدعوة واحيائها في الادب العربي . الاول احمد فارس الشدياق ١٨٨٧ وهو لبناني الاصل لكنهُ اتمّ علومه في مصر وعمل فيها فتولى كتابة الوقائع المصرية . ثم جال في اوروبا وأقام فيها بضع عشرة سنة . وبعد ذلك امّ تونس حيث اعتنق الاسلام ثم طلب الى الاستانة وهناك انشأ الجوائب وكانت واسعة الانتشار في العالم الاسلامي وفيها يجد الباحث كثيراً من القصائد والمقالات التي تدور على عظمة الدولة ومدح سلاطينها ورجالها . كقوله من قصيدة في عبد العزيز [٣]

للـــدولة العليا عُلىً ومآثر يشدو بها يوم الفخار الآثر
ساست ممالك ليس يعلم حدَّها ولغاتها الاّ العليم القادر
سر حيث شئت من البلاد فلا ترى إلاَّ النعيم وما اشتهاه الناظرُ

والثاني جمال الدين الافغاني ١٣١٤ هـ ويتصل نسبه بآل البيت . كان زعيماً اسلاميًّا كبيراً . وقد اضطرتهُ الاحوال السياسية ان يفارق بلاد الافغان ويقصد الاستانة فاستقبل هناك بحفاوة

(١) تراجم مشاهير الشرق ١ — ٢٩٧ و ٢٩٩ (مصر ١٩٢٢)
(٢) راجعه في كتاب مصطفى كامل باشا (الطبعة الاولى مصر ١٩٠٨) ج ٣ — ١٩٧
(٣) منتخبات الجوائب (١٢٩٢) ٣ — ١٥٢

واقام بها مدة . ثم امّ مصر وكان فيها محجّة العلماء والمفكرين . ولجمال الدين خطط وتعاليم سياسيّة ويؤخذ منها «ان الغرض الذي كان يصوّب نحوه اعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في حوزة دولة اسلاميّة تحت ظل الخلافة العظمى »(١)

ولا شك ان للافغاني وللشدياق اثراً كبيراً في الادب السياسي بمصر

***

ونحن إذا قلنا ان الادب المصري كان متشبعاً بروح التشيُّع للخلافة والجامعة العثمانية فحكمنا يتناول المصريين الاصليين ولا سيما المسلمين منهم . اما نزلاء مصر من السوريين والعراقيين فكانوا فئتين متطرفتين ، فئة تجاري المصريين في عثمانيتهم وفئة تنكر عليهم هذا الاندفاع نحو تركيا

ومن الفئة الاولى سليم تقلا مؤسس جريدة الاهرام . واليك بعض ما كتبهُ سنة ١٨٩٩ في « الوطنية العثمانية » قال — (٢)

« انّ في ممالـكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها ، وكذلك مذاهب مختلفة . ولـكنها تجمعها كلها جامعة واحدة وطنية هي الجامعة العثمانية وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بامره وتنصاع لاحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول ، وما وراء العبث بها الاّ الخسران والضياع . واذا تبيّن هذا ، وهو الحق الصّراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام اخوةً لامٍّ هي دولتهم ، وأبٍ هو جلالة السلطان »

وتتجلّى هذه النزعة العثمانية في شعر خليل مطران . وفي ادب مطران وسيرته ما يدلّ على مجاراته الوطنيين المصريين في آمالهم ونزعاتهم . فلا نستغرب ان نسمعهُ يقول في قصيدته « فتاة الجبل الاسود » وكان قد نظمها قبيل استقلال ذلك الجبل (٣) —

طغتْ امة الجبل الاسودِ على حكم فاتحها الأيّدِ

ومنها — وما الترك الاّ فحول الحروب رضيعو لظاها من المولد

اذا لقحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسؤدد

سواءٌ على المجد ايًّا تكنْ عواقب مسعاهم تُحمَد

وتظل هذه الحماسة العثمانية فيهِ الى زمن متأخر كما نرى في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر (٤) في هذه وما يماثلها يظهر ميله العثماني وتشيعه لوطني مصر

(١) تراجم مشاهير الشرق (زيدان) (مصر ١٩١٠) ج ٢ — ٦١

(٢) مجالي الغرر ٧٣ (٣) ديوانه ص ١٥٤ (٤) راجعها في الشعراء الثلاثة للسندوبي (١٩٢٢) ص ٣١٤ و٣٣٤ والمورد الصافي ٣ — ١٨٣

ويمثل الفئة الثانية المناوئة للسياسة العثمانية سليم سركيس صاحب جريدة المشير فهو شديد التهجم على هذه السياسة وعلى دعاتها . ومما يبيّن لك ذلك مقالة له موضوعها «هل مصر عثمانية» قال فيها[1] «لم اجد في حياتي ولا قرأت في مطالعاتي عن امة تريد الانتقال من نور الأستقلال الى ظلمات العبودية الاّ هذا القسم من الامة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني» ومن شعره قوله [2] —

نرجو صلاح الترك قد خابت امانينا الكواذبْ
هي دولة ظلمتْ وليس العدلُ عن ظلم بذاهبْ
فانشدْ معي قولاً تردّ ده المشارق والمغاربْ
ليس العجيبة فقدها بل عيشها احدى العجائبْ

ومثل سركيس كثيرون ممن بلغ بهم اليأس هذا الحدّ من كره الادارة التركية

على ان بين هاتين الفئتين فئة ثالثة تتوسطهما وتتصل بكلتيهما . وهي فئة المعتدلين الذين لم يعمهم التعرّض عن سيئات تركيا — ومنهم من هجرها طلباً لحرية الفكر — وكان مع ذلك كله يحرص على بقاء الجامعة العثمانية . نذكر منهم فرح انطون فقد اصدر في الاسكندرية سنة ١٨٩٧ مجلتهُ (الجامعة العثمانية) ومن اسمها يتضح مذهبه السياسي وخلاصته [3] ان الامم الشرقية يجب ان تتحالف تحالفاً متيناً جدًّا حتى تستطيع ان تسير مع التيار الغربي فلا يدوسها ولا يستطيع ان يهضمها فهو منذ بدء حياته القلمية يدعو الى جامعة شرقية واسعة. ومن اقواله في العدد الاول من مجلته مشيراً الى المدارس الاجنبية — «فلننشأنّ ايها العثمانيون بازاء تلك المدارس مدارس جديدة يكون اساس تعليمها حب الوطن والامة وتعليم ما هو الوطن وما هي الامة . لنؤسس مدارس جديدة ندخل اليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة . وندخل اليها قبل ذلك عناصر الامة كلها فنربيها فيها على مقاعد واحدة ونلقنها دروساً واحدة ومبادىء واحدة حتى تكون بعد خروجها من حياة المدرسة الى حياة الرجولية بقلوب واحدة وأفكار واحدة فان هذا هو السبيل الى تقوية جدار الوطنية العثمانية ووقايتهُ من الثلم والهدم»

وقد علق على ذلك الشيخ رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي بقوله [4] «فشكراً لك ايها الكاتب الفاضل ، ونجح الله تعالى الجامعة العثمانية بمبادئك الصحيحة» ومما لا ريب فيه ان الشيخ المذكور كان من دعاة العثمانية وكذلك الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد وغيرها من رجال العلم والدين

(١) راجعها في المشير عدد ١٠٣ (٢) المشير ٢١ ابريل ١٨٩٩ (٣) «فرح انطون» ملحق مجلة السيدات والرجال ١٩٢٣ ص ١٤ (٤) المنار مج ٢ — ٤٧

ومن المعتدلين الناظرين الى الامور بعين الروية جرجي زيدان منشىء الهلال فهو من طلاب الاصلاح السياسي ولكنهُ لم يكن مناوئاً للعثمانية . والذي يطالع اعداد مجلته ولا سيما في السنين الاولى يراه عطوفاً على الدولة ولعله كان يرى كما كان يرى اديب اسحق واصحاب المقطم وامثالهم ان الرابطة العثمانية لازمة للشرقيين وان طلب الاصلاح لايعني القضاء عليها او استبدال رابطة اخرى بها

واذا صح ان نعد ولي الدين يكن نزيلاً في مصر لنشأته في الاستانة واعتباره اياها وطنه الاصلي فهو من ابرز المنتمين الى هذه الفئة الوسطى . بل هو يجمع في نفسه تطرف الفئتين الاولين — شدة النقمة على سلطان تركيا ، وشدة العصبية للوطن التركي . فلما كان في مصر ورأى بعض الجرائد الانكليزية والعربية تتحامل على الجنس التركي نسي نقمته على عبد الحميد وحكومته وقام يدافع عن الاتراك غير مبالٍ بمعاداة كثير من خلانهِ الاحرار [(١)] . وهوالقائل « لوطني مني حياتي وكل ماكان دونها على ان اعيش عثمانيًّا واموت عثمانيًّا » [(٢)] ومن اقوالهِ في وطنهِ العثماني

ويخلد للَّيالي فيك حبي   واخلاصي الذي في الناس شاعا

وفي مرثاته لادهم باشا بطل الحرب اليونانية يقول

وبلاد الفتى تعزّ عليهِ   وعظام الآباءِ فيها عظام
وعهود الصبا عهودٌ غوالٍ   وغرام الوفيّ ذاك الغرام

وكيف التفتّ الى ولي الدين تجده في ادبه ذلك العثماني المخلص الذي يكره الاستبداد ولكنهُ يحبّ الوطن ، يمدح اللورد كرومر لحمايته الاحرار في مصر [(٣)] ولكنهُ ينقضّ على مشايعي غلادستون المتحاملين على تركيا والاتراك [(٤)] وحتى في ايام محنته ونفيه الى سيواس لايذكر بلاده الاّ بالخير فيقول [(٥)]

ايها الركبُ سرْ فانّ امامي   لبعاداً مرًّا وعيشاً امرّا
غربةٌ هذه وقد كنت ادري   أن سأرمى بها لدنْ كنت حرّا
فالفحي يا رواسيَ الارض ناراً   وأفيضي فدافد الارض بحرا
وانفحي يا ريح الشمال سموماً   واقذفي يا سوائر الافق صخرا
انا ارضى بذا لحبّ بلادي   وارى في سبيلها الموتَ فخرا

---

(١) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ — ١٠٧ (٢) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ — ١٣٩
(٣) المعلوم والمجهول ١ — ١١٠ (٤) المعلوم والمجهول ١ — ١٠٧ (٥) المعلوم والمجهول ٢ — ٦٥

واذا ذكر الخلافة العثمانية ومجدها الماضي وكيف اصبحت في ايام عبد الحميد قرن ذلك بدموع الاسى على الوطن فقال(١) —

خلافة قد مضى عنها خلائفها من آل عثمان من سادوا ومن شادوا
ابقوا بها المجدَ للاخلاف بعدهمُ والمجدُ يبقيه للاخلاف امجادُ
حتى انتهت لاميرٍ في تسلّطه يخشى مظالمه عادٌ وشدّادُ
يا ويلنا انما نبكي لنا وطناً يبكيه في الترب آباءٌ واجدادُ

فولي الدين مهما يكن موقفهُ من الادارة الحميدية عثماني مخلص شديد التعلق بالجامعة العثمانية ولعله يفوق سائر الاصلاحيين في ذلك

وما يصدق على المهاجرين العثمانيين في مصر يصدق عليهم في سائر المهاجر الاَّ انهُ لما كان اكثرهم هناك من السوريين واللبنانيين النازحين من بلادهم اما رهبة من الاستبداد وإما رغبةً في طلب العلى ، ولما كانوا بعيدين عن تأثير الدعايات العثمانية كما كانت حال اخوانهم في وادي النيل ، فقلما ترى منهم من يعطف على الجامعة العثمانية او يهتم ببقائها . على انك قد تجد منهم من تهزه العصبيّة الشرقية أحياناً فتظهر العثمانية في شعره او نثره ولكن ذلك قليل اذا قيس بسواه

***

وإذا خرجنا من مصر الى سائر الاقطار العربية ولا سيما سوريا ولبنان والعراق فمن الطبيعي أن نجد معظم الادب السياسي فيها متلبساً بملابس المجاملة او التزلف الى السلطان ورجال دولته

ولا ينكر ان من الشعراء في هذه الاقطار من كان صادق العقيدة العثمانية إما لتأثيرها الديني في نفسهِ وإما لاسباب اخرى . على ان الرهبة من الاستبداد او الرغبة في جرّ المغانم كانتا قبل العهد الدستوري من اهمّ الدواعي الى شيوع النزعة العثمانية في الادب العربي وليس على طالب الحقيقة الاّ ان يراجع دواوين الشعراء في ذلك العهد كبطرس كرامه ، وعبد الباقي العمري ، وناصيف اليازجي ، وعبد الغفار الاخرس ، وفارس الشدياق ، ويوسف الاسير ، وابراهيم الاحدب . ثم محمد حسن الحموي ، ومحيي الدين الخياط ، والباروني ، وعبد الحميد الرافعي ، ومن عاصرهم . فانهُ يجد في جميعها ما يماثل قول اليازجي الكبير في السلطان عبد العزيز : —

(١) ديوانه ٤٣

خليفة الله ظلٌّ في خليقته ظلت بهِ تتّقي الدنيا وتستترُ
لا ترتضي غيره الدنيا لها ملكاً لوكان جبريل يأتيها اوالخضر
مقلَّد فوق اثواب مضاعفة من خشية الله سيفاً صاغه القدر
إذا طلبنا من الباري لنا وطراً فليس الاّ بقاهُ عندنا وطر

أو قول عبد الحميد الرافعي في ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد

سألوا يا سعدُ أين المبتغى قلتُ حيث الشمسُ في برج الاسدْ
حيث لي من آل طه سادة ملأُوا الدنيا بأنوار المددْ
ودنوا من ملجأ الملك لدى مقعد الصدق ومرقى المعتمدْ
فرد ذا الدهر حميد الخُلفا دام في حفظٍ من الفرد الصمدْ

وباب مديح العظماء في ادب ذلك العهد واسع ، بل هو أوسع الابواب الشعرية . وكثير منهُ شخصي لا علاقة لهُ خاصة بالاحوال السياسية . على ان منهُ ما يتعلق بالسياسة الداخلية او الخارجية . فدراستهُ من هذا القبيل مفيدة للباحث . ومن أمثلة ذلك قصيدة رفعت سنة ١٩٠٢ الى مظفر باشا متصرّف لبنان عند توليهِ الحكم يحاول فيها الشاعر (١) ان يعبر عن أماني اللبنانيين المهاجرين فيصف حال الجبل في ذلك الحين وأحوال المهاجرين ثم يلتفت الى المتصرف الجديد فيحذّره من تدخل القناصل في ادارتهِ . ويطلب الى نواب الاقضية (اعضاء مجلس الادارة) ان ينشطوا الى ما فيهِ خير البلاد وان يمحوا سيئات الماضي في هذا العهد الجديد . ويختمها راجياً من المتصرف ألاّ تكون وعوده كوعود أسلافهِ كلاماً في كلام فيقول —

أمظفر الجيل الذي ضمنت لنا أقوالهُ يمناً يعزُّ مثالهُ
كم حاكمٍ ابدى لاول حكمهِ وعداً فكان وفاءه اخلالهُ
حاشاك إخلاف الوعود فانت مَن شرف المبادىء والوفاء خِلالهُ
تركوا لنا التاريخ مسودًّا فكن ممّن تخلّد بالجميل فعالهُ

ولو رجعنا قليلاً الى الوراء وراجعنا مثلاً مدائح ناصيف اليازجي وخليل الخوري في فؤاد باشا لقرأنا في خلال سطورها كثيراً عن حوادث السنة الستين في سوريا ولبنان وقس على ذلك كثيراً من شعر المديح المتعلق بحوادث سياسية اثارت خواطر الناس في مختلف الاقطار العربية

« للبحث صلة »

(١) قيصر المعلوف في تذكار المهاجر (١٩٠٤) ص ١٠١

٢ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

لاسماعيل مظهر

٣ — أثر علوم الآلة والطبيعة والكيمياء في تكييف بيئتنا

إنّ البيئة التي كوّنت جسوم آبائنا الاولين وكيفت ارواحهم، طوال الآلاف المؤلفة من السنين، قد استبدلت الآن بغيرها. ولقد مرّ بنا هذا الانقلاب الصامت من غير ان نحسّه غالباً. وكذلك لم ندرك ماله من الشأن. ومع هذا فانهُ احد المآسي الكبرى التي يرويها تاريخ الانسان. ذلك بأن تغيراً ما يصيب المحيط الذي يشمل الاحياء، أنما يترتب عليه اضطرابات لها اعمق الأثر. لهذا ينبغي لنا ان نحقق مدى تلك التحولات التي فرضها العلم على اسلوب الحياة التي عاشها أسلافنا، ومن ثمَّ علينا بالذات

فمنذ بُداءة العصر الصناعي، اضطر فريق كبير من الناس ان يعيشوا في مساحات من الارض ضيقة محدودة. فان العمال قد سيقوا الى التجمع: إما في ضواحي المدن الكبرى، وإما في قرى اقيمت لهم. وهم يعملون في المصانع ساعات محدودة، ويقومون بأعمال سهلة وعلى وتيرة واحدة، وينقدون اجوراً حسنة. وكذلك ترى المدن وقد اكتظت بعمال المكاتب وخدام الحوانيت والمخازن وكتاب المصارف والادارات العامة والاطباء والمحامين ومعلمي المدارس، غير تلك الجموع الغفيرة التي تكسب قوتها، بالذات او بالبواسطة، من التجارة او الصناعة. وما المعامل في الواقع الآن مكاتب كبيرة، حسنة الإضاءة تامة النظافة. ودرجة حرارتها واحدة لا تتغير تقريباً. واجهزة التدفئة والتهوية، ترفع درجة حرارتها شتاءً، وتخفضها صيفاً. في حين ان المُطَرَّحات (ناطحات السحاب) التي نشاهدها في المدن الكبرى قد جعلت من الشوارع والطرقات ما يشبه الاغوار السحيقة. وقد استبدل ضوء الشمس في داخل العمائر بأضواء كهربية غنية بالاشعة فوق البنفسجية. واستعيض عن هواء الشارع المشبع بأدخنة الغزولين، في المكاتب

والمعامل ، بهواءٍ نقي تجذبهُ اليها جهازات التهوية المركبة فوق الاسطح، من طبقات الجو العليا. وقد عمل على حماية سكان المدن الكبرى من كل ما قد يحتمل ان ينزل بهم تغير الطقس من المكدِّرات . ومع هذا كلهِ ، فهم عاجزون عن ان يعيشوا كما عاش اسلافهم ، بمقربة من معاملهم او مخازنهم او مكاتبهم . فالاغنياء يحتلون العمائر الضخمة القائمة على جوانب الشوارع الكبرى . وعلى قمم الابراج العليا يعيش «ملوك العمل» في صروح ممرّدة، يحيط بها الاشجار والحشائش والازاهير. يعيشون هنالك ، محصنين عن أن يصل اليهم رُغاءٌ أو لغط او تراب ، او أي من المكدرات الاخرى ، كما لو كانوا يعيشون في قمم الجبال الشامخة . يعيشون في عزلة عن العامة ابن منها انفراد اسياد القطائع خلف اسوارهم وقلاعهم في قصورهم الحصينة . اما متوسطو الحال ، وبالحري الذين هم أقل غنىً عن اولاء ، فيعيشون في شقق فيها من النعائم مالم يحَطْ بمثله لويس الرابع عشر ، أو فردريك الاكبر . وكثيرهم الذين يعيشون بعيداً عن المدن ، فتحملهم قطارات سريعة مساء كل يوم زرافات غفيرة الى حيث يجدون الطرقات المتسعة تشق رقعاً من الارض اخضوضرت بالحشائش ، وارتال من الاشجار تقوم صفوفاً ، وعلى جانبيها بيوت جمعت كل اسباب الراحة والهناء . أما العمال وصغار المستخدمين، فحياتهم أرقى من حياة الاغنياء في فارط الزمن . فجهازات التدفئة التي تنسق درجة الحرارة آليًّا في المنازل ، والحمّامات ، والمبرِّدات ، والمحامي الكهربية ، والادوات المنزلية التي أعدت للطبخ وتنظيف الحجرات ، تضفي على مسكن كل انسان ، لا في المدن والضواحي وحدها ، بل في الريف ذاته ، طابعاً من الهناءة ، وتزوّدها بعوامل للسعادة ، ما كنت لتقع عليها في غير مساكن قلةٍ من الافراد ذوي الامتياز

مع تغير المسكن ، تغير اسلوب الحياة . والسبب في هذا التغيُّـر راجع في أكثر الامر إلى الزيادة في سرعة المواصلات . وفي الحق إنهُ لظاهر أن القطارات الحديثة والبواخر والطيارات والسيارات والبرق والتلفون ، سلكيًّا ولاسلكيًّا ، قد كيَّفت العلاقات القائمة بين الافراد وبين الامم في انحاء الارض جميعاً . فان الفرد الآن في مستطاعه ان ينجز من العمل اكثر مما كان في مستطاع زميله الاول اضعافاً . ويشترك في عدد اكثر من الاحداث ، وفي كل يوم يتصل بخلائق جُددٍ . والفترات التي يقضيها في هدوءٍ او عطلٍ من العمل ، إنما هي فترات نادرة في مجرى حياتهِ . والعشيرة الضيقة الحدود، عشيرة الاسرة او عشيرة الأبرشية ، قد تبخرت وزالت . فالاقبال على غشيان دور الخيالة والمسارح ، أو القيام باعمال الرياضة البدنية ، والاندية والمجتمعات بأنواعها ، ناهيك بالجامعات العظيمة والمعامل والمخازن الكبيرة والفنادق ، عامة ذا قد أدى الى توثيق عادة العيش في جماهير . فالتلفون والراديو والحاكي بما تسجل من حوادث ، تنقل بغير انقطاع عامية الجمهور ونقائصه ، كما تنقل مسراته وصوره النفسية الى كل بيت ، مهما كانت عزلته

وانقطاعه عن العالم المتمدن . وعلى الجملة فقد اصبح كل فرد ذا اتصال ، سواء أمباشرة ذلك كان ام بالواسطة ، بغيره من الخلائق البشرية ، واقفاً على جميع الحوادث كبيرة كانت ام تافهة ، سواء أفي القرية التي يعيش فيها وقعت ام في المدينة المجاورة ، ام في طرف بعيد من اطراف الدنيا الفسيحة . ففي مستطاع من يقيم في ركن منعزل من اركان الريف الفرنسي ان يستمع الى الانغام التي تتجاوب بها جنبات وستمنستر ، كما ان فلاحاً في « فيرمونت » قد يصغى ان اراد ، الى خطيب يتكلم في برلين او لندن او باريس

حيثما وليت وجهك ، في المدينة ام في الريف ، في المساكن الخاصة ام المعامل ، وفي دور الصناعة والطرقات والحقول والضياع ، ترى ان الآلات قد انقصت من مقدار الجهد الانساني . حتى لقد اصبح من غير الضروري في هذا العصر ان تمشي . واستعيض بالمرقاة عن السلم ، والسيارات العامة والعربات والمتحركات بأنواعها اصبحت مباءة الجميع وملتمسهم في الانتقال مهما قصرت المسافات . كذلك ترى ان ضروب الرياضة البدنية الطبيعية كالمشي والجري على الارض الخشنة وتسلق الجبال واثارة الارض بالعمل اليدوي وقطع الحرجات بالفؤوس والعمل مع التعرض للمطر والشمس والريح والبرد والحرارة ، قد استبدلت بأنواع من اللعب منسقة بحيث تبعدنا عن الخطر ، وبصنوف من الآلات تمنع علينا القيام بأي جهد عضلي . ولقد ترى في كل مكان ملاعب للتنس والجولف وحلقات التزحلق الصناعية وحمامات العوم الدافئة والملاعب التي يقوم فيها الرياضيون بمرانتهم ومصارعاتهم ، وجميعها مداريء تمنع التعرض لتغيرات الطقس . وبهذا الاسلوب يستطيع ايٌّ من الناس ان ينمي عضلاته من غير ان يعرض نفسه للتعب او الصعوبات التي استلزمتها الحياة في العصر البدائي

اما الاطعمة التي تغذّى بها اسلافنا ، وكانت عبارة عن دقيق الشعير الخشن واللحم والمشروبات الكحولية ، فقد استبدلت بأطعمة غيرها فيها من التنوع ، بقدر ما فيها من النعومة . فقديد لحم البقر والغنم ، ليس في عصرنا ، كما كان في سالف العصور ، الغذاء المعتاد . فان العناصر الاساسية في الغذاء الحديث هي اللبن والقشدة والزبد والبقول والغلال مبرأة من القشور وفواكه المنطقتين الاستوائية والمعتدلة ، والخضر الغضّة او المحفوظة والمشهيات ومقادير كبيرة من السكر مصنوعة فطائر او حلوى . ولم يبق محتفظاً بمقامه الاول غير الكحول . كذلك ترى ان غذاء الاطفال قد انتابهُ تغير كبير ذو أثر بيّن . فانهُ الآن في الاكثر صناعي وغزير . وغذاء البالغين لا يقل عن غذاء الاطفال كثرة وغزارة . وانتظام ساعات العمل في المكاتب والمعامل ، نظمت وقت الوجبات استتباعاً . ونظراً الى ازدياد الثروة ، وقد كان عامًّا

حتى عدد يسير من السنين ، والى الضعف الذي اصاب الروح الديني ، والاخلال بمراعاة فرائض الصوم ، لم يمر بالانسان وقت انتظمت فيه التغذية فحددت أوقاتها وروعيت ، كوقتنا هذا

والى ازدياد الثروة وتوزعها في العصر الذي تلا الحرب العظمى ، يرجع السبب في الاقبال على التعلم ، ذلك الاقبال العظيم . فقد اقيمت المدارس وشيدت الكليات والجامعات ، وأمها من طلاب العلم جموع غفيرة . ذلك بان شباب هذا العصر قد أدركوا ما للعلم من أثر في دنيانا الجديدة . وقد قال « باكون » — « المعرفة قوة » — لهذا قصدت جميع معاهد التعليم ونشر المعرفة الى تنشئة الشبان والاولاد تنشئة عقلية ، والى جانب ذلك عنيت بحالاتهم الجسمية والتكوينية . ولا خفاء ان الغرض الذي تتطلع اليه معاهد التعليم انما يتجه الى تنمية القوتين ، العقلية والبدنية . ونرى من جهة اخرى ان العلم قد اثبت فائدته في حياة الناس بحيث شغل من برامج التعليم المنزلة الاولى ، وأن عدداً كبير من الفتيان والفتيات قد تطوعوا له مختارين الخضوع لنظمه الشديدة . وآية الامر ان المعاهد العلمية والجامعات والاتحادات الصناعية قد عنيت جميعها بتأسيس معامل للبحث يتسنى معها لكل باحث علمي الاستفادة من علمه الخاص

ان أسلوب الحياة الانسانية قد تأثر تأثراً عميقاً بالغ المدى بما استكشف من قواعد علم الصحة والطب والمبادىء التي استخلصها « باستور » ولا ريب في أن ذيوع « المبادىء الباستورية » كان بذاته حادثاً من اكبر الحوادث أثراً في حياة الانسانية

ويكفينا ان نعرف ان تطبيقها قد أدى دراكاً الى صد تيار الامراض المعدية التي كانت تكتسح العالم المتمدن بين حين وآخر ، كما قضت على كثير من الامراض التي كانت مستوطنة في كل بلد بذاته . وبذلك ادرك الناس فائدة النظافة ، وقلَّ معدَّل وفيات الاطفال ، وزادت متوسط العمر زيادة أدت الى العجب ، حتى بلغ في الولايات المتحدة ٥٩ سنة و٦٥ سنة في زيلندا الجديدة . وليس معنى هذا ان الناس قد طالت اعمارهم عن ذى قبل ، انما معناه ان عدد المعمرين منهم قد زادت نسبته . ومبادىء علم الصحة قد ضاعف عدد الناس . أضف الى ذلك أن الطب ، وقد أدرك طبيعة الامراض ادراكاً أوفى ، واستطاع ان يطبق العمل الجراحي تطبيقاً أدق ، مدَّ يده الى إنقاذ كثير من الضعفاء وناقصي التكوين ، أولئك الذين قدرت الطبيعة ان يكونوا نهباً للعدوى الميكروبية ، كما ساعد أولئك الذين قضي عليهم ، قبل ان يمد اليهم الطب يده ، أن يعجزوا عن مقاومة اسلوب من الحياة فيه خشونة بعض الشيء . وعلى الجملة نقول إن الطب قد استطاع ان يزيد رأس مال المدنية من حيث عدد النسمات زيادة تضاعفية عظيمة . وفي الوقت ذاته أمكنهُ ان يهبَ كل فرد وسائل يأمن بها الالم والمرض

أن بيئاتنا العلمية والادبية التي نعيش مغمورين في غمرها ، قد حوَّلها العلم . وان العلم هو الفارق العظيم

بين الدنيا التي تغشى عقل الانسان الجديد ، والدنيا التي غشت عقول أسلافنا الاقدمين . فقبل ان تنال تلك الانتصارات العقلية التي حبتنا الثروة والراحة والهناء ، حلَّت القيم الادبية محل غيرها من القيم . ولقد كان ذلك طبيعيًّا وملائمًا لفطرة الاشياء . أما اليوم فقد اكتسح العقل العقائد الدينية ، واصبحت المعرفة بالسنن الطبيعية والقوة التي استحوذنا عليها بمعرفتنا هذه واستقوينا بها على العالَم المادي وعلى الخلائق البشرية معاً ، وحدها الاشياء ذات القيمة الاولى في اعتبارنا . فالمصارف المالية والجامعات والمعامل ومعاهد البحث ومدارس الطب والمشافي ، قد حازت في نظرنا من الجمال والعظمة ، ما كان للمعابد القديمة والكاتدرائيات القوطية وقصور البابوات ، في الزمن الحالي . وحتى بدء الازمة المالية الحديثة ، كانت رياسة المصارف وشركات سكك الحديد ، مرمى نظر الشبان ، وقبلة آمالهم ومطمح خيالهم

ولا يزال لرؤساء الجامعات من الاعتبار والتقدير في نظر الناس منزلة فذة . ذلك بأنهم يذيعون العلم وينشرون المعرفة . والعلم نبع الثروة والهناءة والصحة . ومع هذا فلا نكران ان الجو العلمي الذي يعيش الانسان الحديث مغموراً بهِ في حياتهِ ، قد مضى يتغير بسرعة كبيرة. فان عواهل المال والاساتذة والعلماء وخبراء الاقتصاد بدءوا يفقدون ما كان لهم على الناس من سلطان .فان جماهير العصر الحديث قد نالوا من التعليم قدراً يمكنهم من قراءة الجرائد والمجلات، وهم فوق ذلك يستمعون إلى الخطب التي يذيعها السياسيون ورجال العمل والدعاة وأصحاب الرسالات المختلفة. وقد تشبَّعت نفوسهم بقدر عظيم من الدعايات التجارية والسياسية والاجتماعية. تلك الدعايات التي اصبح لها فن خاص معروف أخذ في التقدم نحو الكمال .وكذلك هم يقرءون في الكتب فصولاً بسط فيها العلم وذللت الفلسفة . ولك ان تعرف ان الكون الذي نعيش فيهِ قد نال من العظمة والجلال ، بفضل ما استكشفهُ علم الطبيعة وما ابان عنهُ علم الفلك ، قسطاً وفيراً . ومع هذا فان أي انسان ،يستطيع إن اراد ، ان يستمع الى شيء من نظريات إنشتين ، او يقرأ كتب إدنجتون وجينز ، ومقالات شابلي وملكن . فالجمهور الحديث مشغوف بالاشعة الكونية شغفهُ بنجوم السينما ولاعبي كرة القدم . والكل يعرفون ان المكان محدودب ، وإن الكون مؤلف من قوى عمياء مجهولة ، وإن ذواتنا ليست باكثر من ذرَّات صغيرة تدب على سطح دقيقة من التراب مغمورة في سعة الكون ، وان ذلك الكون على سعتهِ وترامي نواحيه فاقد الحياة ، فاقد الشعور ، فاقد الوعي . هم يعرفون أن كوننا نظامٌ آليٌّ ولن يكون كوننا غير ذلك ، ما دام انهُ خَلْق أساسهُ مجهولات قررها علم الطبيعة وعلم الفلك . على هذا يقوم محيط الانسان الحديث ، فانهُ ليس اكثر من كون عجب نمتهُ علوم المادة الجامدة

٤ — النتائج المترتبة على مثل هذا الانقلاب

ان الانقلابات البالغة التي انتابت عادات الانسان بتطبيق مكتشفات العلوم ، حديثة العهد . والحق اننا ما نزال في غمر الثورة الصناعية . لهذا يصعب علينا أن نعرف معرفة تحقيق ، كيف أثر في خلائق المدنية الحديثة ، تبدُّل وجودهم من طراز طبيعي الى طراز اصطناعي ، وانقلاب البيئة التي تشملهم انقلاباً تامًّا . أما ما نحن على يقين منهُ فهو انَّ انقلاباً كهذا قد وقع بالفعل . ولما كل كائن حي انما يعتمد في بقائه على حالات محيطه ، وبقاؤه في الواقع مرهون بالتغاير الطبيعي لاحتمال كل ما ينتاب محيطه من الانقلاب ، انبغى لنا ان نحقق بأي اسلوب تأثرت حياتنا وعاداتنا وأطعمتنا وتعليمنا ، بل ومتجهاتنا العلمية والادبية ، التي فرضتها علينا المدنية الحديثة . أأصبنا فائدة من هـذا الارتقاء ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال الهامّ لا تتأتى الاَّ بان نبحث بحثاً مستفيضاً كاملاً حالة الامم التي كانت اول الامم استغلالاً واستفادة من المستكشفات العلمية

ليس يخفى ان الناس استبشروا بالمدنية الحديثة واستقبلوها فرحين مهللين ، فتركوا الرّيف ونبذوه إلى المدن والمعامل ، فاكتظت بهم . وقد عملوا جاهدين نهمين أن ينتحلوا الاساليب والطرائق التي اقتضاها العصر الحديث ، عملاً وتفكيراً . فتركوا عاداتهم القديمة بغير تردّد ، لان تلك العادات كانت توجب عليهم جهداً اكبر . فما لا شك فيه مثلاً أن العمل في مصنع أقل تطلباً للجهد من العمل في الحقل . غير ان الحقل ذاته قد ادركتهُ الوسائل العملية فخففت من خشونة الحياة ومحت كثيراً من متاعبها فيه . والمساكن الحديثة قد هيأت للناس حياة أنعم وأرفه عن ذي قبل . فان ما فيها من الراحة والدفء والانارة التامة ، قد أضفت على سكانها شعوراً بالراحة والرضا ، ومُعدَّاتها الرئيسية قد انقصت كثيراً من الجهد الذي تطلبته من النساء مساكن الاولين . والى جانب ما أنس الناس من انقاص الجهد العضلي وازدياد النعاءُم ، قد اخلدوا فرحين الى حياة الجماعة ، فانهم قلما يتركون فُـرَادَى أي منعزلين عن الناس ، وانغمسوا في مشهيات المدن وملاهيها ، والعيش في غمر الجماهير ، والبعد عن التفكير . كذلك تراهم يهيمون بالفكاك ، بما غرس فيهم من نتاج التربية العقلية ، من القيود الادبية التي فرضها المُمـحِّـصُون (Puritants) والمبادىء التي فرضها الدين . وفي الحق ان الحياة الحديثة قد ردت الناس أحراراً . فقد فتحت لهم سبيل الحصول على الثروة بكل سبيل مستطاعة وبكل وسيلة ممكنة ، طالما انها وسيلة لا تؤدي بهم إلى السجن . إنها فتحت لهم ممالك الارض وفجاجها . إنها حررتهم من الاساطير وطهرتهم من الاوهام انها مهدت لهم سبيل استثارة شهواتهم الجنسية كيفما شاؤوا ، وسهلت لهم سبيل ارضائها . انها محت القيود وفكت اغلال النظم وقللت من الجهد الجسمي ، بل ومن جميع الاشياء المتعبة او المكدرة . وعلى

الجملة فان الناس ، والذين هم من الطبقة الدنيا خاصة ، اكثر سعادة وهناءة ، من الوجهة المادية ، مما كانوا في الازمان الاولى . على ان فئة من الناس قد اخذوا يمسكون ، ولكن تدرجاً ، عن ان تستهويهم ملهيات الحياة الحديثة أو يأخذوا بملذاتها الغليظة . وهؤلاء في الغالب هم الذين يحول ضعف صحتهم دون الاستمرار في التورط فيما هيأت لهم حياة المدنية من مناهم كالاكل والشراب والتخالط الجنسي ، تلك التي مهد السبيل اليها محو النظم الادبية وكسر اصفادها . هذا إلى جانب انهم يعيشون مهددين بفقدان العمل الذي يعملون فيه او موارد معيشتهم او مدخراتهم او ثرواتهم . انهم عاجزون عن ان يرضوا حاجة النفس الى الشعور بالامان والطمأنينة ، تلك الحاجة التي نحس جميعاً انها كامنة في اعماق نفوسنا . وعلى الرغم مما يحف بالناس من ضروب التأمين الاجتماعي ، فانهم يشفقون من مستقبلهم . اما الذين هم قادرون على التفكير ، فانهم ينقلبون ممتعضين ثائرين

من المحقق مع هذا ان الحالات الصحية تتقدم وتتحسن . ولم يقف تحسن الصحة عند نقصان متوسط الوفيات ، بل إن كل فرد قد اصبح اجمل تكويناً واكبر حجماً واشد مرّة . فالاطفال في عصرنا الحاضر اكثر طولاً مما كان آباؤهم ، ووفرة الغذاء والمرانة الطبيعية قد ادّتا إلى زيادة حجم الجسم وقوته العضلية . واكثر الرياضيين الممتازين في الملاعب الدولية يفدون من الولايات المتحدة . وفي الفرق الرياضية التابعة للجامعات الاميركية ، نقع على افرادٍ هم في الواقع نماذج عليا للتكوين البشري . والتعليم الحديث اكبر عامل على نماء العظام والعضلات نماءً كاملاً . ولقد استطاعت اميركا بطرقها الخاصة أن تستحدث من نماذج الجمال ما يضارع نماذج الجمال القديم في العصور الفارطة . ومع كل هذا نجد ان طول العمر ، مع ما نبذل من جهد رياضي وما نمتع به من مزايا الحياة الجديدة ، لا يزيد عن طول عمر أسلافنا ، بل ربما كان فينا أقصر منهُ فيهم . فان قدرتهم على مقاومة التعب والكدّ قد نقصت . والظاهر اجمالاً ان الافراد الذين اعتادوا معالجة المرانة الجسمية الطبيعية ، واحتمال التعب والتعرض لتقلبات الجوّ ومكدّراته كما كان اسلافهم من قبل ، هم اقدر على بذل الجهد وتحمل المتاعب من رجالنا الرياضيين . وإنا لنعلم انّ محصلات التعليم الحديث تتطلب من الفرد أشياء اساسية منها كثرة النوم ووفرة الغذاء وانتظام العادات . بذلك اصبح المجموع العصبي هشّاً ضعيفاً ، حتى غدا الناس عاجزين عن تحمل اسلوب الحياة الجديد في المدن العظمى ، والاحتباس في المكاتب ، ومشاغل العمل ، بل اصبحوا غير قادرين على مواجهة المصاعب وآلام الحياة العادية التي عليهم ان يواجهوها كل يوم . لذلك هم يتحطّمون سراعاً . وربما كانت انتصارات علم الصحة والطب والتعليم الحديث اقل قيمة للناس مما نعتقد في العادة

وإن لنا ان نسائل انفسنا : أليس هنالك من نقائص عملية متعلقة بنقصان متوسط الوفيات اثناء طوري الطفولة والفتوة ؟ الحقيقة ان للضعيف في عصرنا من فرص الحياة ما للقوي . ذلك بان الانتخاب الطبيعي قد منع عليه ان يؤدي رسالته . ولا يمكن لاحد ان يتكهن عما يكون مستقبل سلالة احتمى أفرادها بالطب. غير انا نترك هذا المشكل الى مشاكل اخرى اعظم واروع تتطلب منا حلاً سريعاً شاملاً . فبينما نرى أن الطب قد استطاع ان يقضي على مرض الاسهال الاخضر في الاطفال ، وان يقف فعل السل والدفتيريا والتيفود ، بل ويقضي عليها قضاءً ، نرى ان هذه الامراض قد استبدلت بامراض اخرى ذات طابع انحلالي . اضف الى ذلك ازدياد عدد الاصابات بالامراض العصبية وأمراض العقل . ففي بعض الاقاليم تجد ان عدد المجانين في مشفى ما ، يزيد عن جميع عدد المصابين بأمراض أخرى في بقية المشافي جميعاً . وليس يقف الامر عند الجنون ، بل ان الاضطرابات العصبية ومظاهر الضعف العقلي قد اصبحت اكثر ذيوعاً عن ذي قبل . وانها لاكبر العوامل تأثيراً في احداث التعاسة في الافراد والانحلال في الاسر. ولا شكَّ في ان الانحطاط العقلي أنكى خطراً على المدنية من الامراض المعدية ؛ تلك التي حصر علماء الصحة والاطباء همهم كله في بحثها ومقاومتها

***

بالرغم من المبالغ المالية الطائلة التي تنفق في الولايات المتحدة على تعليم الاطفال والناشئين فان الطبقة المنتقاة من ذوي العقل الممتاز لم يزد عددها . ولا شكَّ في ان الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة ، رجالاً ونساء ، تتلقى تعليماً ارقى ، وتعيش عيشاً أرفه مما كان اولاً ، والرغبة في القراءة والاطلاع اصبحت اكبر وأعظم ، والجمهور يشتري من المجلات والصحف اكثر مما كان يشتري جمهور الجيلين السالفين ، والمشتغلون بالعلم والآداب والفنون اكثر عدداً . غير ان اكثرهم مشغول بأحط صور الادب ، ومن يعمل منهم في العلم والفن يعكف على ما يشبه العلم والفن ، لا على ضروبهما العليا . ويظهر من ذلك ان الحالات الصحية الممتازة التي يعيش الاولاد مشمولين بها ، والعناية التي تبذلها المدارس والمعاهد في سبيلهم ، لم تضف شيئاً الى صفاتهم او نماذجهم العقلية والادبية . وقد يمكن ان يكون هنالك تناقض ما بين نمائهم الجسمي، وقدرتهم العقلية (١)

« البقية في باب الاخبار العلمية »

(١) يريد الكاتب ان يقول ان المدنية الحديثة تحقق بأساليبها قول القائل : اجسام البغال وأحلام العصافير

لماذا يغرِّد الطير

ألطرب ام للمزاوجة ام للتخاطب ؟

في حياة الطير نواح متعدِّدة تستوقف العناية [1] ولكن التغريد اشهرها واعمُّها . فقد يكون بين قرّاءِ هذه الصفحات من لا يميّز نوعاً من نوعٍ من الطير ، ولكن يندر ان يكون بينهم من لا يطربهُ تغريد البلبل والكنار والحسّون والقبرة . ودواوين الشعراءِ حافلة بوصفهِ وبأثرهِ في نفوس الشعراءِ . وهذه العناية بالتغريد حملت علماء الطير على البحث في سببهِ. فاصبحوا في شغل عن الطرب بما هم فيهِ من البحث . ولكنهم على كل حال ينكرون بوجهٍ عام ان الطير يغرّد طرباً لان ذلك الرأي القديم في نظرهم ليس رأياً علميًّا

ان العلماء الذين عنوا بهذه الناحية من حياة الطير ، فريقان . فريق يقيم رأيهُ على اساس مادي ، والآخر يقيمها على اساس غيرماديّ . والرأي الغالب الآن هو الرأي الاحيائي (البيولوجي) وزعيمهُ ، المستر نكولسون E. M. Nicholson . ان اصحاب هذا الرأي يقولون ان سلسلة الانغام التي يميّزها علماء الطير سواءٌ ابسيطة كانت ام مركبة ، يستعملها الذكر في فصل المزاوجة اعراباً عن استقلالهِ وسيادتهِ في المنطقة التي نزل فيها . وانهُ لا يغرِّد خارج تلك المنطقة . فاذا فعل لم يكن ذلك تغريداً حقيقيًّا بل شبيهاً بهِ sub-song ثم ان للتغريد مسوّغات بيولوجية علاوة على ما تقدم . فهو في مذهبهم وسيلة يسترعي بها الذكر الانثى الهائمة في الربيع وعندهم ان الذكور تصل اولاً الى المنطقة الجديدة ، فتنزل فيها ، ثم تتبعها الاناث غير المتزوجة. ولما كان معظم الطيور الغرّيدة صغير الحجم، لا يمتاز بريش باهي الالوان متعددها ،فالتغريد وسيلتهُ لاتمام المزاوجة بتوجيه عناية الاناث اليه . ثم ان التغريد رسالة تحذير يوجهها الذكر الى غيره من الذكور ان لا يعتدوا على المنطقة الخاصة بهِ . فاذا لم يغرِّد فقد يقصى عن منطقتهِ وقد لا يجد زوجاً . فالتغريد في رأيهم ليس اعراباً عن شعور ، وانما هو ضرورة بيولوجية

هذا هو الرأي البيولوجي في تفسير تغريد الطير مجملاً . ولكن عند التدقيق فيهِ ، يجد الباحث

---

(١) راجع « عقل الطير » مقتطف يونيو ١٩٣٣ صفحة ١

خطأين اولهما ان التغريد لا يقتصر على فصل المزاوجة ولا ينحصر فيهِ . وقول المستر اليوت هوارد Eliot Howard ان التغريد محصور في فصل واحد من فصول السنة وهو فصل التوليد مردودٌ بالمشاهدة . فليس في السنة فصل واحد لا تفيض بهِ لهى الطير بالنشيد . فان الحنّاء Robin (معجم الحيوان عن القزويني) والصَعْوَة Wren (معجم الحيوان ويعرف في الشام باسم سكسوكة ونمنمة ودعويقة) والسمنة تغرّد في غير فصل التوليد . وقد ردَّ اصحاب المذهب المتقدم هذا الاعتراض بقولهم ان هذه الطيور التي تغرّد في غير فصل المزاوجة ، تحتلُّ أرضاً خاصة بها على مدار السنة . ثم هناك خطأ آخر . فقولهم ان تغريد الذكر يجذب الانثى التائهة اليهِ يعني ان الانثى تتجه الى أطرب الطيور تغريداً وهذا مردود بقول اليوت هوارد نفسهِ اذ أثبت فسادهُ في ما يتعلق بضربين من الطير من نوع الدُرُّسة Bunting المعروف بمصر باسم « الصعو » مع ان الصعو كما تقدّم يقابل (Wren) (راجع معجم الحيوان مادة Bunting)

وعلى الرغم من هذين الاعتراضين على الرأي المتقدم لا يزال هذا الرأي قائماً . ولكن كلما أمعن الباحث تدقيقاً فيهِ تبين انهُ غير دقيق وغير شامل . فقولهم ان تغريد الذكر اعراب عن سيادتهِ في منطقتهِ وتحذير موجه الى منافسيهِ مردودٌ بما يشاهد في اثناء الربيع من القتال الكثير بين الذكور . راقب الذكر وهو يغرّد . قد تحسُّ انهُ يعرب في تغريده عن استقلاله وسيادتهِ ، ولكنك قلما تقتنع ، وأنت تشاهدهُ مستغرقاً جسماً وعقلاً وروحاً في التغريد انهُ مهتمٌّ بغيره قصد تحذيره . وقد قال الاستاذ فيزي فتز جيرالد في مجلة الكونتمبورري — وعنهُ نلخص — انهُ كثيراً ما راقب الدُخلة او الهازجة اثناء التغريد ، فعجز عن اقناع نفسهِ بأن فيهِ تحذيراً وانذاراً لسائر الهوازج

ولو كانت الذكور لا تغرّد خارج المناطق الخاصة بها لكان الباحث مضطراً ان يسلم بهذا الرأي . ولكنها تغرد أينما تكون . ففي الربيع تغرّد الهوازج القواطع في اماكن لا تنوي مطلقاً ان تبني فيها عشاشها . وقد كان للاستاذ فيزي فتز جيرالد حديقة ، في منطقة تجتازها هذه القواطع ، فكان يسمع في الربيع تغريدها مع انها لم تكن معششة فيها ولا في جوارها . بل ان الشجرة الواحدة كانت بمنزلة منبر تشدو من فوقهِ ستة أنواع او اكثر . ثم كان يبحث عنها في اليوم التالي فلا يقف لها على أثر ، ثم يسمعها شادية ، عند عودتها قاطعةً في الخريف . فليس ثمة صلة بين الشدو والمنطقة . نعم ان هذه الطيور قلما تشدو كثيراً خارج منطقتها ، بعد ان تتوطنها . ومع ذلك فكثير من الباحثين غير مقتنع بأن هناك صلة بين الشدو والمنطقة في عقل الطير في حالة المتوطن منها . والامثلة على ما تقدم كثيرة . اما المستر نكولسون فيزعم ان هذا الشدو خارج المنطقة ليس شدواً صحيحاً وانما هو شبيهٌ بهِ ويطلق عليهِ اسم (sub-song) اي انهُ

اصوات لم تسمُ الى مستوى الشدو او التغريد . فيردُّ عليهِ فيزي فتز جيرالد بأنهُ جهد نفسهُ في التفريق والتمييز بين التغريد في المنطقة المستوطنة والتغريد خارجها فلم يتبين اقل فرق

اما التوسل بالتغريد لجذب الاناث فقائم على الرأي القديم بأن الطيور الزاهية الالوان قلما تجيد التغريد . وان الطيور المتوسطة الحجم قلما تحسب في عداد الطيور المغرّدة . ويذهب نكولسون الى القول بان الطيور التي لا تعيش في جماعات ، تحتاج الى قدرة التغريد ، لتعتاض بها من خفائها الناشىء عن صغر حجمها او عدم ازدهائها . ففي فصل المزاوجة — على رأيهِ — يحتاج الذكر الى ما يمكنهُ من اعلان وجودهِ رغبة منهُ في جذب الانثى اليهِ وكذلك في اقصاء المعتدين عن منطقتهِ لكي يكفل ارضاً تحتوي ما تحتاج اليهِ صغارهُ من الغذاء . فاذا كان صغير الحجم او قليل اللون كان لا بدَّ لهُ من الاعتماد على الصوت وإن لم يكن ذلك الصوت تغريداً دائماً

وفي الردّ على هذا يقول الاستاذ فيزي فتز جيرالد انهُ قد يكون التغريد في بعض انواع الطير وسيلة لاجتذاب الاناث ، مع انهُ ينكر صدق ذلك على اي نوع . ويستشهد بقدرة طيور غير غريدة على الفوز باناثها . ولكنهُ يسلم جدلاً بان التغريد قد يكون لهُ هذا الغرض في بعض الانواع ثم ينكر ان البحث عن الزوج هو القصد الاول او الوظيفة الرئيسية المقصودة بالتغريد. وقد أقام الدليل على ذلك بالاشارة الى طائر يعرف باسم خاطف الذباب fly-catcher (معجم الحيوان عن احمد فارس وشورب وهي عامية في مصر عن حلمي السمّاع وبوبانة عامية في لبنان) . فالارقط منهُ يستوقف النظر بريشهِ وطباعهِ ومع ذلك يتصف بتغريد شجيّ. والظالم او الصفنج chaffinch (معجم الحيوان الاولى عامية في الاسكندرية عن حلمي السمَّاع والثانية عامية في لبنان عن بوست) حسن الصوت ويستوقف النظر بشكلهِ في آن واحد . وكذلك الصفارية Golden Oriole (معجم الحيوان) يستوقف النظر بلونهِ الاصفر وصوتهِ الحسن

وهناك فريق ثانٍ يذهب مذهباً آخر في تفسير تغريد الطير . وزعيمهُ المستر رتشموند (W. K. Richmond) وهو يستمدُّ اساس رأيه من المذهب البيولوجي ، فيقول : لما كان معظم الطيور يغرِّد في فصل المزاوجة فيصحُّ القول بان التغريد كان اصلاً مرتبطاً بالمزاوجة . ويمكن التسليم كذلك من الناحية العلمية ، بان ازدياد التغريد في الربيع مرتبط بنمو الاعضاء الجنسية في الذكر وان خفوتهُ مرتبط بضمورها . ومن الصحيح ايضاً ان الطيور تغرِّد عندما يكون نشاطها على اشدّه ، فاذا اتجه النشاط الى اعمال أخرى كتغذية الصغار او تبديل الريش قلَّ التغريد . ثم هنالك عاملٌ آخر وهو توافر الاحوال المؤاتية . فاذا حرم الطير الطعام او هبطت الحرارة فجاءة أثَّر ذلك في تغريدها فاذا استمرّت الاحوال غير المؤاتية انقطع التغريد ، ولكن حماسة الطيور المغرِّدة في الربيع تتغلَّب على احوال الجوّ ، وكثيراً ما سمعت أبا قلنسوة (الخوري والشمّاس ذكرهُ وانثاه

في لبنان عن معجم الحيوان) والهوازج وهي تغرّد بغير انقطاع عندما كان الثلج يغطي الارض

ثم ان رتشموند لاينكر التغريد على الطيطوى Sand piper (معجم الحيوان عن ترجمة كليلة ودمنة لفوكنر) والزرزور Starling لانهُ يعلم ان لتغريد الطيور نواحي متعددة . وقد ضرب المثل على ذلك بطائر الحميراء Redstart فقال في وصفه ما يلي : لقد شاهدت حميراء وهو يشدو شدواً كله قوة وكبر ... وكانت كل حركة من حركات الطائر وكل نغمة من نغمات شدوه تدل على طبعٍ عنيف وغد . ولكنني رأيت نفس الطائر بعد الظهيرة وهو اهدأ بالاً مما كان في الصباح وكان يهزج هزجاً رقيقاً يدل على رضائه وفنائه في هزجه . ثم يقول ان الطيور تغرّد عند ما تصاب بأذى او حتى عند ما تكون على وشك الموت . ومن هذا يخرج رتشموند الى ان التغريد في الطيور اعرابٌ وانها تغرد لا لانها مدفوعة اليه بحاجة قاسرة يفرضها عليها الانتخاب الطبيعي ، بل لان التغريد منفذ لنشاطها الفائض «فهي اما ان تغني واما ان تنفجر» . والتغريد في رأي رتشموند هو الاعراب الانفعالي عن حياة الطير

قد يكون هذا الرأي في هذه الايام ، ايام التفسيرات العلمية والشبيهة بالعلمية ، غير مقبول لانهُ غير علميّ . ولكن من الخطل ان نتجاهلهُ لكونهِ غير مفرغٍ في قالب علمي . فالمستر رتشموند باحث محقق دقيق الملاحظة . وهو اقرب في نظر فيزي فتزجيرالد الى الحقيقة من اصحاب الرأي الجغرافي القائم على ان التغريد اعلان الطائر استقلالهُ في منطقتهِ وتحذيره غيره من تعدي حدودها . ولا يبعد أن يكون رأيهُ الحقيقة كلها

وماذا نعني بتغريد الطير ؟ السمنة تغرّد والغراب ينعق . ومع ذلك فللغراب لهاة مرتقية التركيب ومدى من الاصوات اذا شبهناها بألفاظ الانسان قلنا ان ثروتهُ اللفظية واسعة . والظاهر اننا نقصد بالتغريد تلك الاصوات التي تقع وقعاً مطرباً على آذاننا . بل ان اصحاب الرأي الجغرافي ، ينكرون ان الطيور تغرد خارج منطقتها الخاصة بها . وما يصدر منها من الانغام خارج هذه المنطقة ، يوصف بأنه شبيه بالتغريد . فاذا كانت اصواتها غير منغمة تجاهلوها اطلاقاً . ولكن هذا التعريف الضيق لايتسع لكثير من الاصوات التي وصفها هندي Hendy بأنها « كلام الطيور »

اذاً ما تغريد الطيور ؟ لا بد من القول بأن تغريد الطير ليس مسألة واحدة بل مسائل متعددة . ويمكن ان نقسمها ثلاثة اقسام تدور حول اصل التغريد ، ونموّه ووظيفتهِ . وكلٌّ منها مسألة قائمة بذاتها . ثم ان موريس Morris يعمد في كتابهِ عن « التغريد » الى تقسيمهِ بحسب الفصول ويعد منها تغريد الربيع والخريف والشتاء . ولكن التميز بين ألوان التغريد الخاصة بهذه الفصول شاق او متعذر . ومع ذلك يمكن ان يتمادى الباحث في تصنيف التغريد ، فيميز بين التغريد قبل المزاوجة والتغريد الذي يقصد منهُ اطراب الانثى وهي حاضنة البيض . وهذا يدلك على سعة الموضوع

لا ريب في ان للنزعة الجنسية في الطير تأثيراً كبيراً في تغريده ولكن من الخطل الذهاب الى ان تغريد الطير ليس الاّ اسلوباً من اساليب التحدث الجنسي . لان الحقائق تدل على ان التغريد أبعد مدى من مجرد الاعراب الجنسي . وعلماء الطيور يعرفون طائفة كبيرة من الطيور تجيد التغريد بعد ان تقضي فيها الشهوة الجنسية

ان التغريد الذي نشأ اصلاً للاعراب عن الرغبة الجنسية قد تطوَّر حتى اصبح لغة او وسيلة للتخاطب . ولا بدَّ لنا اذا شئنا ان نفهم تغريد الطير من ان ندرك ان ما نطلق عليه وصف «التغريد» او «الشدو» هو في الواقع لغة الطير ، وللغة نواحٍ متعددة ، بتعدّد النواحي في حياة الطير . وآذانه ليست معدَّة للتأثر بجميع ألوان الصوت الصادر من لهى الطيور . وقد قال الاستاذ جارستانج في وصف هذه اللغة « انها تعرب عن الشعور والانفعال لا عن الاشياء والافكار ، وهي في آخر الامر متصلة بالسلوك وتشتمل على الدعوة والتحية والتحذير والتحدي والتشجيع وقلما تشمل غيرها »

وهذا الذي قالهُ جارستانج لا يشكُّ فيه احد من مراقبي الطيور . وكما ان الانفعال في الناس تصحبهُ الحركة كذلك يصحب الرقص ورفرفة الاجنحة والتحليق الاعرابَ عن انفعال الطير بالتصويت . ولا يخفى ان وردزورث الشاعر الانكليزي الذي كان يعرف طبائع الطير وصف طبع الشاعر كأنهُ يصف طائراً عند ما قال : « ثم يحفل قلبي بالغبطة فيرقص مع الدخلة »

إن ارتقاء القدرة على التخاطب بالتصويت في الطيور يختلف باختلاف أنواعها . ولكن هذه القدرة تمتدُّ من نعيق الغراب الى الشدو الموسيقي الصافي في فصيلة السمنة ، ولغة كل نوع لا يفهمها الاّ ذلك النوع

اذن ، هل تغرّد الطيور كما نفهم التغريد؟ هل تغرّد اعراباً عن غبطة الحياة ؟ انها ولا ريب تفعل ذلك . ولكن أصحاب المذهب الجغرافي يصفون تغريدها هذا بأنهُ شبيه بالتغريد sub-song الاّ أنهُ اتيح لي (فيزي فتزجيرالد) ان اراقب الشحرور يفرغ قلبهُ في صياحه وهو جاثم على غصن . ثم شاهدتهُ بعد قليل وهو لا يزال على ذلك الغصن يشدو شدواً رخيماً رضيًّا . ومنذ ذلك اليوم لم يخامرني شك في حقيقة التغريد . اذكر ايها القارىء حمراء رتشموند . او تذكر الصغنج Chaffinch جاثماً على سور الحديقة وهو يهزج . او الزرزور على قمة المدخنة . او التفاحيّ linnet (معجم الحيوان عن حلمي السماع وهو عند عامة المصريين التفاحي والزقيقية وعند عامة السوريين الزقاقية والتفيفيحة) او السمنة . ليس ثمة ظلٌّ من الشك في ذلك . والواقع انني لا انكر قدرة التغريد على اي طائر . اليس الصرد shrike من ارخم الطير شدواً مع اننا تعودنا ان ننكر عليه التغريد

ان اصوات الطير التي يصفها بعضهم بانها « شبيهة بالتغريد » هي التغريد الحقيقي ، المجرّد من قيود التخاطب والمنطقة والجوع والعمل ، مجرّد من كل شيء الاّ من الطرب

في تاريخ العرب

للدكتور زكي محمد حسن

على هامش كتاب History of the Arabs
للدكتور فيليب حتي الاستاذ بجامعة برنستون

كتب المستشرقون وكتب المسلمون أنفسهم المؤلفات الكثيرة عن تاريخ العرب والمسلمين عامة، وتضاربت الآراء في قيمة هذه المؤلفات، ولكن الكتاب الذي ظهر حديثاً للاستاذ الدكتور فيليب حتي يختلف عن كل ما كتب في هذا الموضوع، ويبزه في المادة والاسلوب وطريقة البحث. ولسنا نقصد ان نعرض او ان نشير الى الابحاث والكتب التي ألفت في شتى موضوعات التاريخ الاسلامي وفروعه، فان مثل هذه الكتب، بطبيعة حجمها وكون كل منها موقوفاً على دراسة ناحية او مشكلة من مشكلات التاريخ الاسلامي، تكون أوفى غرضاً وأوسع مادة وأدق منهجاً، ولكننا نريد الكتب التي عقدت فصولها للكلام عن التاريخ كلهِ او جله في تركيز وايجاز لا يمكن بدونهما ان يلم المؤلف بتاريخ المسلمين او العرب في مجلد واحد من القطع المتوسط

ولم تكن هذه الكتب الاخيرة كثيرة في شتى اللغات فليس بالانجليزية الاَّ كتاب موير [(١)] والسيد امير علي [(٢)] . وبعض كتب أخرى مختصرة جدًّا. وليس في الفرنسية الاَّ كتاب هوار [(٣)] . فضلاً عن بضعة مؤلفات موجزة لا تفي الموضوع حقه . اما الالمانية فقد كانت أغنى من اللغتين السابقتين بل كانت في التاريخ العلمي الصحيح أغنى من اللغة العربية نفسها . فمؤلفات

(١) W. Muir : The Caliphate وقد طبع سنة ١٨٨٣ وسنة ١٨٩١ وسنة ١٨٩٨ وظهرت منه طبعة جديدة منقحة على يد T. H. Weir بادنبره سنة ١٩٢٤

(٢) Syed Ameer Ali : A Short History of the Saracens (London 1921) وقدظهرت بعض مؤلفات اخرى بالانجليزية في تاريخ العرب والمسلمين لغير السيد امير علي من المؤرخين الهنود

(٣) C. Huart : Histoire des Arabes (Paris 1902)

الدكتور فيليب حتي

مؤلف كتاب History of the Arabs

فون كريمر [١] . وفيل [٢] وبيكر [٣] لا تزال مراجع ثمينة في التاريخ الاسلامي عامة وليس في اللغة العربية كتاب واحد يضم بين دفتيه تاريخ العرب او المسلمين على نحو علمي صحيح [٤]

وهكذا يرى القراء أن كتاب الدكتور حتي سدّ ثغرة في عالم التأليف . على ان المؤلف يبدأ مقدمته بان كتابه «محاولة متواضعة لحكاية سيرة العرب والشعوب التي تكلمت العربية منذ العصور الاولى حتى الفتوح العثمانية في بداية القرن السادس عشر » ، ولكن الحق أنهُ عمل جليل يشهد بعلم وافر واطلاع واسع ومثابرة مضنية ، ولا غرو فالمؤلف يعترف في المقدمة بان هذا الكتاب ثمرة عمل دام سنوات طويلة قضاها في الدرس والتدريس بجامعة كولومبيا والجامعة الاميركية في بيروت وجامعة برنستون باميركا

وينص الدكتور حتي في المقدمة على أن الكتاب أعد ليفي بحاجة الطالب وبحاجة القارىء المثقف من غير الاختصاصيين. والواقع أن هذا الكتاب رفيق طيب لأساتذة التاريخ الاسلامي، وإن كنا لا نذهب الى حسبانه مصدراً جامعاً شاملاً يمكن الاعتماد عليه إلى حد كبير . وسنبين علة ذلك في المآخذ القليلة التي سنعرض لها في آخر هذا المقال

ولعل خير وسيلة لتبين ما لكتاب الدكتور حتي من شأن خطير ان نستعرض اقسامه وفصوله

قسم المؤلف كتابه خمسة اقسام ، عقد الاول للكلام عن العصر الجاهلي ، والثاني عن قيام الاسلام وعصر الخلفاء الراشدين، والثالث عن القيصريتين الاموية والعباسية ، والرابع عن العرب في اسبانيا وصقلية ، والخامس عن آخر الدول الاسلامية في العصور الوسطى وعن الحروب الصليبية

أما القسم الاول فقد بدأه المؤلف بالتحدث عما لتاريخ العرب من شأن خطير ، على الرغم من ان المعروف عن بلاد العرب لا يتناسب وكون المسلمين يبلغ عددهم الآن نحو سبع سكان العالم او سدسه ، ولا يتفق مع عظمة المسلمين ، الذين لم تكن لهم قيصرية مترامية الاطراف فحسب ، بل ورثوا المدنيات التي قامت على ضفاف الدجلة والفرات والنيل ، واقتبسوا من العالم الاغريقي الروماني القديم ، وكانت لهم ثقافة عظيمة اثرت في اوربا في العصور الوسطى فبعثت النهضة فيها . وكان التراث الذي خلفه العرب والناطقون بالضاد اكبر من تراث أي شعب آخر

---

(١) A. von Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen(Wien 1875-77)

(٢) انظر G. Weil : Geschichte der islamitischen Völker von Mohamed bis zur Zeit des Sultan Selim, (Stuttgart 1866) , وراجع ايضاً : G. Weil : Geschichte der Chalifen (Bd. 1--3, Mannheim 1846-1851)

(٣) C. H. Becker : Islamstudien (Bd. 1-2, Leipzig 1924-1932)

(٤) يعرف القراء ان تاريخ الاسلام السياسي للاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن لم يظهر منه الا الجزء الاول كما أن محاضرات الاستاذ عبد الحميد العبادي في كلية الآداب لم تطبع بعد . بينما كتاب «العالم الاسلامي» لمحمد رضا كحالة موجز ومقتضب ، وثمة مؤلفات اخرى لم تتبع في تأليفها طريقة البحث العلمي الصحيح

ثم تكلم الدكتور عن الاستكشافات الحديثة في بلاد العرب ، وعن الشعوب السامية عامة ومهدها في شبه الجزيرة . وعقد بعد ذلك فصلاً عن بلاد العرب : طبيعتها ومناخها ونباتها وحيوانها ، ثم وصف الحياة البدوية ، فتكلم عن الغزو والحماسة والمروءة والعصبية والقبيلة وشيخها. على أن أبدع فصول القسم الاول من كتاب الدكتور حتي انما هي الرابع والخامس والسادس، فقد لخص الدكتور في الفصل الرابع العلاقات الدولية بين العرب وجيرانهم في العصور القديمة : علاقتهم بالمصريين القدماء وبالسوريين والبابليين والاشوريين والفرس واليهود والعالم الاوربي القديم . وكان قوام هذه العلاقة تجارة البخور واللبان والتوابل ومناجم الذهب والنحاس . اما الفصل الخامس فقد شرح فيه المؤلف احوال الدول القديمة التي قامت في بلاد العرب الجنوبية: المعينية والسبائية والحميرية وتكلم في هذا الصدد عن تجارة بلاد العرب الجنوبية وعن النقوش السبائية والحميرية ومكتشفيها نيبهر Niebuhr وهالفي Halévy وجلازر Glaser ، وعن مأرب وعن العرب الذين هاجروا من حضرموت واليمن الى شرق افريقية ، حيث أسسوا دولة الحبشة السامية الاصل والتي أتيح لها ان تمد سلطانها الى بلاد العرب الجنوبية في القرن السادس الميلادي، حتى هب لطردهم منها سيف بن ذي يزن بطل السيرة الشعبية المشهورة ، وعاونهُ الفرس ولكنهم اتخذوا ذلك سلماً لحكم اليمن، وظل نفوذهم قائماً فيها حتى اعتنق الاسلام باذان خامس ولاتهم فيها، فأصبحت اليمن جزءاً من الدول الاسلامية وأصبح شمال بلاد العرب أخطر شأناً من جنوبها

وعقد المؤلف الفصل السادس للكلام عن الولايات التي قامت في شمال شبه الجزيرة قبل الاسلام فكتب عن النبط الذين نزحوا في القرن السادس قبل الميلاد من شمالي اقليم شرقي الاردن الى جنوبيهِ واتخذوا مدينة البتراء Petra عاصمة لهم فغدت من أعظم المدن في الطريق التجاري بين سبأ وسواحل البحر الابيض المتوسط . وكان النبط يتكلمون اللغة العربية ويستخدمون في كتابتها الحروف الآرامية كما كانت اللغة الارامية لغة العلم عندهم . ثم تطورت الكتابة النبطية في القرن الثالث الميلادي الى الحروف العربية النسخية التي عمَّ استخدامها في العالم الاسلامي ، اللهمَّ الاَّ في العصور الاولى حين استخدم الخط الكوفي في كتابة المصاحف وفي كتابة بعض المستندات الرسمية الخطيرة وفي العملة وعلى العمائر والمساجد

وقد شرح المؤلف في هذا الفصل كيف تطورت الرموز الهيروغليفية على يد سكان شبه جزيرة سينا حتى وصلت الى الحروف الابجدية الخالصة ، التي كان الفينيقيون اول من عرفها . ثم تحدث عن مدينة البتراء عاصمة النبط المحفورة في الصخر والتي بلغت اوج عظمتها تحت رعاية الرومان في القرن الاول من الميلاد ، وعن مدينة تدمر التي كانت من أغنى مدن الشرق الادنى في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد والتي بهر العرب بآثارها حتى زعموا انها من بناء الجن

لسيدنا سليمان ، وعن بني غسان الذين كانوا يقطنون جنوب شرقي دمشق عند آخر الطريق التجاري بين مأرب والشام والذين اعتنقوا المسيحية وتعلموا الارامية لغة السوريين بدون ان تنقطع صلتهم باللغة العربية ثم اسسوا امارة حليفة لبيزنطة تشملهم برعايتها نظير قيامهم بحماية حدود ممتلكاتها في الشام وصد القبائل العربية عنها ، كما اسس اللخميون في الحيرة امارة اتخذها الفرس حليفة لهم تحمي حدود العراق من غارات البدو

وختم الدكتور حتي القسم الاول من كتابه بفصل ممتع عن بلاد الحجاز قبيل الاسلام ، شرح فيه ايام العرب وحروبهم ولغتهم وأدبهم وشعرهم من سجع وقصائد ومعلقات واحوالهم الاجتماعية ودياناتهم وما يتصل بها من اعتقادهم في الجن ومن حجهم الى الكعبة كما تحدث عن اشهر مدنهم في ذلك العصر : مكة ويثرب والطائف ، وعما كان لبلاد العرب الجنوبية والحبشة وايران من تأثير في بعض نواحي الحياة في الحجاز فضلاً عن اثر اليهود والنصارى في تهيئة النفوس للدين الجديد

وفي اعتقادنا ان القسم الاول من كتاب الدكتور حتي أنفس ما في كتابه . ولعلَّ السر في ذلك ان سائر الكتب التي عرضت لتاريخ العرب والمسلمين لم تصل الى تلخيص اهم ما انتجته الابحاث والحفائر والدراسات العلمية من بيانات عن حال العرب قبل الاسلام ، وانما عنيت باخبار العرب في العصر الاسلامي ، ومصادرها كما نعرف كثيرة الى حد كبير. وان صح ان جورجي زيدان جمع في كتابه عن بلاد العرب قبل الاسلام شتات ما تناثر من الاخبار في هذا الموضوع ولخص كثيراً مما جاء في الكتب التي الفت باللغات الاوربية عن العرب في الجاهلية فان تاريخ تأليف هذا الكتاب (١٩٠٨) سابق على كثير من الابحاث والمكتشفات التي أماطت اللثام عن بعض معميات هذه الحقبة من تاريخ العرب

اما القسم الثاني من كتاب الدكتور حتي ، فقد تحدث فيه عن قيام الاسلام : عن سيرة محمد رسول الله وعن طبيعة الدين الاسلامي وعن عصر الخلفاء الراشدين وعن الفتوحات العربية وإدارة الاقاليم المفتوحة وعن النزاع بين علي ومعاوية ، كل ذلك في دقة علمية تستحق الثناء والاعجاب وأسلوب جذاب ممتع وبعد عن التعصب الذي يشوب كتابات كثيرين من المؤرخين المستشرقين والمسلمين القدماء وقد أسدى المؤلف بذلك خدمة جليلة الى الذين يودون الوقوف على الآراء العلمية الصحيحة في هذا الميدان بدون قراءة الكتب المطوّلة في شتى نواحيه

وقد عقد المؤلف القسم الثالث من كتابه للحديث عن الدولة الاموية : عن قيامها ، وعن علاقاتها العدائية بالبيزنطيين ، وعن اتساع ملكها ، وعن الحياة السياسية والادارية والاجتماعية والعقلية والفنية في عصرها ، ثم عن الدولة العباسية ، والنهضة العقلية التي حملت لواءها ، وعن نظم

الحكومة وطبقات المجتمع والتقدم العلمي في عصرها ، حتى انهُ عقد فصلاً للحديث عن مراحل التعليم وعن المكتبات والورق والورّاقين ، كما عقد فصلاً آخر للكلام عن الفنون فتحدث عن العمارة واشار الى تشييد سامرا وما كان فيها من زخارف جصية ونقوش ونوّه بمنتجات الفنون الفرعية المختلفة كالمنسوجات والخزف والزجاج والمخطوطات المصورة. وهذا تجديد في تأليف الكتب التاريخية حبذا الحال لو عني بهِ المؤلفون حق العناية

ومن ابدع فصول هذا القسم فصل الفرق الدينية في الاسلام وقد لخّص المؤلف فيه تلخيصاً طيباً مبادىء كل فرقة وما ألمّ باتباعها من الاحداث السياسية . وكان طبيعيًّا ان يختم المؤلف حديثه عن الدولة العباسية بما جلبهُ ترامي اطرافها وضعف خلفائها ونمو سلطان الجند الترك فيها من اضمحلالها ، واستقلال اجزائها النائية عنها ، وقيام دويلات صغيرة على انقاضها كبني ادريس في المغرب الاقصى ، وبني الاغلب في افريقية (تونس) ، والطولونيين والاخشيديين في مصر والحمدانيين في الجزيرة ، والطاهريين والصفاريين والسامانيين والغزنويين وبني بويه والسلاجقة في ايران وغربي اسيا

وشرح المؤلف في نهاية هذا القسم كيف سقط بنيان الدولة العباسية وتهدمت عاصمتها سنة ١٢٥٨ على يد جموع المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان

واوجز الدكتور حتي في القسم الرابع من كتابهِ الكلام عن تاريخ العرب في اسبانيا وفي جزيرة صقلية فبدأ بفتح الاندلس وتطرق الى عبور العرب جبال البرانس وتوغلهم في جنوب فرنسا تحت لواء عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، حتى هزمهم الفرنج بقيادة شارل مارتل في واقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ بين تور Tours وبواتييه Poitiers

ثم كان سقوط الدولة الاموية في الشرق ، وفرار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الى المغرب في الاندلس ، حيث افلح في الاستيلاء على السلطان وتأسيس امارة اموية غربية فيها ، وازدهرت هذه الامارة في عصر عبد الرحمن الناصر ، الذي اتخذ لنفسه لقب الخلافة سنة ٩٢٩ . وكان حكمه العصر الذهبي في تاريخ المسلمين بالاندلس ، فاسترد ما كان المسلمون قد خسروه من املاكهم في شبه الجزيرة ، ووطد دعائم حكمه فيها وشيّد مدينة الزهراء ، ووقف حجر عثرة في سبيل تقدم حركة ال Reconquista او استعادة المسيحيين سلطانهم في شبه جزيرة ايبيريه

وعقد المؤلف فصلاً خاصًّا للكلام عن النظم السياسية والاقتصادية وعن المؤسسات العلمية الاسلامية التي ازدهرت في الاندلس وجعلت قرطبة اكثر مدن اوربا علماً وثقافة ، وأحد المراكز الثلاثة للعلم والعرفان في ذلك العصر ، ولا غرو فانها كانت لا تقل بهاءً عن زميلتيها : القسطنطينية وبغداد ، وكانت تفخر بأميال من الطرقات المرصوفة والمضاءة ، « بينما

لم يكن في طرقات لندن مصباح واحد بعد هذا التاريخ بسبع مائة سنة » ، وكانت الحمامات امراً مألوفاً في قرطبة إذ ذاك « بينما كانت جامعة اكسفورد تنظر الى الاستحمام كعادة وثنية »، وشرح المؤلف النظم الحكومية واساليب الزراعة والتجارة في الدولة الاموية بالاندلس،ووصف ابهة الخليفة والازدهار العلمي في عهده ثم تكلم عن دكتاتورية المنصور بن ابي عامر في عصر الخليفة هشام الثاني (٩٧٦ — ١٠٠٩) ، قبل أن ينتقل الى سقوط الدولة الاموية ، وقيام ملوك الطوائف ، وتاريخ الولايات التي بقيت في يد العرب بعد ذلك ، والعمائر التي شيدت فيها حتى تقلص سلطان المسلمين ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢

ومن ابدع فصول هذا القسم ما تحدث فيه المؤلف عن تراث المسلمين في اسبانيا وما خلفوه للغرب ، فتكلم عن لغتهم وادبهم وشعرهم وما استحدثوه من اوزان ومعانٍ ، ثم عن اساليب التعليم عندهم ومجموعات الكتب التي كانت تزدحم بها حوانيت ورّاقيهم ، وعمن نبغ بينهم من المؤرخين وكتّاب التراجم . كابن القوطية وابن حيان وابن الفرضي وابن بشكوال وسعيد ابن احمد الطليطلي ولسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون ، ثم الجغرافيين والرحالين كالبكري والادريسي وابن جبير وابي حامد محمد المازني الذي زار روسيا سنة ١١٣٦ . وكتب المؤلف عن الفلك والرياضيات والطب وعلم النبات والفلسفة في الاندلس وعما كان للمسلمين من تأثير في تقدم هذه العلوم على يد الاوربيين بعد هذا التاريخ ، واستن المؤلف سنة حميدة فعقد فصلاً خاصًّا للكلام عن الفن والعمارة الاسلامية في الاندلس وماكان لهما من تأثير في اوربا(١)

وختم الدكتور حتي هذا القسم من كتابه بفصل عن جزيرة صقلية : فتح العرب اياها على يد بني الاغلب في منتصف القرن التاسع الميلادي ، ثم اتخاذها مركزاً لغارات كان المسلمون يشنونها بين حين واخرى على الشواطيء الايطالية ، حتى سقطت الدولة الاغلبية واصبحت صقلية جزءاً من قيصرية الفاطميين ، وظلت كذلك حتى استولى عليها النورمنديون ، ولكنهم ساروا فيها على سياسة التسامح الديني واعزاز المسلمين ورعاية ثقافتهم (٢) . وكانت صقلية ميداناً خصيباً لتبادل الثقافة بين الشرق والغرب ولا غرو فقد كان سكانها خليطاً من الاغريق الذي يتكلمون اليونانية ، والمسلمين الذين يتكلمون العربية ، والعلماء الذين يستخدمون اللاتينية

بقي الجزء الخامس والاخير من هذا السفر الضخم وقد عقده المؤلف للكلام عن آخر الدول الاسلامية في العصور الوسطى فكتب عن دولة الفاطميين الشيعية في مصر : تاريخها السياسي وحياة المجتمع في عصرها وما ازدهر فيها من علوم وفنون ، ثم عن الدولة الايوبية

(١) راجع كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam الذي نقلته الى العربية لجنة الجامعيين لنشر العلم

(٢) راجع كتابنا « كنوز الفاطميين » ص ٧ و ٨ و ١٠٣ و ١٢٠ و ١٤١ و ١٤٣

والنزاع بين الشرق والغرب في الحروب الصليبية وختم الكتاب بالتحدث عن دولتي المماليك وحضارة مصر في عصرها

ذلك عرض سريع لما جاء في هذا الكتاب النفيس من موضوعات وبحوث . وانا لنحرص الحرص كله على ان ننوه بالكشاف الطويل الذي الحق به ، وباسلوب الكتاب الرائع ، ودقته العلمية ، وربطه بين الفنون والآثار وبين سائر نواحي التاريخ الاسلامي ، بله ان الصور الكثيرة التي تزين الكتاب تساعد على تفهم الحضارة الاسلامية العظيمة ، وتقرب الى الفهم كثيراً مما يستعصي تصوره من الكتابة والوصف . واما ما فيهِ من رسوم وخرائط فيشهد بطول الباع في الدقة والتحقيق

وان كان ثمة ما نأخذه على الاستاذ المؤلف فهو قبولهُ ان تحذف المراجع في نهاية كل فصل او قسم ، فان الايجاز في شرح بعض النظريات والمسائل يجعل الاشارة الى المصادر التي توفيها حقها من الدرس امراً لازماً ليستطيع القارىء أن يفي حاجته من التحصيل وان يكون رقيباً على المؤلف ، يقره أو يتخذ لهُ رأياً آخر ، وليمكن فضلاً عن ذلك ان يعد الكتاب مصدراً علميًّا صحيحاً يتخذ حجة ويشار اليهِ في المؤلفات المطوّلة

وثمة شيء آخر لانجد مفرًّا من الاشارة اليهِ ملتمسين للمؤلف الجليل عذراً في وقوعه : ذلك اننا لاحظنا ان بعض الموضوعات الخطيرة لم توف حقها من العناية فنالها من صفحات الكتاب أقل مما نال غيرها من المسائل التي لا تساويها خطراً ، ولكن هذا راجع بطبيعة الحال الى حجم الكتاب وطول الحقبة التي عرض لها . كما اننا لاحظنا في بعض ابواب الكتاب ان الاستاذ المؤلف لم يستخدم المؤلفات الحديثة في بعض نواحي التاريخ الاسلامي . وربما كان السبب في ذلك ان ابواب الكتاب المذكورة اعدت قبل صدور المؤلفات المشار اليها وقد سمعت مثل هذا النقد من بعض أفاضل المستشرقين ، كل في الناحية التي وقف نفسهُ على دراستها

***

على ان الاستاذ الدكتور حتي قد وفق الى ابعد حدود التوفيق في قص تاريخ العرب في زهاء سبعمائة صحيفة بطريقة طريفة مع الدقة، وعلمية مع السهولة . ولا نبالغ في شيء اذا قلنا ان كتابه النفيس ألزم عدة لكل من يريد ان يدرس تاريخ المسلمين بدون ارهاق وعلى نحو علمي صحيح . ولا غرو فقد قام الدكتور حتي بالتدريس في الشام وفي اميركا واعد اعداداً طيباً لاخراج هذا المؤلف الجليل واتيحت لهُ فرص للدرس والتحصيل لم ينعم بها غيره ممن كتبوا في التاريخ الاسلامي . وحسبهُ فخراً ان ينسب اليهِ هذا السفر الضخم الذي يدل على علمهِ الغزير وفضله الواسع

التوائم

وأثر البيئة والوراثة فيهم

للدكتور شريف عسيران

كنت قد نشرت في المقتطف الاغر بحثاً عن التوائم والمحيط [1] وعثرت الآن في المجلد ١٥٧ العدد الثاني الصادر في اغسطس ١٩٣٧ من مجلة السينتفك اميركان على هذا المقال النفيس بقلم سيسل ريف احد اساتذة جامعة اوهايو فرأيت ان انقله اتماماً للفائدة لانهُ ينهج نفس المنهج الذي نهجته في مقالي . وللوراثة والمحيط شأنهما الكبير اليوم في عالم العلم . واليك المقال

كنت في احد الايام سائراً في الشارع اذ لمحت على مسافة قصيرة مني شاباً منظره اليف الي فلحقت بهِ ولما ادركتهُ اخذت أحدثهُ كمن يعرفهُ حق المعرفة ولكن كان موقفهُ مني موقف المستغرب فالتفت اليَّ وقال لاشك انك تظن انني اخي التئم وكان قوله صحيحاً لانني ظننتهُ اخاه. وقد دلت التجارب ان التوائم غير المتولدة من بيضة واحدة لا تتشابه صفاتها الاَّ كواحد في ربع مليون . وبتعبير آخر دلت هذه الحادثة على ان هذين التئمين من النوع المتماثل

وقد اتخذنا التجارب المذكورة قاعدة تشخيصية للتوائم استنبطناها في مختبرات علم الوراثة بجامعة ولاية اوهايو وهي تشمل فرق الدم وبصم الاصابع ولون العين والقامة وبعض تفاعلات حاسة الذوق وحاصل الذكاء. فبحثنا كل صفة من صفات التوائم بالمقابلة بينهم وبالقياس الى آبائهم واخوتهم واخواتهم . ثم استخرجنا احتمال التشابه بين توائم كهذه منشقة من بيضات ملقحة مختلفة . ان الشابين المذكورين آنفاً يمتان الى فرقة دم واحدة ولا فرق يذكر بين شعرهما ولون اعينهما. والفرق بين قامتهما لايتجاوز ربع البوصة (انش) وبين وزنهما «الباوند» الواحد وبصمات اصابعهما متشابهة حتى لا يفرق بينهما الخبير البارع وهما مصابان بدرجة واحدة من عمى اللون الاحمر والاخضر ويغنيان احياناً معاً احدهما بصوت منخفض والآخر بصوت عال ويتبادلان الصوت دون ان يلاحظ السامعون . ودرجة ذكائهما واحدة بحسب امتحان Stanford Binet وفي العشرين

(١) المقتطف م ٨٢ ج ٤ ص ٤١٤

من عمرهما اصيب كلاهما بألم في نفس السن وذهبا الى طبيبين مختلفين عالجا سن كل منهما العلاج نفسهُ

يكاد كل انسان يصادف توائم متماثلة تنطبق عليها وجوه الشبه التي ذكرناها كل الانطباق. ومع انهُ من المحتمل ان يتولّد تئمان متماثلان اشد التماثل ذكران او انثيان من بيضتين مختلفتين (ملقحتين) فالارجحية الوف المرات للمرة الواحدة ان تئمين من هذا القبيل يتولدان عادة من بيضة واحدة. ومن المعقول جدًّا ان يكون التئمان اللذان يصعب التمييز بينهما على الاقارب والاصدقاء من بيضة واحدة. ترى على صفحات هذه المجلة (يقصد السينتفك اميركان) بنتين تئمتين اجريتْ لهما عملية الزائدة الدودية في السنة الخامسة من عمرهما خلال يومين بين الاولى والثانية وقد بلغت الزائدة طولاً واحداً تقريباً وكانت حالتهما بعد العملية واحدة ايضاً

ان مقدار ٢٠—٢٥ بالمائة من التوائم البشرية متماثلة تماماً. اما التوائم الاخوية فلا تتشابه اكثر مما يتشابه الاخوة والاخوات في صفاتهم الوراثية. وقد تكون التوائم ثلاثية او رباعية او خماسية وهي اما متماثلة واما خليط من متماثلة واخوية والتوائم المتصلة Siamese هي المتماثلة التي لم ينفصل احدها عن الآخر. ان نوع التوائم يهيء لنا مادة للبحث في مكانة الوراثة والمحيط في تكوين الصفات فالفرق بين التوائم المتماثلة لابدَّ ان يكون غير متولد من الوراثة لانهما من بيضة فاذا تزوج اخوان تئمان متماثلان اختين تئمتين مثلهما تتشابه صفات اولاد الاعمام مشابهة صفات الاخوة والاخوات العاديين ولا يعني هذا انهُ من الضروري ان تكون الفروق بين التئمين وراثية فمخالفة الايدي تحصل غالباً في بعض التوائم المتماثلة ولكنها لا تحصل في أغلبها (اي ان يكون احد التئمين أيمن والآخر أعسر) ومع ذلك لدينا أدلة تثبت ان لتكوين الايدي أساساً وراثيًّا وتعليل هذه الظاهرة ان محيط التوائم المتماثلة يختلف حقيقةً عن محيط الفرد غير التوأم وقد يؤثر وضع الجنين في الرحم في القابلية الوراثية. ولنتخذ التوائم الاخوية ضابطاً في بحثنا عن التوائم المتماثلة[1] ويمكننا ان نقول مؤكدين ان التوائم التي تنشأ معاً يكون لها نفس المحيط فالمشابهات التي تكون اكثر بين التوائم المتماثلة من عكسها يجب ان يكون لها أساس وراثي على شرط ان يكون محيط النوعين متماثلاً. ولا يجب ان يغرب عن بالنا انهُ رغماً عن انهُ ليس للتوائم الاخوية قابليات وراثية متماثلة فهي تشابه بعضها بعضاً مشابهة الاخوة والاخوات. فمقابلتنا لنوعي التوائم في المحيط المتماثل لا تحل المشكلة اذاً لانها تظهر شطراً فقط من تأثير العوامل الوراثية

وقد استرشد عدة علماء بهذه الطريقة في تتبعاتهم عن تأثير الوراثة والمحيط ونذكر على سبيل المثال ديل Diehl وفون فيرشور von Verschuer الالمانيين اللذين أنجزا منذ عهد قريب درس ٢٠٥ ازواج

(١) دفعاً للالتباس نقول ان التوائم المتماثلة تتولد من بيضة واحدة وفيها نفس الصفات الوراثية والاخوية من بيضتين مختلفتين وصفاتها الوراثية مختلفة (المعرب)

توائم في كلا التثمين او في احدهما قابلية للسل واستغرق درسهما عدة سنوات . ومن هذه التوائم ثمانون متماثلة و ١٢٥ أخوية فتبين ان قابلية السل كانت ثمانين بالمائة في التوائم المتماثلة و٢٥ بالمائة فقط في التوائم الاخوية . وتدلنا هذه النتائج دلالة أكيدة على ما للقابليات الوراثية من أثر مع العلم ان العدوى ضرورية لاحداث المرض

وقد حذا حذوهما في استقصاء عدة امراض علماء مختلفون مسترشدون بنفس الطريقة فبعض انواع الفتوق والجحوظ والصرع والجنون تكون شديدة الشبه في التوائم المتماثلة وضعيفتهُ في الاخوية مما يدل على ان الوراثة عاملٌ قويٌّ في حدوثها وعكس ذلك الحصبة والسعال الديكي فانهما يصيبان النوعين على السواء مما يدل على ان تأثير الوراثة في قابلية المرء للعدوى ضعيف فيها

وهناك ملاحظات وتقارير عن عدة مشابهات تستوقف النظر بين التوائم المتماثلة لامراض أقل شيوعاً من الامراض المذكورة آنفاً . وقد اكتشفنا حديثاً رجلين تثمين عمر كل منهما ٥٢ سنة عاشا مدة ٢٥ سنة بعيدين أحدهما عن الآخر مسافة ١٠٠ ميل أحدهما عامل في السكة الحديدية والآخر عامل في احدى الموانىء البحرية فمرض الاول في ابريل سنة ١٩٣٣ وأجريت لهُ عملية حصى المرارة الساعة السادسة مساء وفي منتصف الليلة نفسها مرض أخوه وأجريت لهُ العملية ذاتها . ومنذ أقل من سنة أوردت بعض المجلات المعروفة حادثة عن سرطان المعدة تشبه هذه الحادثة . مرض تئم عمره ٧٠ سنة وأدخل أحد المستشفيات وظهر انهُ مصاب بسرطان في المعدة وفي خلال اسبوع مرض أخوه الذي كان يسكن بعيداً عنهُ ولم يعلم شيئاً عن مرض أخيه فأدخل المستشفى وتبين انهُ مصاب بسرطان المعدة ايضاً . ومن الواضح ان مشابهات كهذه بين التوائم المتقدمة سنًّا والتي تعيش بعيدة بعضها عن بعض هي اعظم شأناً من مشابهات التوائم التي تعيش معاً . والحادثة التالية التي نشرها Champlin في مجلة المجمع الطبي الاميركي سنة ١٩٣٠ تزيد البحث وضوحاً : اصيب فرد تئم بلطمة من قدة خشب في خصيته اليمين فظهر ساركوما [١] في موضع اللطمة ومات وكان عمره ٢٤ سنة بعد سنتين من اثرها . وظهر في خصية اخيه التئم عند ما بلغ الحادية والثلاثين نفس الورم مع أنهُ لم يصب بأي لطمة فمن الواضح ان اللطمة لم تسبب الساركوما وانما عجلت ظهوره

إن لمقابلة النقص العقلي بين التوائم المتماثلة وغير المتماثلة لذة خاصة فنسبتها بين الاولى ٩٦ بالمائة والثانية ٢٥ بالمائة . ومن عدة سنوات درس Lange ١٣ تواماً متماثلة في المانيا من ناحية ميلهم للاجرام فاكتشف اجراماً في سيرة كل منهم ما عدا ثلاثة حالة ان هذه النسبة كانت في ١٨ تواماً أخوية ثلاثة فقط فدفعت هذه النتيجة غيره من الباحثين ان يحذوا حذوه فدرسوا ٦٦ زوج تئم متماثلة و ٨٤ اخوية فكانت نسبة المجرمين في المتماثلة ٦٨ بالمائة وفي الاخوية ٣٨

(١) نوع من الاورام الخبيثة

وهناك عدة صفات انسانية Anthropological كفرق الدم ولون الشعر والعين والجلد وعدة شذوذ وراثية كالعنش [1] (Polydactylism) واللَّهاق [2] (Albinism) والعُلْمة [3] (Harelip) والصلع وعمى اللون لا تتغير البتة في التوائم المماثلة حالة ان بصمات الاصابع والكف وشكل الاسنان والقسمات والمشية والصوت والمظاهر الخارجية تختلف اختلافاً عظيماً ولكنها قد تختلف أو لا تختلف في التوائم الاخوية . وفي بعض التوائم المماثلة وليس في جميعها نجد الشبه بين اليد اليمنى واصابعها في التئمين اشدَّ منهُ بين اليمنى واليسرى في التئم الواحد

واعظم ما يثير اهتمامنا في درس مقابلة التوائم هي الصفات العقلية . ان تأثير الوراثة والمحيط وايها أفعل في حياة الفرد كان ولا يزال شغل العالم المتمدن الشاغل وموضوع مجادلات عنيفة . فهل يلقي درس التوائم نوراً على هذا الموضوع الذي تتبعهُ مختلف الباحثون وبذلوا الجهود الكثيرة في سبيله ؟ ويجابه المرء بعض الصعوبات في البحث عن الصفات العقلية لا يجابهها في دراسة الصفات الجسدية . ولا نستطيع ان نستوثق من امتحان الذكاء وهل يقيس فقط قابلية المرء الطبيعية للتعليم أو ان حل بعض الاسئلة نتيجة التهذيب والتدريب . ويجب ان نقدر أن المُمتَحنْ يستطيع او لا يستطيع أن يجيب بهِ باقصى مقدرته

وقد درس علماء النفس بعض مقاييس الذكاء كمقياس Simon Binet وتنقيحاته درساً وافياً زمناً مديداً ووجدوا نتائج هذه المقاييس مرضية في التوصل الى قياس قابلية درجة التعلُّم بصورة عامة . فاذا تعهد هذه الامتحانات (المقاييس) اناس مدربون استحقَّت ان تكون دليلاً في معرفة درجة الذكاء وبعبارة أخرى ان مختلف الممتحنين يتوصلون الى حاصل ذكائي متساوٍ تقريباً في الشخص الواحد او اذا امتحن الشخص الواحد في فترات مختلفة بين سنة او اكثر بقي حاصل الذكاء متساوياً في مختلف الفترات

وقد تناول مختلف الباحثين درس درجات ذكاء التوائم المماثلة فكان الفرق خمس نقط بين بعضها في حاصل الذكاء وهو فرق لا يؤبه لهُ وعكس ذلك الفرق بين التوائم الاخوين اذ يبلغ ١٠ — ١٢ نقطة وهو فرق محسوس . والنتيجة الحاصلة من هذه المقابلات ان الذكاء وراثي الى حدّ ما. وقد حاول نيومن ان يعرف مدى تأثير المحيط في تكييف الشخص فدرس عشرين زوج تئم مماثلة رباهم منفصلين بعضهم عن بعض في اماكن مختلفة فوجد حاصل ذكائهم تقريباً كحاصل توائم اخوية تربوا معاً اي في محيط واحد . فهذه التجربة تدلنا على ان للمحيط والوراثة اثراً بيناً في حاصل ذكاء الفرد . وهناك بعض الصعوبات في قبول صحة هذه النتائج لان المحيط المتشابه

(١) ان تنمو ست اصابع أو اكثر في الكف الواحدة والاعنش لغة من له ست اصابع
(٢) اللهق واللهاق — الابيض الشديد البياض (ابن سيده)
(٣) العلم والعلمة والعلمة — وهو شق في وسط الشفة العليا مثل شفة البعير (ابن سيده)

وغير المتشابه ليسا الاَّ تعبيرين نسبيين اذ لا يمكن أن يكون لفردين محيط متماثل او مختلف بالمعنى الحرفي . ويقول النقاد اننا حتى لو ربينا نوعي التوائم معاً فمحيط المتماثلة يكون اكثر تشابهاً من الاخوية لان الانسباء والاقربين فقط يستطيعون تمييز فردي التوأم المتماثلين فيقف الناس منهم موقفهم من شخصية واحدة . وأما التوائم الاخوية فتختلف اختلاف الاخ والاخت ولهذا يختلف تأثرهم بالناس . والطريقة المعقولة لتحقيق هذه القضايا ان نأخذ نوعاً رابعاً اي توائم اخوية تربى بعيدة بعضها عن بعض . فاذا كانت مقاييس الفروق بين التوائم المتماثلة والاخوية التي تربى معاً اكثر من التي تربى مبتعدة بعضها عن بعض فيمكننا حينئذٍ ان نوقن بأن هذا الاختلاف ناشيء عن ان محيط التوائم المتماثلة التي تربى معاً اكثر تشابهاً من التوائم الاخوية التي تربى معاً لان الفروق الوراثية متشابهة في كلتا الحالتين . واذا كان الفرق بين نوعي التوائم التي تربى كل على حدة مثل التي تربى معاً او اكثر كان في وسعنا ان نقول حينئذٍ بأن الفروق المحيطة بين نوعي التوائم التي تربى معاً لا يؤبه لها من وجهة الذكاء

ومن الممكن ان يمتحن فردان نفس امتحان الذكاء باحدى الطرق المتبعة ويجاوب كل منهما عن اسئلة من الامتحان اجوبة تختلف عن التي يجاوب بها الآخر . ويجاوب اجوبة صحيحة تختلف عن أجوبة الفرد الثاني . وكل من لهُ خبرة كبيرة في فحص التوائم الاخوية يعلم ان الفرد الواحد يجاوب اجوبة صحيحة تختلف عن اجوبة الآخر حتى اذا جاوبا أجوبة صحيحة فان طرق اجوبتهما تختلف ، حالة ان اجوبة التوائم المتماثلة تتشابه تشابهاً كليًّا في صحة الاجوبة ونوعها . وقد دلت الاحصاءات ان درجة الاختلاف كبيرة في نوعي التوائم وبعبارة اوضح أن التوائم المتماثلة التي تربى معاً تتشابه نوعيًّا في اجوبتها اكثر من تشابه الاخوية التي تربى نفس التربية . ولا نعلم هل منشأ هذه الزيادة زيادة مشابهة المحيط او ان هناك سبباً وراثيًّا لنوع الذكاء المقاس بامتحانات كهذه ،وصفته. ويجب ان نتوصل الى حل لهذه القضية اذا قابلنا توائم أخوية تربى منفصلة مع توائم متماثلة تربى مثلها فاذا ثبت وجود فروق نوعية كهذه متساوية بين نوعي التوائم فلا يخامرنا شك حينئذٍ في ان جانباً على الاقل من نوع ذكاء الفرد ودرجتهِ يتوقف على الوراثة واذا كانت هذه الفروق معدومة بين نوعي التوائم التي تربى منفصلة أمكننا ان ننسب الفروق النوعية بين التوائم التي تربى معاً الى زيادة مشابهة المحيط في التوائم المتماثلة

لقد أوجزنا في مقالنا هذا بعض الطرق الوراثية في البحث عن التناسل . ولا يخفى اننا لانزال في اول الطريق للاستفادة من الممكنات الميسورة لنا وكل من يعرف شيئاً عن توائم مختلفة او متماثلة ربيت مبتعدة بعضها عن بعض يسدي مساعدة حقة الى علم التناسل اذا اتصل بالباحثين الشغوفين بهذا الموضوع

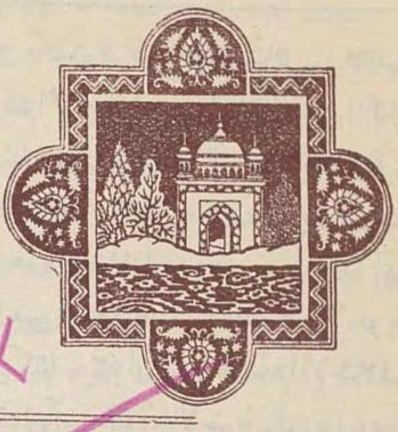

الدكتور محمد اقبال

اكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر
رسالة شعره

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ١ —

ان للشعر في حياة الامة رسائل ووظائف تتنوع على حسب ادوارها المختلفة . لذلك قالوا ان الشاعر دائماً مَثَل لاحوال زمنه وصورة لحوادث عصره. وان الزمن هو الذي يخلق الشاعر على حسب احتياجه وضروراته . ففي دور الفروسية حين لا تعرف افراد الامة دعة ولا تستوطىء راحة ، بل كل واحد منهم يريد ان يخوض هائل الغمرات ويجوب وطيس الوَقعات ، لا يألو اقداماً ، ولا ينكص احجاماً ، لا ينشر الشاعر بشعره لآلئ الحديث تستعبد الاسماع وتلذ الانفس فتلهيهم ، وتحيلهم عن قصدهم ، وتصدفهم عن مبتغاهم ، بل ان شعره في هذا الدور شرار من النار تلهب نار الشجاعة في قلوبهم ، وتنفخ روح الحماسة في نفوسهم . تذمرهم للحربِ ، وتهيجهم للطعان والضرب . وتشعلهم للقِراع وتؤججهم للمصاع . وفي دور العروج حين تغلب الامة وتحكم تتوجه الى تدبير شئون البلاد وتنظيم ادارة الحكومة . فتكف افرادها عن القتال وتصد عن النضال . فتضمحل قوى الحياة ويتغير الطلب بالقناعة ويحل السكون محل الحركة والاستلذاذ محل الجهاد لان امور الامة تنتظم فيه فتصلح حالها ، وتضاعف يسارها ، وتمرع جنابها ، فيقع اعيانها في الطَّفش والرَّفش (١) فينتج الشاعر بطبيعة الحال في هذا الدور على الاكثر ، القصائد في المديح والغزل والنسيب . وفيه يبتدىء الشعر ان يتضع رتبة وينحط حقيقة ويسقط منزلة . وفي دور الانحطاط حين تخلد الامة الى الكسل وتطمئن الى الخمول فتصبح ميتة الحس لا تحفزها الحاجة ولا تستحثها الفاقة ، فتميل دعائم عزها ، وتتهاوى كواكب سعدها ، فتتقوض سرادق مجدها يستعبدها الاجنبي ويستذلها الغير ، يفتح على افرادها ابواب الظلم والخذلان ، ويطلق

(١) قال ابن خالويه : وقع فلان في الطفش والرفش اي في الاكل واللهو

عليهم عقال الجور والهوان . فيرضون بها ، ويركنون اليها ، ويعدون هذا الجور عدلاً ، والهوان كرامة ، والضعف قوة ، والانحطاط عروجاً . في هذه الساعة تتحرك القدرة الالهية لايجاد التوازن في النظام الطبيعي فتخرج الحياة من الموت ، وتبعث اليهم رسل الشعر ، معجزي البيان ، محكمي المنطق ، سلسي الأسلة ، يحيون بشعرهم مواتاً ، ويهدون برأيهم ضالاً ، ويعدلون ببصيرتهم زيغاً ، ويصلحون بنظرهم فاسداً فتدب الحياة في عواطفهم وتستيقظ غيرتهم وتجتمع كلمتهم وتبعث روح الحماسة في قلوبهم فيقومون قومة واحدة لاعادة مجدهم واستعادة كرامتهم

ومن هؤلاء الرسل شاعرنا الدكتور اقبال . فرسالة شعره في الحقيقة نفخة صور تبعث الحياة في العالم الاسلامي خاصة والشرق عامة من جديد وتسعى لاخراجهم من الظلمة الى النور ، ومن الضعة الى الرفعة ومن الهوان الى الكرامة ومن الانثناء الى العزم ومن الضعف الى القوة . وإذاً فدعوته تختلف عن دعوة الشعراء الآخرين لان دعوتهم وان باشرت بعض نواحي الحياة ، قد لا تباشر الحياة نفسها ومن أساسها . فشعره في الحقيقة دواء ناجع لمرضى العزيمة ، وحياة جديدة لموتى اليأس ، ودليل ناطق لحائري الضعف ، وبشارة عظمى لكلال الهمة وقد اشار الدكتور الى رسالته هذه في ديوانه « بانك درا » فقال :

« ان رسالة غيري شيء ، ورسالتي شيء آخر
ان أسلوب الكلام لمن عانى العشق (حقيقةً) شيء آخر
انكم قد سمعتم نياحة الطير المحبوس
ولكن اسمعوا ان نياحة الطير الذي على القمة شيء آخر »

وما تلك الرسالة الا سر الحياة أو طريق الكمال الذي بذل الدكتور في معرفته حياته فلم يدركه الا بعد ان عقله التعب ، وشكله النصب ، ومسه اللغوب ، وناله الرزوح ، ولحقهُ الطلوح . فلما عرفهُ لم يجد من يفهمه ولا من يسمعهُ كما قال في بيت :

« اني وان كنت قادراً على التعبير فانهُ ليس هناك من يفهمهُ
واحسرتاه ! على من في صدره سر وليس لهُ رفيق ! »

وقال في بيت آخر :

« أني جئت بحديث جديد ولا يصغى اليه أحد
ان النور كاد ان يغيب ولا يمد نحوه احد بصره »

يضيق بنا المجال عن ان نقدم الى القراء جميع المعالم في رسالة شعر اقبال لان صاحب تلك الرسالة قد بسطها في سبعة دواوين ظهرت الى الآن اي في ألفي صفحة تقريباً . وما نقدر عليه هنا هو ان نقدم اليهم بعضها بالايجاز فنقول :

أولاً : ان أهم ما يحتوي عليه رسالة شعره هو الدعوة الى الجد والجهد . فقد أبان في دواوينه مرة بعد مرة بطرق مختلفة ، وأفكار دقيقة ، وأمثلة كثيرة ، وأسلوب مؤثر ، ان المصائب والآلام في حياة الانسان ان هي الاّ أشياء اعتبارية ، وان تحملها من اكبر البواعث على بلوغ الانسان الكمال المنشود الذي بهِ ينال الدوام والخلود . وان عيشة التنعم التي تشل قوى الانسان العملية في الحقيقة تدمير لحياته وموت لهُ . وإذاً فان كل من أراد بلوغ الكمال ونيل الخلود يجب ان يجتهد ويجد ويخوض غمار الآلام والمصائب ويجابه العراقيل في سبيل ذلك بالبسالة والشجاعة . وقد بسط الدكتور هذه الدعوة في جميع الدواوين نقتطف منها بعض الابيات هنا قال :

« ان الحياة هي ان تخلق اللؤلؤ في صدفك
وان تنفذ في اللهيب ولا تذوب . »

وقال في بيتين آخرين : —

« يامن جلست على الساحل جلسة القناعة والهدوء
قم ! لانهُ لا يزال لك شغل مع الدُرْدُور والتمساح
ان اعراضك عن القَدُوم ليس من شأن العاقل
لان كثيراً من المجوهرات لا تزال في قلب الحجر . »

وقال ايضاً : « لا تزين محفلك على الساحل لان هناك صوت الحياة منخفض
غص في البحر ! وجاهد امواجه
لان خلود الحياة في الجهاد »

وقال ايضاً : « سألت صاحب النظر ما هي الحياة ؟
فقال : هي الخمر التي امرّها احسنها »

وقال ايضاً : « قال الساحل الساكن : أنا عشت طويلاً
ولكن واحسرتاه ؟ انا لم أعرف من انا ؟
فلم يتمالك الموج وجرى بالسرعة اليهِ وقال :
ان وجودي من الجريان فان لم أجر فلا وجود لي

وقال ايضاً : « الى متى تكون تحت اجنحة الآخرين
تعلم الطيران الحر في هواء الحديقة
اخرج من عزلة البرعوم مثل الشذى
وامتزج مع نسيم السحر وتعلم الهبوب »

ثانياً : ومن معالم رسالة شعر اقبال الدعوة الى استمرار الجهاد فالتقلب بين اعطاف السكون، والتفيؤ في ظلال الراحة ، والاخلاد الى الدعة ، عنده مرادف للموت . لذلك قد وضح في دواوينه بطرق مختلفة مؤثرة ان لا ينبغي للانسان ان يكتفي بحالة واحدة ويرضى بما هو فيه ، ويقتنع بالكفاف ، ويجتزىء بالميسور ما دامت أبواب الرقي عليه مفتوحة ، وطرق التوقل في أعلى منها ممكنة . لان الحياة عنده هي الحركة الدائمة والجهاد المستمر . وقد عبر عن ذلك بابيات كثيرة نختار منها ما يلي قال :

«ان الحياة تنقش في كل لحظة نقشاً جديداً
ولا قرار لها في صورة واحدة
لو كان يومك هذا نفس صورة البارحة
فليس في ترابك شرار الحياة »

وقال ايضاً : « اتسألني من اين انا ومن انا ؟
انني اموج حول نفسي فأعيش
انني مضطرب في هذا البحر مثل الموج
فان لم اضطرب حول نفسي فلا وجود لي »

وقال ايضاً : « لو تبحث عن رمز الحياة لا تجده الا في الاضطراب
ان في الاستراحة في البحر عاراً على ماء النهر »

وقال ايضاً : « ان حياة القطرة تعلم اسرار الحياة
فانها احياناً اصبحت لؤلؤاً ، وتارةً ندًى ، وطوراً دمعةً »

يشترط الدكتور اقبال اصطحاب هذا الجد المستمر بالعلم . لان العلم مفتاح المحاسن ومصباح المحامد اذ لا شرف الا وهو السبيل اليه ، ولا خير الا وهو الدليل عليه . فقد بث الدكتور منزلته وفوائده في الدواوين بأبيات كثيرة وحثَّ على التحلي به نكتفي منها بما يلي قال :

« ان الحياة جهد وليس الادعاء
ولا سبيل لذلك الا بعلم الانفس والآفاق
ان العلم يعطي الجناح للحرف والصوت وبهاء اللؤلؤ لما ليس بلؤلؤ »

وقال ايضاً : « ان دواء امراض الامة في هذا العصر علم
لانه كالفصد للدم الفاسد في جسمها
ان الله قد قال في الحكمة انها خير كثير
فخذ هذا الخير اينما تجده »

ولـكن ينكر اقبال العلم الذي يوهن العزيمة فيبيد نشاط الاضطلاع باعباء المهمات ، ويفتر الهمة فيتلف شهامة الركوب على ظهور العوائق ، ويضعف الحماسة فيفني صولة الثبات في ارتطام المهالك ، فقد قال فيه ما يلي ترجمته :

« أنا لا آخذ بقطعة من الحشيش ذلك العلم والفراسة

اللذين يجعلان الرجل الغازي عن سيفهِ ودرعهِ غريباً »

وفي هذا البيت ايضاً اشارة الى ان الثقافة او التربية التي لا تلائم بيئة الانسان وطبعه وعاداته وتقاليده بل تقطع صلته بها ليست ذات قيمة تستحق الاعتناء

وينكر اقبال ايضاً العلم المجرد عن الروحانية ، ويرى انهُ خطر داهم على الانسانية . فالثقافة الغربية التي تتسلط يوماً فيوماً على نفس الانسان وعقله عنده غير مفيدة للعالم لانها تشل الروحانية وتقتلها . وذلك لان اساسها العلم المجرد . فعيون عقلاء الغرب يقظة ولـكن قلوبهم ميتة وأرواحهم راقدة . وهم يشاهدون في تقدم العلوم والفنون الحاضر انحطاط الروحانية وزوالها ولا يقدرون على انقاذ الموقف . وتقدم العلوم الطبيعية الذي تثار في اطرائهِ الآن ضجة وان كان أفاد الانسان من بعض الوجوه فان ويلاته عليهِ اشد من ذلك لانهُ الوسيلة الوحيدة لصنع الآلات المهلكة لهُ وللاتيان بالدمار عليهِ . ألم تر كيف ان اصوات الحرية المرتفعة في الغرب المتقدم في العلوم والفنون ان هي الاَّ اصوات السلاسل لاسترقاق الغير من ابناء البشر . لذلك يدعو اقبال اهل الشرق عامة والمسلمين خاصة الى انقاذ انفسهم من الوقوع في مثل هذه الورطة اي اهمال الروحانية . وهو يرى ان اساس العلم العقل واساس الروحانية عشق . فمركز عقل الانسان دماغه ومركز عشقه قلبه . والغرب قد اهمل القلب . وقد وضح ذلك في قصيدة طويلة كتبها رداً على الشاعر الفيلسوف الالماني جويته ونشرها في ديوانه «رسالة الشرق» . والقصيدة آية في البراعة والاتقان تملك القلوب وتسترق الافهام وتستعبد الاسماع . كما انهُ ابان ذلك في دواوينه الاخرى ونحن نترجم بعض الابيات المختارة منها هنا قال :

« لو تقرأ العلم بغير حرقة القلب فهو شر

ونوره ظلمة البر والبحر

ان العالم من غازه اعمى وازرق

ومَلَكُه يُسقط اوراق الفناء والبقاء

فالبحر والصحراء والجبل والحديقة والمرج

متأثرة بقنابل طيارته

« ان النار في صدر الافرنج منهُ
ولذة الهجوم عندهم منهُ
هو يعطي الايام السير المعوج
ويسلب رأس مال الاقوام
ان قوتهُ صاحبة ابليس
والنور يصبح النار بصحبة النار
ان قتل ابليس أمر صعب
لانهُ متوارٍ في اعماق القلب
فالاحسن ان تجعله مسلماً
وتقتلهُ بسيف القرآن .
الامان ! من الجلال المجرد عن الجمال
الامان ! من الفراق المجرد عن الوصال
ان العلم بغير العشق من الطاغوت
ان العلم مع العشق من اللاهوت

وقال ايضاً : « ان اساس العلم على الخوف والرجاء
وأما العشاق فلا رجاء لهم ولا خوف
ان العلم يخاف جلال الكائنات
والعشق يغوص في جمال الكائنات
نظر العلم الى الماضي والحاضر
ولكن العشق يقول : انظر الى ما يأتي
إن العلم قد عاهد قوانين الجبر
فليس لديهِ علاج الاَّ الجبر والصبر
ولكن العشق حر وغيور وغير صبور
هو قد جاء في معرض الوجود جسوراً
ان عشقنا لا يعرف الشكاوى
وإن كان سكران بالبكاء

وقال في القصيدة التي كتبها رداً على جويته

« ايتها الريح ! بلغي عني فيلسوف الافرنج
ان العقل كلما يكون مدققاً يكون اكثر اسراً
انهُ يحرق هذه الكبد ويأسر الاخرى
ولكن العشق اكثر محافظة على الكبد من العقل الفتّان
إن العين لا ترى إلاَّ لون الورد وشقائق النعمان
والاّ الذي تحت قناع اللون اكثر ظهوراً
ليس العجب من أن عندك اعجاز المسيح
ولكن العجب ان مريضك اكثر سقماً (بسببك)
انك قد جمعت الحكمة ونبذت القلب من الكف
واحسرتاه ! على النقد الثمين الذي نبذته

وقال فيها ايضاً مشيراً الى ما انتجت الحضارة الغربية المؤسسة على العلم المجرد :

« ان العشق اصبح طمعاً فتجذمت العرى
والانسان صار من فتنتهِ في الشص مثل السمك
انهُ قد اختار الحرب على السلم وحشد الجيش
ولم ينزل سيفه الاَّعلى رؤوس الاصدقاءِ وصدورهم
واللصوصية التي أسسها سماها « تعمير العالم »
وظلمُ سيادتهِ قد كسر ظهر العامل
انهُ يرقص على صوت الدف والناي بغير الحياء
وفي يده كاس من دم اقاربه المساكين »

(يتبع)

مكتشفات العلم

في غور اليم

عوالم جديدة في قعر البحر

لعوض جندى

سيشرع عما قريب في عملٍ من اخطر الاعمال البحرية ، وذلك على بعد اثنى عشر ميلاً بحريًّا من التخم الجنوبي لجزيرة ارلندة الشبيه ببنانة الاصبع في غور المحيط الاطلنطي ، تحت أمواجه السنجابية . وسيضطلع بهِ رجال شجعان حيث يمارسونهُ على عمق يُربي على ثلاثمائة قدم في جوف البحر ، متذرعين الى بغيتهم ، بأجهزة علمية بديعة الصنع للغوص . ونعني بذلك العمل الطريف الشاق ، انتشال الذهب الذي غرق مع الباخرة لوزيتانيا. ثم يعكفون على تصوير اللقايا التي يلقونها ، صوراً سينمائية لتعرض في معارض الصور المتحركة الناطقة ، فتذاع انباؤها بالراديو في الوقت نفسه ، ليقف الملأ على ما يبلغ المكتشفون من أمانيهم المنشودة في قعر المحيط ، رويداً رويداً ، حيث يحققون فعلاً ما جاء بالاساطير وهماً

ولذلك القصد جعل غواصان اميركيان مشهوران ، يتأهبان لتنفيذ هذا المشروع الدالّ على الاقدام على مكافحة اللجج في بحيرة متشيغان الساكنة ، ثم في حياض الضغط التابعة للبحرية الاميركية في وشنطون ، حيث جرّبا جهازين من اجهزة الغياصة الحديثة ، اخترعا لتلك الغاية. ويبلغ ثقل كلٍّ منهما ٢٨٨ رطلاً . ويمتاز ذلك الجهاز بتجرده من خرطوم الهواء إذ يستنشق الغواص الذي يُجَهَّزُ بهِ ، الاوكسجين الذي يلزمهُ ، من مستودعات توثق بسيور جلدية تشدّ الى كاهله محتوية على أوكسجين مضغوط ضغطاً شديداً . وفي ذلك الجهاز ايضاً لوحة مثبتة فيها آلات دقيقة ، تدل على مبلغ عمق الماء ودرجة حرارته وضغطهِ ، وتبين مقدار الباقي في المستودعات من الاوكسجين المضغوط

وينمُّ على الغواص في أثناء نزوله في البحر ، ميكرفون مودع في باطن جهازه يضخم حركاته وسكناتهِ ويبلغ الباخرة ، (التي ينزل منها) اياها . ويضيء لهُ مسلكه في اللجج ، مصباح كهربائي مثبت بالباخرة مشتبك بمقبض جهاز الغوص تبلغ قوتهُ ٤٠٠٠ شمعة من المصابيح القوية

(قام باختراعها مهندسو شركة الكهربائية العامة الاميركية ، خاصة لذلك المشروع العظيم) وتغشاها طبقة كثيفة من الصمغ المرن «كاوتشوك» وقايةً لها من المياه فتحتمل ضغطها حتى ٥٠٠ رطل على العقدة الواحدة المربعة ، وهذا يزيد على ثلاثة اضعاف ضغط المياه في عمق الـ ٣١٢ قدماً المرتطمة فيه الباخرة لوزيتانيا التي غرقت في ٧ مايو سنة ١٩١٥ على اثر اطلاق الطوربيد عليها من احدى غواصات الالمان ابان الحرب العالمية

ويبلغ أجل هاتيك المصابيح الكهربائية ، وهي مضاءة في باطن الخضم حيث تبردها مياهه ، نحو ٢٥ ساعة. على حين انها لو أضيئت في الهواء الطلق لاحترقت من شدة حرارتها في بضع دقائق

وسيتوسل اولئك المكتشفون إلى إضاءة غور البحر ، عند التصوير بالمصورات الضوئية باثني عشر مصباحاً تبلغ قوة نور كلٍ منها ٢٠٠٠٠ شمعة . وهي من المصابيح المملوءة زجاجاتها بغازي النتروجين والارغون . وستقام على منصات خاصة في قعر اليم للاضاءة عند التقاط صور المخلوقات البحرية

وتشترك في انقاذ وسق لوزيتانيا ، شركة انكليزية ، وسيتذرع غواصوها الى الغياصة بأجهزة من طراز تريتونيا Tritonia الذي يبلغ ثقل الجهاز منها ٩٠٠ رطل ، ولهُ غطاء ذو مفاصل من خليط معدني متين جداً يقي الجهاز في قعر المحيط من الضغط الهائل للمياه عليهِ ويهوّن عليهم الغياصة عشر ساعات كاملة بلا انقطاع ، ويتيح لهم ايضاً تناول طعامهم من رفوف صغيرة مرتفعة تجاه صدورهم في الجهاز عينه. وقد ثبت من امتحان تلك الاجهزة في المختبرات العلمية انها تصلح للغوص الى عمق ٢٤٠٠ قدم تحت سطح البحر لان الضغط لا يتغير على ذلك الجهاز . فيتسنى انتشال الغواص مباشرةً الى سطح الماء . واذا بلغ الغواص الباخرة الغريق لوزيتانيا ، امكن استخراجه رأساً في ثلاث دقائق بينما يستغرق رفعهُ ساعتين، متى كان مرتدياً جهازاً عادياً . وفي أثناءِ تينك الساعتين لا بدّ من وقف العمل في فترات معدودة لكي يتعود جسم الغواص ، تقلب الضغط

وفي خريف سنة ١٩٣٥ تمكن جيم جرّات Jim Jarratt الغواص البريطاني من بلوغ جسم لوزيتانيا لابساً جهازاً من طراز تريتونيا فاستطاع تحديد موقعها بالضبط بالقياس الى رأس Kinsale كينسيل الكبير في ارلندة ويرى الخبيرون ان أولئك المستكشفين الجريئين سيغنمون ، بأحدث الوسائل ، العلمية التي لديهم ، ما يحويهِ وسق لوزيتانيا من السبائك الذهبية والفضية التي تساوي ١٥ مليوناً من الريالات عدا النقود العين والجواهر النفيسة التي كانت تقلها تلك الباخرة المنكودة الحظ

ولاجرم ان هذا المشروع المقصود بهِ احراز غنيمة عظيمة من البحر عاجلاً ، يوجه النظر مرة اخرى الى اقصى حدود الارتياد ، في غور المحيط

ولقد جاءتنا الانباء حديثاً بأن الطائرات قد حلقت في جو القطب الشمالي ، وان البلونات

قد بلغت في طيرانها منطقة الطبقة الطخرورية ، وان السيارات تقطع طرق أشد مجاهل افريقية غموضاً . ومع ذلك فان غور المحيط ومساحته تكاد تبلغ ٧/١٠ العالم قاطبة ما زال حصناً حصيناً لا قِبلَ لامرىء باقتحامهِ وكشف ما يستوعبهُ من الغرائب

ولا غرو فسطح البحر الازرق اللون ، بمنزلة سور منيع يحجز وراءهُ ربوات سابحة من الخلائق المائية التي لا نعلم عنها غير القليل ، بينما تؤلف معرضاً طبيعيًّا واسع الارجاءِ . وفي غور المحيط كنوز من الذهب وبراكين ومنابع للنفط وغيرها من مصادر الثروة الخفية العذراء

وربما تنشب حروب المستقبل في تلك الاغوار الحالكة ، بل ذلك العالم المدهش الواقع على بعد نصف ميل تحت سطح البحر الذي لم يصل اليهِ إلاَّ الدكتور ويليم بيبي Dr. Wiliam Beebe ورفيقه اوتيس بارتون Otis Barton ومساعدوهما . وذلك في كرة فولاذية جوفاء يبلغ قطرها ست أقدام ويزيد ثقلها على طنين اطلق عليها اسم الغرفة الغوّاصة او « كرة الاعماق » Bathysphere

وما لبثوا أن شقوا عباب البحر بتلك الغرفة السابحة ، حتى اخذوا يشاهدون من نوافذها التي صنعت من البلور الصخري ، خلائقها العجيبة — وبينها البراغيث البحرية المضيئة « وهي المعروفة عندنا باسم الجمبري » وما تطلقهُ من غيوم أو دخان مضيءٍ يعمي عيون اعدائها ويعرقل سيرها حينما تدنو منها محاولة اغتيالها (١) وقواقع طيارة ذات اجنحة جلدية تسهل لها العوم وسمك ذو اجنحة واذناب منيرة نوراً ضئيلاً مجرداً من الحرارة ، وحبارات — أم الحبر — تشع ضوءًا برتقالي اللون وسمك النجوم وسمك آخر مزدان ببقع ذهبية منيرة تحدق بها فوانيس ارجوانية ، وغيرها من الخلائق البحرية المجهولة التي ينبثق منها شرار يبلغ حجم القروش ، تبزغ وتأفل في هنيهة

وقصارى القول ان ذلك العالم الحالك ، المشرب بالزرقة ، المكتظ بالخلائق المضيئة ، يستهوي المكتشفين والعلماء بعجائب مخلوقاته

ولقد اقترح الدكتور بيبي انشاء خطة بارعة للهجوم على أسراره الخفية الجمة . وهي إقامة سلسلة مراصد بحرية في غور البحر . كما تقام المراصد الفلكية فوق قنن الجبال فتشيد من الفولاذ والزجاج والخرسانة ويهبط اليها المرء بسلالم ومصاعد وذلك من منصة تقام عند سطح الماء حيث يمارس العلماء مباحثهم على مدى السنة فيتاح للزائرين استجلاء غوامض ذلك العالم العجيب الذي ما برح مجهولاً

وإذا شئت ان نصف لك تلك الحجرة الغوّاصة — فتخيل نفسك نازلاً في إحدى هاتيك المراقب البحرية العتيدة ، اذ تنزل فيها عاجلاً في مصعدة تقلُّك الى عالم آخر تكاد عجائبه

(١) انظر ما كتبناه على الغازات السامة والفاسفور بصفحة ٣٩١ بمقتطف مارس سنة ١٩٣٤

تبلغ عجائب كوكب المريخ (إذا استطعت بلوغه) . وفي الحجرة معامل كيميائية لمباحث العلماء ومتاحف لجمع التحف البحرية . بيد ان اهمَّ ما فيها — نوافذها المصنوعة من البلور الصخري وهي التي ترصد منها عن كثب عجائب المخلوقات في قعر البحر

فتبصر من نافذة فأخرى ، في معرض عام لا نهاية له ، الخلائق المائية تمرح في ادغال المرجان بين الاعشاب البحرية التي تكاد تشبه المنسوجات المطرزة التي تزين بها الحيطان في البيوت . وتلمح السمك الهلامي المسمى قنديل البحر [1] يغدو ويروح زرافات ووحداناً . وترى القرش [2] يسبح على بعد اثني عشر قدماً من النافذة البلورية . وتلمح من فوقك السمك الكبير يعوم كأنهُ الكواكب السيارة في كبد السماء . وترى عن كثب كثيراً من المخلوقات المائية العجيبة تمدُّ انوفها تجاه النافذة الزجاجية وتحدِّق فيها . وفي الليل ترسل المصابيح الكشافة انوارها الباهرة على شكل قطع مخروطي فتتلألأ امامك وخلفك فتتكشف لك هاتيك الحيوانات التي تجول ليلاً مفتشة عن فرائسها

ويقول الدكتور بيبي إنه متى نصبت تلك المراصد في بقع مستورة على امتداد شاطئ فلوريدا الجنوبية ، استطاع العلماء اقامة معاهد لدراسة عشرة آلاف نوع من الاحياء المائية التي لا نعلم عنها الاَّ اليسير بالقياس الى غيرها

وما انفك الاستاذ ريجنالد ترويت Prof-Reginald Truitt ومساعدوهُ في المختبرات البيولوجية في خليج تشيزابيك يقومون بالاكتشافات البحرية في ذلك الخليج ، بغية التبحر في علم طريقة معيشة السمك في الاعماق ، متوسلين لذلك بأسطوانة فولاذية مسدسة القوائم ، ذات نوافذ من الزجاج الثقيل مثبتة في جوانبها ورأسها . ويسمونها بنثاريوم Bentharium وهو لفظ اغريقي معناه « حجرة في قعر البحر » وتنزل الاسطوانة الى الغور ، من بئر مثبتة في رمث عائم ، وتسع راصدين ، وبها تمكن العلماء عشرات المرات من الجوس خلال حياض الاصداف والبقاع الملأى بالحشائش المكتظة بالحيوانات البحرية العائشة في ذلك الخليج . وقد هبطوا كثيراً في آناء الليل واطراف النهار ، قريباً من الشاطئ وبعيداً عنهُ وفي غضون العواصف ايضاً . ثم انهم من عهد قريب غاصوا في اللجج قبل الفجر ليتحققوا كيفية مظهر شروق الشمس عند السمك

ان المعرض الحافل بالالوان الذي خبره اولئك العلماء ، لدليل على ماسوف نلاقيه في

(١) سمكة كصورة القلنسوة ، شفافة كشفوف الزجاج ، شبيهة بالخوذة ولها اربعة اجرام في وسطها ، ترى في الليل مضيئة كالقمر اذا حجبه السحاب الرقيق ولها ضوء يشرق على ما حولها في البحر ولونها ازرق سماوي

(٢) سمكة في البحر لها خرطوم كالمنشار تفترس وربما التقمت ابن آدم وقصمته نصفين ويقال لها اللخم والكوسج ايضاً وتخافها دواب البحر كلها . عن معجم الحيوان للفريق الدكتور امين فهد المعلوف باشا

اعماق البحر حينما يصبح الارتحال اليها امراً ميسوراً مألوفاً ، حيث أبصر الرقباء من حجرتهم الفولاذية الغائصة في المياه الحالكة ، قبل بزوغ الفجر ، من نوافذها الزجاجية ، الماءَ ينقلب من حالك الى ازرق فقرنفلي ، فأحمر برتقالي ، فشبه اخضر شفاف ثم يظل على ذلك طول النهار

وقد اطلوا مرة من النافذة العليا فشاهدوا اعظم المشاهد البحرية اذ بدت لهم اشعة الشمس تنزل عليهم من علو كأنها كرات كبرى نارية حمر ، مخترقة المياه البرتقالية اللون. وحينئذٍ كانت الشمس قد أنارت الافق فجعلت سطوح الامواج البلورية اللون الجارية فوقهم ، تعكس صور الاشباح الى اسفل. ومن الموضوعات المفيدة في الاستكشاف البحري ، دراسة الغور نفسه . ففي الطبقات الصخرية لتلك السهول والاودية وسلاسل الجبال المغمورة دائماً بالمياه ، مفاتيح ما أغلق على العلماءِ من الالغاز الجيولوجية منذ اقدم العصور . ولا غرو فالعلماء في هذا الزمن فريقان ولكل منهما رأي مخالف للآخر في مسألة تكوين القارات . فأصحاب المذهب الاول يقولون ان القارات كانت ذات يوم متصلة بعضها ببعض بمعابر أرضية ثم غمرتها المياه من زمن بعيد . ويذهب الفريق الآخر ان القارات بمثابة طبقات من الجمد عائمة على سطح الماء ، ترحل من مكان الى آخر ترحالاً وئيداً ، محمولة على مادة من المعادن المصهورة التي في باطن الارض

والوجه ان المرجع في معرفة أصوب ذينك المذهبين ، سيكون في المواد التي تنتشل من سلاسل الجبال الغائرة في المحيط . فان كانت تلك السلاسل قد كونت في زمن ما ، معابر ارضية لربط القارات ، كانت النماذج الصخرية التي تؤخذ منها محتوية على الحيوانات والنباتات المتحجرة التي تمتاز بها مناطق المياه الجارية فوقها الآن

وقد أعلن حديثاً الدكتور تشارلس بيجوت Dr. Charles Piggott احد علماءِ معهد كارنيجي في وشنطون ، وسيلة جديدة تساعد على كشف اسرار الجيولوجيا في غور البحر ، وقوامها مثقب ضخم مجوف ، يطلق مباشرةً بالمواد المفرقعة الى قعر البحر ، ثم ينشل الى سطحهِ محتوياً على اسطوانة من الصخر من غور البحر . وبهذه الوسيلة تسنى للعالم المشار اليهِ الظفر بنموذج طوله ثماني أقدام من قلوب الصخر الكامن في عمق ٧٢٠٠ قدم تحت سطح البحر

هذا وقد وافتنا بعض انباء أخرى خطيرة باللاسلكي عن اكتشاف عالم غور المحيط في القطب الشمالي ، حيث قام من عهد قريب اعضاء البعث الروسي بسبر غور المياه هنالك فاذا هي تبلغ من العمق ١٤٤٠٠ قدم وتبينوا ان ارض البحر في ذلك المكان مؤلفة من غرين اسمر مشرب باللون السنجابي

وأولع لفيف من هواة الفنون الجميلة والصيد بالاكتشافات البحرية في مياه البحر الابيض المتوسط الدفيئة . ويرأس تلك الجماعة المسيو جان بنليفه Jean Painlevé نجل رئيس وزراء فرنسا

السابق وقد شرعت في انشاء أندية لها اطلقت عليها اسم « اندية تحت سطح البحر » واعمالها ناجحة . وينضوي تحت لوائها بضع مئات من الاعضاء يرتدون وجوهاً مستعارة خاصة ويعلقون باكتافهم احواضاً صغيرة للهواء المضغوط مربوطة بسيور جلدية تكفيهم لرحلة ربع ساعة تحت الامواج ، متسلحين برماح مثلثة الشعاب وبنادق هوائية لصيد السمك في الآجام المائية على عمق ١٢ قدماً او اكثر تحت سطح الماء

واحدث ضروب التحسين في تلك الرياضة البدنية ، البحث عن المدن المغرقة على ساحل البحر . فقد عثر احد الاعضاء الغُيُر من تلك الجمعية ، من زمن قريب على فخارٍ رومانيٍّ نادرٍ من قرية كانت واقعة على الشاطىء الجنوبي لفرنسا ، وقد طغت عليها مياه البحر من زمن بعيد . ومن الميسور لأولئك الهواة المغامرين النزول تحت سطح الماء الى عمق يتراوح بين ١٥ قدماً و ٢٠ قدماً ، حاملين عتادهم المؤلف من الوجوه المستعارة ومستودعات الهواء المضغوط وعلى رؤوسهم خوذ ثقيلة . اما العالم بيبي فقد وصل الى عمق ٦٠ قدماً ، وهذا اقصى ما يستطيع المرء بلوغه دون التذرع بجهاز الغوص الكامل

ولما تعمَّق الدكتور بيبي اول مرة في غرفتهِ الغواصة الاصلية ، اكتشف اكتشافاً عجيباً فأذاعهُ ، وفحواه ان الاحياء في أغوار المحيط لها مناطق مكتظة بسكانها مثل طبقات الفطيرة ، يعلو بعضها بعضاً . ثم أعلن من عهد قريب اكتشافاً آخر احدث من ذلك ، وهو تأثير الاشعة التي فوق البنفسجية في سمك المياه الملحة . وذلك انهُ توسل بمصباح كشاف من مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجية فأطلق منهُ تلك الاشعة الخفية في عباب البحر من طرف افريز احد المرافىء فاصطادت شباكهُ سمكاً اكثر مما كانت تصيد في الاحوال العادية ، اذ احتشد السمك في تلك البقعة احتشاداً كبيراً كأنهُ يشغف بتلك الاشعة الغريبة فيسايرها حيث تنبثق ، وقد تبين لهُ في عدة حوادث ان الخلائق البحرية تتألق تألقاً باهراً على ألوان مختلفة مثل بعض المعادن حينما تُعرَّض لضوء الاشعة التي فوق البنفسجية

ويعنى هذا العالم ، في هذه الآونة ، بتجارب جديدة في مقرّه بجزيرة برموده متوخياً بها التحقق من علّة هيام السمك بالاشعة المشار اليها . وما زال هذا سرًّا من اسرار شتّى ينطوي عليها عالم البحر

وما ذهب لوزيتانيا وغيره من كنوز البواخر الغارقة المنتشرة شذر مذر في قرار المحيط الاّ حافز وحيد على الاكتشافات البحرية . اما المشاهد العجيبة والاكتشافات العلمية الطريفة فستكون من نصيب طلائع المرتادين . ويعتقد الدكتور بيبي ان بين قرار المحيط وسطحه ، تمتد آخر ميادين المغامرات العلمية

(عن مجلة العلم العام)

راجي الراعي

أيتها الارض

أيتها الحجارة الرحيمة التي حملتني حتى اليوم وأنا ابن الرجل الذي طرده اللهُ من جنَّتهِ
أيها الصدر الرحب الذي ادوسهُ وفي دمي غذاؤهُ . . .
أيتها الكريمة الحليمة التي أمزِّقها بمحراثي فترتق بزادها ومائها ما فتقهُ في الزمان
أيها الثدي الكبير الذي تتدفَّق منهُ الينابيع . .

أيتها الفاتحة ذراعيها لموتاي ، الخازنة في اعماقها ذهبي ، الشاربة سموم الافاعي لتقيني شرَّها ، الصامتة صمت الجبابرة لتكسر حدة الهوس في بياني ، الحاملة جبالها لا تلقّن امثولة الصبر ، الباسطة صحاريها ليتسع نطاق أحلامي ، وحدائقها ومروجها لأُضفر على رأس الحبيب اكليلهُ الزاهي ، المتبرّعة باشجارها لأُجني ثماري ، المرتدية ثوبها الترابي لا خلع عني حلل الحرير والدمقس وارضى باطماري ، الفاتحة بابها على مصراعيهِ للجبار والصعلوك والغني والفقير والمجنون والعاقل والذكي والابله لاسحق كبريائي وآخذ عنها درس المساواة ، الطاوية كبدها على النار لتفهمني أنني خلقتُ للالم ، الباسطة كفها للموت وقبوره لأقطع حبل شروري وآثامي ، المتبلجة في الصباح لتنقذني من براثن اليأس ، الفاتحة صدرها لتضحيتي وجرأتي ومجدي ، المستسيغة دماء المعارك لتكثر الاشلاء فاستفظع مظالمي ، الحاملة تماثيلي لأرى العظمة في أقراني وهياكلي لأُصافح الرحمان وخرائبي لأُتخيّل الماضي ، الناظرة بارحامها الى الامهات نظرة الزميل الى زميلهِ ، المنصتة لعربدتي لأُظلّ ثملاً بالخليقة أكرع كؤوسها ، المتوّجة بالافق لكي لا يجاريها فوق عرشها سلطان ، السائرة في مواكب الاجيال ، المستظلة براية الزمان ، الراقدة في احضان الليالي ، المفترشة الفضاء ، الملتحفة بجلال الخالق ، السابحة في بحور النور ، المفعمة بالأثير ، الرافلة بحلل التاريخ ، الحائرة بين المهود واللحود ، المتكئة على وسادة الله ، الباسطة بقاراتها يدها ذات الاصابع الخمس ، الزاحفة في طريقها الى حيث لا تدري ، الحاملة اعباء الانسانية على ظهرها الحديدي الذي لا تقوّسهُ الايام ، الدائرة على نفسها كأنها تحاول أن تفلت من حقارة الانسان ، العارضة قمرها للعاشقين ونجومها للطامعين وبحورها لليائسين وغاباتها لقراطيس الموهوبين وحراجها للمظلومين الفارّين وساحاتها للمصارعين وبلاياها للمغرورين المتجبرين وامجادها للمجاهدين وشلاّلاتها

لمن أصيب بالعقم وتحجّر قلبه وغلظت كبده، واجواءها للمحلقين وزواياها للقانعين ونواقيسها للناسكين ، القائمة على قمة هرمها الابدي الذي يؤلف جوانبه الثلاثة امسها ويومها وغدها ، الحانقة على الاسكندر وهانيبال ويوليوس قيصر ونابليون الذين حاولوا أن يمتلكوها ، المعترفة بجميل كولمبس الذي اهتدى الى شطرها المفقود

أيتها الارض ! ! يامسرح الوجود وياوليدة الرحمن ، ايتها التائهة في صحراء الله السابحة في بحور حلمها الاكبر الذي غابت عنّا أسراره . . .

أيتها الارض ! ؟ أنا من ضيوفك الذين القتهم في احضانك يد الحب القاهرة اتيتك باكياً وما جفّت دمعتي بعد . . .

اتيتك حائراً وما تزال فيّ حيرتي . . .

ورأيت الناس يموتون وأنت تفتحين بيدك أبواب لحودهم فدبّ الرعب في نفسي وجئتك مستجيراً استحلفك بمعجزاتك أن لا يكون نصيبي نصيب رفقائي فيطول بقائي الى أبد الآبدين . . وأنا انما احب الحياة في ظلالك والخلود في حماك لكي لا يقال انني ضيفك الذي اغتاله ترابك وانك تفتكين باللاجئين اليك المستدرّين كرمك ورضاك . . . ولكي أجاريك في سيرك الى يومك الاخير . . .

أحب ان أرافقك ايتها الارض الى نهاية الطريق الذي رسمته لك السماء وان أكون ثابتاً على مسرحك ثبات شمسك التي لا تنطفيء وقمرك الذي لا يموت ونجمتك التي لا تمل ولا تتوارى وينابيعك التي لا تجف وسنابلك التي لا تفنى . . .

احب أن لا أزول وفي رأسي فكرة واحدة وفي صدري عاطفة واحدة . .

أحب ان أبقى لأظلّ من البنائين فلا يهدم الفناء بنائي . . وأن اظل حيًّا لاستكشف اسرارك واسراري . . .

لقد رضيت بآلامك وشربت دموعك وهلل قلبي لجراحاتك فما انا نافر منك ولا أنا حانق عليك . . .

ليطل حبل شبابي وليأتني الهرم في الساعة الاخيرة قبل يومك الاخير . . .

احمليني على اجنحتك الى حيث تريدين ولكن بربّك لاتهيلي عليّ ترابك البليد ففي ذلك انتقام بليد انت اكبر من أن تتسلّحي به ايتها الارض الجبارة الشريفة الكريمة

إن بساطك فسيح جدًّا فلا تخافي أن لا اجد فيك مكاناً على توالي القرون . .

انا لك ايتها الارض . . انا لك على علاّتك فلا تطرديني من بيتك . . إن حقّ الضيافة مقدس ولا يطرد ضيوفه الا الوقح الزنيم . .

أقطاب الاسلام لاحداث الطلاب

عمرو بن العاص (١)

لحسن حسن على

— ١ —

يقول المؤرخون ان عمرو بن العاص داهية من دواهي العرب، والداهية: هو الرجل ذو الدهاء والفكر الناضج والعقل الممتاز، فاذا قلنا ان عمرو بن العاص داهية من دواهي العرب، فمعنى ذلك ان عمراً من أشد العرب دهاء، وأوسعهم حيلة وأوفرهم ذكاء، وأحدهم ذهناً

ونحن لن نتعرض لتاريخ عمرو بن العاص من مبدأ حياته الى منتهى اجله، فان ذلك امر يطول شرحه علينا وعليكم، وانما نريد ان نعرف كيف كان عمرو بن العاص داهية من دهاة العرب؟ وما هي الحقائق والوقائع والحوادث العملية والنظرية التي جعلت عمراً من دهاة العرب الممتازين

وُلد عمرو بن العاص في مكة، وكانت تسكن مكه قبيلة ضخمة تعرف بقريش، ولم تكن قريش في مكة ذات حكومة منظمة وقوانين موضوعة كشأن الحكومات المعروفة في عصرنا هذا، وانما كانت قريش منقسمةً الى عشائر وبطونٍ وأقسام يتولى كلُّ قسمٍ منها فرعاً من فروع الحكم، فكان منها جماعة يعرفون ببني الدار، وكانوا يتولون حمل الراية في وقت الحرب، وكان منها جماعة يعرفون ببني هاشم، وكانوا يتولون سدانة الكعبة، وسقاية الحجيج، وهؤلاء هم رهط النبي صلى الله عليه وسلم، وكان منها جماعة يعرفون ببني سهم، وكانوا يتولون القضاء والحكم فيما يقع بين الناس من الخصومات، وهؤلاء هم عشيرة عمرو بن العاص، ولا بدّ ان بني سهم هؤلاء كانوا على شيء كبير من الدهاء والذكاء، لان القاضي محتاج بحكم وظيفته الى عقل ذكي حاد حتى يعرف به موضع الحق من موضع الباطل، ولا بدَّ ان يكون ذا لباقة وحصافة ومقدرة على التصرف في الامور حتى يداري المحكوم عليه اذا كان ذا سطوة وشوكة ونفوذ، ولا سيما في هذا الزمان الغابر الذي لا يدين الاَّ للقوة

(١) من المحاضرات التي تلقى في بهو المحاضرات بمدرسة الجمالية الابتدائية الاميرية

وعلى هذا فبنو سهم أجداد عمرو بن العاص وآباؤه واهله وعشيرته كانوا ذوي ذكاء ودهاء بحكم مركزهم القضائي في قريش ، فلا عجب ان يأتي منهم عمرو بن العاص الذكي الداهية ، ومن يشابه آباءه وأجداده فما ظلم

ومما زاد هذا الذكاء حدة وهذا العقل نضوجاً واتساعاً ، ان عمرو بن العاص اشتغل منذ حداثتهِ بالتجارة ، فكان يذهب في رحلة الشتاء الى بلاد اليمن وبلاد الحبشة فيشتري من هذه الاقطار الطيب والجلود والعطور ، ثم يذهب بها في رحلة الصيف الى مصر وبلاد الشام ، فيبيعها هناك ، ويشتري من هذه الجهات الحنطة والمنسوجات والمصنوعات والزبيب ، وبلاد الشام حتى هذه الساعة مشهورة بالزبيب

ويقال ان اول رحلة قام بها عمرو بن العاص الى مصر ذات سبب عجيب ، وذلك انهُ خرج مرة مع جماعة من اصحابه الى تجارة في بيت المقدس ، فكانوا يحملون بضائعهم بالضرورة على الجمال ، وكانوا يسافرون من بلادهم الى بيت المقدس على الجمال ، فاتفقوا أن يخرجوا وهم في بيت المقدس الى الاسواق للبيع والشراء ويتخلف في كل يوم واحدٌ بالتناوب ليرعى هذه الجمال في المراعي بين الجبال ، وبينما عمرو بن العاص يرعى الجمال وسط الجبال ابصر شماساً مصريًّا : والشماس رجل لهُ وظيفة دينية صغيرة بالكنيسة . ابصر هذا الشماس وقد اجهده التعب ، وأضناه الحر وأهلكه الظمأ ، فلما رآه عمرو يكاد يموت من العطش اسعفهُ بقدح من الماء ، فأحيا بذلك مواته ، ولما انس بهِ الشماس نام بالقرب منهُ ، الاَّ ان الشر والنحس كان يلاحقه ، فقد خرجت حية كبيرة من جحرها واتجهت نحو هذا الشماس النائم لتفتك بهِ ، ولكن عمرو بن العاص شكها بسهم صائب فقتلها ، ولما استيقظ الشماس وعلم بذلك قام الى عمرو فشكره وقبل رأسه ، وقال لهُ لقد احياني الله بك مرتين : مرة من العطش ، ومرة من هذه الحية ، فلك اليوم عندي ديتان والدية الف دينار . ثم قال الشماس لعمرو ولكني الآن رجل غريب فقد سافرت من الاسكندرية الى هنا لاني قد نذرت لله ان اصلي في بيت المقدس وان اطوف في جبالها شهراً ، وقد وفيت نذري وانا الآن صفر الكف ويدي خالية من النقود ، فان اتيت معي الى مصر فلك عهد الله وميثاقه ان اعطيك الفي دينار جزاءً لك على ما فعلت ، فلما احس عمرو من كلام الشماس الصدق ووثق من كلامهِ ، استأذن من اصحابه وسافر معهُ الى الاسكندرية ، فأكرمهُ الشماس غاية الاكرام ، وألبسهُ ثوباً من الحرير ، وقدم لهُ المبلغ ، واتفق في ذلك الوقت ان اهل الاسكندرية كانوا يقومون باحتفال عظيم سنوي ، اذ يجتمع الحكام والعظماء ، والقواد في ميدان كبير ، ويتقاذفون بكرة مرصعة من الذهب ، ويتلقفونها بأكمامهم ، فاذا استقرت الكرة في كم واحد منهم فلا بدَّ ان يأتي عليهِ يوم يكون فيهِ حاكماً على مصر ، وبينما كان عمرو مع الشماس يشهد هذا

الاحتفال اذ بالكرة تهبط وتستقر في كم عمرو بن العاص ، فدهش الناس وتعجبوا وقالوا اذا كانت هذه الكرة قد صدقتنا في أيامها الماضيات ، فقد اخطأت هذه المرة خطأً ظاهراً . لانهم استبعدوا ان يكون هذا الفتى البدوي الصغير اميراً عليهم في مستقبل الايام

ولم يعرفوا انهُ عمرو بن العاص الفاتح العظيم الذي سيغزو بلادهم مرتين مرة قبل الاسلام ومرة في ايام علي

وعلى كل حال فان هذه الرحلات التجارية التي قام بها عمرو بن العاص في الجاهلية قد زادت ذكاءه حدة ، وعقله نضوجاً ، وامدته بكثير من التجارب والمعلومات ، لان اختلاطه بالاجناس الاجنبية ، واطلاعه على بلادهم واخلاقهم وعاداتهم امدهُ بكثير من الافكار والتجارب التي لم يكن ليتيسر لهُ أن يعرفها في بلاده

ولما اراد ان يتجر في بلاد الحبشة ركب البحر في سفن تجارية مع شريك يقال لهُ عمارة وقد ركبوا السفن ليعبروا البحر الاحمر ، ويصلوا الى الحبشة لدى الشاطىء الافريقي ولكن عمارة شريك عمرو كان رجلاً سفيهاً فاسد الاخلاق ، وكان مغرماً بالتحدث مع النساء ، فأراد مرة ان يتحدث مع زوجة عمرو ولكن المرأة احتقرتهُ ولم تحدثهُ اما عمرو بن العاص فقد اعتبر هذا من عمارة اهانة عظيمة لا بدّ ان ينتقم بسببها منهُ انتقاماً رادعاً ، ولكنهُ ماذا يفعل بعمارة وهما بين الماء والسماء . ايقذفهُ في البحر ؟ ايقتلهُ بالسيف ؟ إنهُ لو فعل ذلك لتقدمت اليهِ عشيرة عمارة بسيوفها لتقتلهُ حتى تأخذ بثأر عمارة ، فكأنهُ قد قتل نفسه حين قتل عمارة ، إذاً فليصبر عمرو ساتراً غيظه والايام وحدها هي التي تهيء لهُ الفرص المناسبة للانتقام من شريكه السفيه

ذهبا الى النجاشي في بلاد الحبشة فقدما اليهِ أحسن التجارة فاشترى منهما ثم اتجها الى الرعية فباعا واشتريا وكثر ربحهما وزاد مالهما ، ولكن عمارة شريك عمرو كانت اخلاقه السيئة تلازمه اينما حل ، فرأى زوجة النجاشي فحدثها فحدثتهُ ، وصار في كل يوم يذهب اليها ليحدثها ثم يأتي الى عمرو بن العاص فيخبره بذلك فيقول له عمرو ان هذا امر لا اصدقهُ واظن انك مبالغ في خبرك ، وان زوجة الملك لا تحدث امثالنا فيؤكد لهُ عمارة القول ، ويقسم له اغلظ الايمان انهُ يحدث زوجة النجاشي ، وهنا يضغط عمرو على اسنانه ونواجذه لانهُ وجد الفرصة السانحة للانتقام من عدوه ثم يقول له إذا اردت ان اصدقك فيما تدعي فاحضر لي شيئاً من بيت الملك مما لا يستعمله الاّ الملك ، فان فعلت عرفت انك حقيقة تدخل في بيت الملك ، فقال لهُ عمارة : ما اسهل هذا الامر عليَّ ، وما اهونهُ ، ثم انطلق الى زوجة الملك وحادثها كعادته ، ثم قال لها طيبيني من الدهن الذي يتعطر منه الملك ، فطيبتهُ ثم قال لها اعطني قارورة من هذا العطر حتى ادهن منها اذا كنت في الخارج ، فأعطتهُ قارورة من العطر ، فذهب عمارة وهو نافخ اوداجه

يتيه عجباً واختيالاً بما فعل ، ثم تقدم الى عمرو بن العاص وقال لهُ هذه ثيابي فشمها ، وهذه قارورة من العطر الذي لا يدهن بهِ الاَّ النجاشي خذها هدية مني اليك ، فقال له عمرو حقًّا انك تحدث زوجة الملك وقد اقررت لك بالمقدرة وحسن الحيلة

ولما انصرف عمرو من مجلسه ، ذهب الى النجاشي وقال له ايها الملك العظيم إنني أخشى ان يصلني سوء منك بسبب شريكي العربي فقال لهُ النجاشي وما سبب ذلك ، فقال عمرو إن عمارة شريكي رجل سفيه شرير ، وكثيراً ما اخبرني انهُ يذهب الى زوجة الملك ويتحدث معها ، ولكني في بادىء الامر لم اصدق دعواه ، فلما احضر لي من الملكة قارورة العطر الذي لا يدهن منهُ الاَّ الملك أيقنت من الخبر ، وجئت اليك متبرئاً من عمله ، وهذه هي قارورة العطر ، فلما رآها النجاشي غضب غضباً شديداً ، واتى بعمارة فشم في اثوابه رائحة العطر فأراد ان ينتقم منهُ انتقاماً مرًّا أليماً فماذا يفعل بهِ . انهُ افسد لهُ بعض اعضائه وهو حي ، واتلف لهُ هذه الاعضاء إتلافاً تامًّا ، وكان جزاؤه من جنس العمل

وهكذا انتقم عمرو بن العاص من خصمه انتقاماً مرًّا أليماً من غير ان يلقيه في البحر او يقتله بالسيف او يعرض نفسه للقتل ، وهكذا ألقى على عمارة درساً قاسياً في الاخلاق لم ينسه طول حياته ، وهكذا استطاع عمرو ان يصرع خصمه بحيلتهِ ومقدرته وذكائه

ولما هزم الله الاحزاب في غزوة الخندق ، وسلط عليهم ريحاً عاصفة قوضت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وتفرقوا الى بلادهم ، فكر عمرو بن العاص في هذا الامر فأدرك ان النبي صلى الله عليهِ وسلم ، لا بد ان ينتقم من قريش ، ولا بد ان تجازيها حرباً بحرب ، وتكهن بفتح مكة قبل ان يدخلها النبي بأزمنة طويلة ، فقال في نفسه اذا وقعت هذه الحرب ، وانتصر محمد على قريش فلا بد ان يرد عزيزها ذليلاً ، فلأَذهبنَّ الى النجاشي في الحبشة فان انتصر محمد فأنا بمنجاة من الشر ، وإن انتصرت قريش فليس لي عند قومي الاَّ الخير

ثم اخذ هدية الى النجاشي وقدمها اليهِ ، فتقبلها قبولاً حسناً ، ولكن عمرو وجد عند النجاشي رجلاً من اصحاب النبي فحدثهُ في شأنه فقال لهُ النجاشي ان هذا الرجل آت من النبي الذي تنزل عليهِ الملائكة ويأتيه الوحي وإن دينه لحق ، وهنا تغير رأي عمرو تغييراً تامًّا لانهُ تمكن بعقله النافذ ان يخترق الحجب ويسابق التاريخ ويستشف المستقبل من وراء حجاب فقال في نفسه إذا كان هذا الدين على حداثة عهده قد آمنت بهِ الملوك فضلاً عن الرعية ، وإذا كان قد وصل الى البلاد الخارجية فضلاً عن جزيرة العرب ، فلا بد ان يعم هذا الدين البلاد العربية ولا بد ان يدين اهل مكة طوعاً او كرهاً فبدلاً من ان ادخل هذا الدين كارهاً فلا بد من ان ادخل طائعاً ، وعليَّ ان اسرع في ذلك حتى اكون من السابقين ، ثم انقلب عمرو راجعاً الى

بلاد الحجاز لم يرجع عمرو الى مكة مقر عشيرته ، وانما رجع الى النبي فأسلم على يديهِ وحسن إسلامه

وهكذا لم يسلم عمرو كما اسلم غيره من العرب بل اسلم بعد موازنات شتى ، وبحوث مستفيضة ، ومقارنات ذهنية كشفت لهُ ما يكنهُ مستقبل الاسلام الباهر . ولما ارسله ابو بكر رضي الله عنهُ على رأس جيش من الجيوش الاربعة لفتح بلاد الشام اشتغل في هذه الحروب بهمة ونشاط ، ولما توفي ابو بكر رضي الله عنهُ رأى عمر بن الخطاب ان على فلسطين قائداً من الروم لم يسمع الناس بمثله في الدهاء والمكر وسعة الحيلة ، وكان يقال له ارطبون ، وكان ارطبون في الروم بمنزلة عمرو بن العاص في العرب فامر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص ان يتجه الى فلسطين ليحارب ارطبون ، وقال : رمينا ارطبون الروم بأرطبون العرب ، فلننظر عمَّ تنفرج . ومعنى ذلك اننا ارسلنا الرجل الماكر من العرب ليحارب الرجل الماكر من الروم وسننظر ايغلب ماكر الروم ام ماكر العرب

***

اما عمرو بن العاص فقد وجد ان ارطبون قد وضع لفلسطين خطة حربية محكمة ومن الصعب ان يتغلب عليها اي قائد حربي ، وذلك انهُ عسكر بجيش كثيف في مدينة اجنادين مركز فلسطين وجعل في كل مدينة حامية قوية تدافع عنها اذا هاجمها العدو ، وانشأ بين هذه البلاد مراسلات سريعة ، بحيث اذا اغار العدو على اية مدينة ففي الحال ينتقل الخبر بهذه المراسلات السريعة ، ويتوالى ورود المدد على المدينة المحصورة ، فيصبح الجيش المهاجم بين قوة المدينة الاصلية ، وبين الامدادات المتوالية ، فتحل بهِ الخسارة ، وبهذه الخطة الحربية المحكمة تمكن الارطبون من الوقوف امام المسلمين وصدهم مدة طويلة

ولكن عمرو بن العاص لا بدّ ان يفسد على الارطبون خطته فماذا يفعل ، انهُ اتى بفصائل خفيفة قليلة العدد هي اشبه بالعصابات ، وسلط على كل مدينة فصيلة من هؤلاءِ الجند ليغيروا عليها حتى يشغلها امرها عن غيرها ، لانها تعرف انها لو ذهبت جنودها لنجدة غيرها ، فان الاعداء الذين يهاجمونها لا بدّ ان يحتلوها في الحال ، وبذلك تمكن عمرو بهذه الفصائل من ان يشغل كل مدينة بنفسها ، ثم تفرغ هو لمقارعة ارطبون في اجنادين ، ولكنهُ تقدّم اليهِ حذراً متوجساً محترساً ، لانهُ لا يحارب قائداً عاديًا ، وانما يحارب داهية الروم

فأرسل اليهِ رسولاً يتظاهر بأنهُ يريد ان يفاوضه في شروط الصلح والحرب ، وامره عمرو ان يتفقد القلاع ، ويعرف شكل الحصون ، ووسائل الدفاع ، ونظام الجيش ، ولكن

ارطبون داهية الروم اخفى عن الرسول كل امر وفطن الى مهمتهِ الحقيقية ، فأرسل عمرو رسولاً ثانياً وثالثاً فلم يهتد احدهم الى شيء ، فعزم عمرو ان يذهب بنفسه ليتفقد جيش عدوه وحصونه فتنكر في زي رسول من الرسل ، فاراد ارطبون ان يخفي على عمرو كل شيء كما فعل مع الرسل السابقين

ولكن عمرو بن العاص ما زال يحاوره ويداوره ، ويقوده الى موقع الحصون حتى يطبق شروط الصلح على طبيعة المدينة ، وما زال يجره من موضع الى موضع وهو يجوس خلال الجنود ، ويطلع على اسرار الجيش حتى اهتدى الى معرفة كل شيء . ولكن هل تظنون ان الارطبون رجل أبله انهُ تفرس في هذا الذكاء ، وهذه السياسة ، وهذه القدرة فجزم بان الذي يحدثهُ اما ان يكون عمرو بن العاص ذاته ، واما ان يكون المشيرَ الذي يشير على عمرو في الامور ، فيأخذُ عمرو برأيهِ

وقد وجد ان الفرصة سانحة للتخلص من عدو خطر عظيم المكر والدهاء ، فاشار الى احد اتباعه ان يكمن مع جماعة لهذا الرجل في الطريق اثناء رجوعه ، فاذا مرّ عليهم قتلوه ، اما عمرو ابن العاص فقد عرف كل شيء وادرك انهُ وقع في الشرك ، وانهُ لا محالة مقتول

***

اين حيلتك واين فطنتك يا عمرو ان بينك وبين القتل ان تسير في الطريق الى جيشك ، ولكن عمراً في اقل من لمح البصر يأتي بالخدعة المدهشة ، يخاطب الارطبون في هدوء وثبات ويقول ايها الارطبون إنني اصارحك القول وأعلمك انني مع تسعة من العرب اصحاب الرأي والمشورة في هذا الجيش العربي الذي امامك ، وان عمراً لا يعمل شيئاً إلاَّ اذا وافقنا عليهِ ، وقد سمعت حديثك ، وعرفت شروطك ، وفهمت رأيك ، وسأذهب الى اصحابي فآتي بهم جميعاً ، وسيسمعون حديثك بآذانهم ، ويرون شروطك بانفسهم ، فان وافقوا عليها فقد وافق عمرو بن العاص ، لانهُ لا يعمل إلاَّ برأينا ، فطمع الارطبون ان يقتل عشرة من اصحاب الرأي ، وفضل ذلك على ان يقتل هذا الرجل الذكي في الوقت والساعة ، وفي الحال ارسل الى الكمين الذي رصده في الطريق ان يخلي سبيل الرجل إذا مرَّ بهِ

ولما مضت الايام ولم يعد الرسل ، وعرف الارطبون خدعة عمرو قال خدعني عمرو هذا ادهى العالم اجمع ، ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال غلبهُ عمرو ولله عمرو . أما عمرو بن العاص فانهُ درس حصون الروم واسرار الجيش ، ثم فاجأ الارطبون واتاه من العورات وتمكن من التغلب عليهِ ومن فتح اجنادين وبقية بلاد فلسطين

« للبحث تتمة »

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطى

— ٢٠ —

الإِجّاص العاديّ (١)

ويقال له في بلاد الجزائر (العين) وفي مصر وبلاد المغرب (البَرْقُوق) وفي الشام (الخَوْخ) ترتفع شجرته الى ٢٠ قدماً او اكثر وهي من النوع المتساقط الورق غير شائك الفروع ورقتها بيضية الشكل أو إهليلجية ملساء من وجهها العلوي وعلى وجهها السفلي شعيرات دقاق مسننة الحافة خشنتها أزهارها بيض تخرج عقب الاوراق أو معها . ثمرتها كرية الشكل جلدتها مختلفة اللون لحمها اصفر ونواتها اما لاصقة بهِ او منفصلة

اسمها العلمي (Prunus domestica, L.) (برونس دومستيقا) من الفصيلة الوردية وبالانجليزية (damson-tree, prune-tree, common plum-tree)

وبالفرنسية (prunier cultivée, prunier domestique) اصل موطنها بين البحر الاسود الى غرب الصين ولا سيما جبال القوقاز وآسيا الصغرى ويعتبرها علماء النبات اصلاً لما غرس منذ ٢٠٠٠ سنة في بلدان حوض البحر المتوسط ونتج عنهُ الاصناف الحالية الكثيرة التي بلغت زهاء ١٠٠ صنف في فرنسا وانجلترا و٩٥٠ صنفاً في الولايات المتحدة من اميركا وأشهرها جميعاً :

(١) الاجّاص الابيض ويقال له (الشاهلوج) بالفارسية وبالانجليزية (green-gage plum) وبالفرنسية (prune reine claude) معروف في اوربا وأميركا للاكل فاكهة ويمتاز عن اي صنف آخر بطعمهِ اللذيذ ثمرته متوسطة الحجم كرية الشكل خضراء او ذهبية

---

(١) يذهب كثير من علماء النبات الى ان انواع شجر الاجاص الآتية انما هي نوع واحد وهي شجر الاجاص العادي المذكور وشجر اجاص ابن آوى واسمه العلمي (prunus spinosa) وبالانجليزية (sloe tree, black thorn) وبالفرنسية (épine noire, prunellier, prunier épineux) وشجر الاجاص البري واسمه العلمي (Prunus insititia) وبالانجليزية (bullace-tree) وبالفرنسية (prunier sauvage)

(٢) الاجّاص الاسود ويقال له (عُيُون البَقَر)[١] واسمهُ بالانجليزية (damson) وبالفرنسية (prune de Damas) ثمرتهُ كبيرة الحجم بيضية الشكل مفلطحة على نوع ما جلدتها زرقاء أو ارجوانية ولحمها متماسك اخضر أو اصفر أو ذهبيّ وهو صنف متى كان فيهِ مقدار كبير من السكر صار صالحاً للتجفيف فتصنع منهُ (القراصيا)[٢] المعروفة المستعملة مطبوخة وقديماً كانت ترد القراصيا الجيدة من دمشق أما الآن فمن فرنسا

وخشب شجر الاجاص مرغوب فيهِ لصنع الآلات الموسيقية وله استعمال في الخراطة الممتازة والقلف من سوقه يدخل في الصباغة باللون الاصفر

الإحْرِيض أو العُصْفُر

ويقال لهُ (الزّعفران الكاذب) و (قِرْطِم الصبّاغين)

عشب يرتفع الى ثلاث أقدام جميل المنظر يزرع سنويًا ساقه ملساء وورقته بيضية الشكل ذات حافة شائكة ونورته برتقالية اللون وثمرته عريانة في اصطلاح النباتيين

اسمهُ العلمي (carthamus tinctorius L.) (قارثاموس تنقتوريوس)[٣] وفصيلته المركبة وبالانجليزية (officinal carthamus, safflower) وبالفرنسية (carthame, safran bâtarad)

موطنهُ الاصلي مصر ممتد الى الهند والآن يزرع في كثير من الجهات في أوربا والشرق وتصدر من ازهاره مقادير عظيمة الى انجلترا للصباغة والتلوين اذ يحصل منها على صبغ يتفاوت لونه من اصفر الى ورديّ الى غير ذلك حسبما يمزج بهِ من مواد ، والعنصران الفعّالان في هذا الصبغ هما القارثامين (carthamin) والقارثاموس الاصفر (carthamus-yellow) والصينيون يستعملون زهرات الاحريض لصبغ الحرير باللون الورديّ الجميل والقرمزي والارجواني والبنفسجي وذلك بوضعها في منقوع بعض القلويات وتركها حتى تلين ثم يستخرجون الاصباغ منها باضافة عصير الليمون او اي حامض نباتي آخر بنسب منوعة . ويزرع الاحريض في اسبانيا في الحدائق كما يزرع القُوقحان[٤] في انجلترا وتستعمل ازهاره في تلوين الحساء (الشوربة) والزيتون وبعض المواد الغذائية الاخرى ولليهود في بولندا رغبة في هذه الازهار فيضيفون

---

(١) وقيل ان عيون البقر ضرب من عنب الشام . قال ابو حنيفة : هو عنب اسود ليس بالحالك عظام الحب مدحرج يزبب وليس بصادق الحلاوة

(٢) وفي بلاد الجزائر يقال للكريز عندنا (قراسيا) و (جراسيا) و (حب الملوك) وهو غير هذا الصنف من الاجاص واسمه بالانجليزية (Cherry) وبالفرنسية (Cerise)

(٣) قيل ان (قارثاموس) اشتق من قرطم اسم النبات بالعربية وان معناه يصبغ لما تنتجه الازهار من صبغ جميل

(٤) واسمه العلمي (Calendula officinalis, L. : قالندولا اوفيسينا ليس) وبالانجليزية (marigold) وبالفرنسية (Souci ou calende)

بعضاً منها الى خبزهم ومعظم لحوم غذائهم . وفي الهند يزرع الاحريض من اجل تلك الازهار ومن اجل زيته فيحصل عليه باعتصار الحبّ المعروف بالقرطم هذا ويقال ان الفراخ الرومية والاوز ترغب في اكله كثيراً فتسمن به جدًّا

آمِليلِس

ضرب من الشجر يقال له في بلاد الجزائر (الصفيرا) وفي الشام (النبق المترادف) او (الزَفْرين) ذكره ابن البيطار[١] في مفرداته وقال انهُ اسم بربري في بلاد المغرب الاقصى ترتفع الشجيرة منهُ الى ٢٠ قدماً او اكثر اوراقها اهليلجية الشكل منشارية الحافة حادة القمة منفرجة القاعدة وازهارها خضر متساقطة

اسمها العلمي (Rhamnus Alaternus, L.) .(رامنوس الاترنوس) وفصيلتها العُنّابية او النَّبِقيَّة (Rhamnaceae) (رامناسية) وبالانجليزية (broad-leaved alaternus) وبالفرنسية (alaterne) موطنها بلدان حوض البحر المتوسط وهي دائمة الاخضرار سريعة النمو ولذلك تغرس سياجاً للزينة ولكون زهراتها رحيقية كثيراً ما ترد اليها النحل للتغذي بهِ

الأَنْبرار او الزَّرِشْك العادي

اسمان فارسيان يطلقان على شجيرة تعرف (بامير باريس) و(بَربَريس) كما جاء في مفردات ابن البيطار وغيره

ترتفع الى ثمان اقدام أوراقها من النوع المتساقط خضر تضرب الى الصفرة او الزرقة بيضية الشكل مسننة الحافة ازهارها صفر مجتمعة في نورات عنقودية بسيطة متدلية رائحتها غير مقبولة عن قرب ولكنها مقبولة عن بعد تألفها اصناف مختلفة من الحشرات وثمارها عنبية شديدة الحموضة لا تمسها الطيور الا نادراً حمراء او ارجوانية او صفراء فاتحة

اسمها العلمي (Berberis vulgaris L.) (بربريس ولغاريس) وفصيلتها البربريسية او الزرشكية (Berberidaceae) (بربريداسية)

وبالانجليزية (common barberry or berberry-bush, peperidge-bush)

وبالفرنسية (épine-aigrette, épine-vinette, épine vulgaire,) شائعة في اوربا تغرس

(١) هو ابو محمد ضياء الدين عبد الله بن احمد المالقي الاندلسي الطبيب عرف بابن البيطار وبالنباتي صاحب كتاب الادوية المفردة لم يصنف مثله ويعرف بمفردات ابن البيطار نقل الى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٧٧ و ١٨٨١ و ١٨٨٣ ميلادية في ثلاثة مجلدات محفوظة بدار الكتب المصرية واليه انتهت معرفة النبات وتحقيقه واسمائه وأما كنه سافر الى اقصى بلاد الروم وأخذ فن النبات عن جماعة وكان ذكياً فطناً وله ايضا كتاب المغني في الطب وغير ذلك توفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ

سياجاً للزينة لجمال منظرها مزهرة في الربيع ومثمرة في الخريف وهذه الثمار اما تحفظ في الخل لتؤكل كامخاً وإما تغلى مع السكر لصنع شراب او فالوذج لذيذ الطعم وإما تصنع منها حلوى مسكرة بمفردها او مع الاجّاص او فاكهة اخرى او يتداوى بها قابضة لطيفة ملائمة للمعدة او لتأثيرها الفعّال في الاضطرابات الصفراوية الى غير ذلك

وتدخل الجذور اذا غليت في محلول قلوي من الصودة او البوتاسة في الصباغة باللون الاصفر وفي بولندا يدخل القلف من الجذور في صباغة الجلد باللون الاصفر الجميل كما يدخل القلف الداخلي من السوق مع الشّب المعروف في صباغة الانسجة الكتانية باللون الاصفر الجميل.ويقال ان البقر والغنم والماعز ترغب في الاكل من هذه الشجيرة على خلاف الخيل والخنازير هذا ولا يفوتني هنا ان اذكر علاقة الأثرار العادي بالمرض المعروف عند النباتيين بالصدأ الاسود الذي يوجد على القمح والنباتات النجيلية الاخرى ذلك لان الفُطر المسمى (Puccinia graminis) (بكسينيا غرامينيس) او (Aeciduim berberidis) (ايسيديوم بربريديس) يقطع طورين متبادلين تتم بهما حياته طوراً على نبات القمح او غيره من النجيليات وآخر على الأثرار العادي بحيث اذا لم توجد شجيرات اثرار عادية في منطقة ما كان ذلك في الغالب عاملاً مهمًّا في عدم اصابة القمح وغيره من النجيليات بالصدأ الاسود

آكُنَّار

اسم بربري لنبات (جَوْز الارض) أو (جَوْز أرْقَم) وهو الذي يقال لهُ في برقة وبلاد القيروان (تَلغُوطة) كما جاء في مفردات ابن البيطار نبات درني الجذر معمّر ينبت بريًّا الى ارتفاع قدمين أوراقه منتظمة وأزهاره بيض

اسمهُ العلمي (Carum Bulbocastanum, Koch·) (قاروم بولبوقاستانوم) أو (Bunium Bublocastanum, W.) (بونيوم بولبوقاستانوم)[1] وفصيلتهُ الصيوانية او الخيمية وبالانجليزية (grat earth-nut) وبالفرنسية (bunion bulleux, noix de terre, terre-noix) موطنهُ وسط اوربا وجنوبها وشمال افريقية ووسط آسيا الى بلاد كشمير كثير الوجود في تربة الارض الجيرية المزروعة حتى ما ارتفع منها الى ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر

ينتفع بجذوره الدرنية (جوزاته) يحفر عليها الفقراء ويأكلونها نيئة او مطهية لاحتوائها على نوع من الدقيق وما فيها من حلاوة الطعم ولذا يقال انها مغذية جدًّا وقد تطهى اوراق هذا النبات للاكل ايضاً وثماره تستعمل من ضمن الابازير

(١) اشتق اسم (بونيوم) من كلمة (فنيوس) اليونانية ومعناها تل ذلك لان هذا النبات تلائمه المواقع الجافة المرتفعة

حديقة المقتطف

ابولون ودفني

من أساطير الادب اليوناني

رباعيات الغزالي

للشاعر الفرنسي جان لاهور

الحب الصوفي — عاطفة الاستسلام

نقلها خليل هنداوي

Orientalisches Seminar Freiburg i.Br.

ابولو ودفني

ابولون ودفنى

كانت « دفني » أول من أحبَّ « أپولون » . على ان هذا الحب لم يأت عفو الحوادث ، وانما كان نكاية من « كوپيدوس » وكيداً ، استطاع بهِ آلـه الحب الصغير ، أن ينتقم لنفسهِ من ابن « زفس » ، بل من آلـه من اكبر الآلهة الذين عرفهم المقام الاولمبي

فقد رأى « أپولون » الصبي « كوپيدوس » يلعب بقوسه وسهامه . وكان « أپولون » قد انتصر في ذلك الوقت على « فوثون » وما زالت نشوة الانتصار تتأجج في صدره ، وتضطرم سورتها في قلبه ، فراح تياهاً فخوراً . فلما رأى الصبي في لهوه ، اكبر منهُ أمر اللعب بالقوس والسهام وقال له :

« مالك ولآلات الحرب ، وما أنت صانع بها ؟ انما يجب عليك ان تتركها للأيدي التي تحسن حملها ، وللأبطال الذين يعرفون كيف يحمونها ! أيها الصبي الناشيء . اترك هذه الآلات للذين هم معتادون ان يقتحموا بها المعارك ويشقون بها طريقهم إلى النصر . انظر الى النصر الذي توجت بهِ جبيني ، والى الفتح العظيم الذي نلتهُ بانتصاري على الحية « فوثون » ، وكانت قد نشرَت جسمها السام على ما شئت من فضاء الارض . ألا فاقنع أيها الصبي بمشعلك فأوقده وأرسل لظاه ووجه ألسنته الى حيث شئت ، ولـكن حذار أن تتخذ من أسلحتي ألهـُوَّة تتلهى بها »

فلما سمع ابن « فينوس » هذا الـكلام التفت الى الآلـه الـكبير وقال له :

« ان سهامك قد تصيب حيث شئت ان تصيب بها ، ولـكن سهامي سوف تصيبك في الصميم »

وما أن فاه بهذه الكلمات ، حتى اعتلى صخرة من صخور « فَرْناسوس » ، واستلَّ من جعبتهِ سهمين ، كلاًّ منهما مختلفاً عن الآخر ، فأحدهما يثير الحب ، والثاني يقمعهُ . وكان الاول مصنوعاً من الذهب حديدَ السنان ماضي الطعن ، أما الثاني فكان كليل الحد مطلوًّا بطبقة من الرصاص ، وبهِ طعن الحورية « دَفني » ابنة « پنيوس » الَـه النهر ، وبالسهم الذهبي رشق « أپولون » فشكَّ فؤاده

وكأنما ذلك السهم الذهبي كان لهيباً أضرم في قلب « أپولون » لظى الحب ، فراح يهيم « بدفني » هياماً ويغرم بها غراماً . كان في قلب « دفني » من البغض لهُ والاشفاق منهُ ما يعادلهُ ويزيد . وانما كان لهذه الحورية الجميلة غراماً بالحراج والغابات الملتفة ، وبالالعاب التي تجد في سكون تلك الغابات متسعاً لها ومجالاً يكفيها . وقد تبعها كثير من المحبين ، وتعقبها عديد من المغرمين بها ، فأقصتهم عنها ونفرت منهم نفوراً ، ومضت تجول في الغابات متنقلة في فضائها وتحت خمائلها ، كأنها شعاع الشمس المضيئة في غيهب من الليل البهيم . ولم تفكر في « كوپيدوس » ولا في سهامه التي يصيب بها القلوب ويضرم بها الاحشاء

أما أبوها فكثيراً ما نهاها عما كانت فيهِ ، فلم تنته ، ونصحها فلم ترعو . وذات يوم أقبل اليها يحدثها بلين ورفق قائلاً « يا بنتي : ان لي في عنقك حفيداً ، بل حفدة » . ولكنها كانت ترى ان الزواج جريمة كبرى ، بل معصية عظمى ، فاحمر وجهها الجميل خجلاً ، وألقت بذراعيها حول عنق أبيها قائلة . « يا أبي العزيز : هبني الهبة التي أطلبها ، هبني الحرية في أن اظل عذراء ، وان أبقى بغير زوج ، كما بقيت « ديانا » ! فلم يسعهُ الاَّ الرضوخ لمشيئتها ، وانصرف عنها وهو يتمتم : « ان وجهك يأبى ان تظلي كما تريدين »

كان « أپولون » قد أحبها ، ورغب في ان تكون لهُ . غير ان « أپولون » ، ذاك الذي كان يقسم الحظوظ على الدنيا بأسرها ، قد أنس العجز في ان يصرّف حظّ نفسه ، وان يسعدَ بأمنية قلبه . ولقد رأى ذات يوم شعرها الفاتن مرسلاً من فوق كتفيها الجميلتين فأهاب بها . « اذا كان هذا مقدار ما في جمال شعرك مُرْسلاً ،

فكيف بهِ اذا تعهدته اليد الصناع ، فأضفى عليهِ الفن جمالاً فوق جمال ؟ » . ورأى في عينيها بريق النجم المؤتلق ، ورأى شفتيها الفاتنتين ، ولم يقو على ان يقنع بمرآها . ولقد جنَّ بيديها المسوَّاتين ، وذراعيها اللتين اتخذهما الفن مثالاً ينسج عليهِ ، وكتفيها العاريتين البضَّتين ، ولقد خيل اليهِ أن ما احتجب عن ناظريهِ من جسمها كان أوفى جمالاً ، وأعظم فتنة مما ظهر فيهِ .

وتعقبها « أپولون » . وهربت « دفني » ، فكانت أسرع من الريح ، وأعجل من السهم الضال ، ولم تثن عن التنقل فزعة خائفة لتستمع الى شيء من توسلاته — « قفي يا ابنة « بنيوس » ، فلست عدوًّا ولا منتقماً جباراً . لا تفرّي مني فرار الشاة من الذئب ، او فرار الحمامة من الباشق . انما اتبعك مسوقاً للحب . ان بعدك يتعسني ، وفرارك يؤلمني ، حذار ان تزل قدمك فيصيبك من هذه الصخور أذًى . أتوسل اليك ان تكوني في فرارك اكثر تريثاً وأقل سرعة ، وأنا اعدك ان اكون في طرادي كما تكونين في فرارك . ان أبي «المشتري» ، وأنا سيد دِلفوس وتندوس . اني عليم بكل الاشياء ، شهادة وغيباً . اني الٓـه الاغنية والايقاع . ان سهامي لن تخطىء الغرض . وأسفاه ! فان سهماً أشد من سهامي فتكاً وأنفذ فعلاً ، اخترق قلبي . انا الٓـه الطب الذي يعرف خصائص جميع العقاقير الشافية . ولكني أشكو مرضاً تعجز جميع البلاسم عن ان تبرئه »

***

غير ان الحورية كانت تتابع الفرار ، تاركة توسلاته الى الرياح ، تتولاها بالشتات والتبديد . على ان فرارها كان مبعث اعجاب في قلب « أپولون » . فقد كان الهواء يعبث بفضل ثيابها ، وينشر شعرها الجميل مرسلاً من ورائها . غير ان الالٓـه ذهب صبره وقلت حيلته في اغرائها بالتوسل وشفاعة الحب ، فأسرع الخطى ، مسوقاً بسهام « كوبيدوس » ، ليلحق بها ويقطع عليها شوط الفرار الدائم . فتبعها كما يتبع السلوقي فريسته ، فاتحاً ذراعيهِ ، فاغراً فاه ، مبدياً نواجذه ، والفريسة الضعيفة جادة في الهرب ، مطلقة للريح ساقيها ، تطلب النجاة . وعلى هذه الصورة كان الالٓـه يتبع

الحورية الربانية—هو يطير وراءها ، على أجنحة الحب ، وهي تفر منهُ على اجنحة الخوف والاشفاق

ولاحت بداية المنتهى ، لمَّا ان ادركها « ابولون » ، ولحق بها فكانت أنفاسه في ظهرها ، ثم مدَّ يده فكانت في قبضتهِ . وتراخت مفاصلها ، وانحلت قواها ، فترنحت وكادت تسقط على الارض إعياء ورعباً ، ولكنها وجدت بقية من قوة اليأس فصاحت بأبيها — « أدركني يا بنيوس ! افتح الارض لتنشق فتبتلعني ، ثم تسوَّى عليَّ ! او فغيّر هيأتي التي كانت سبباً في ان أقع فريسة هذا العدوان »

ولم تكد تتم صيحتها حتى يبست مفاصلها ، وانقلب صدرها الى جذع شجرة كبيرة يكسوه لحاء خشن كثيف ، وتطوّر شعرها فأصبح اوراقاً ، وذراعاها فصارتا أغصاناً ، وغاصت رجلاها في الارض فأصبحت جذوراً وشُعَيْرَات ، وتحول وجهها الى قمة شجرة ، فلم يصبح فيهِ من شيء مما كان ، اللهمّ الاّ مسحة من الجمال تذكر من يشهدها بجمال من كانت قبل ان تنقلب ذلك الانقلاب السحري ، فتصير شجرة .

ووجم « أبولون » ، ينظر بتعجب فيما يرى . ولمس الجذع بيده . وأراد ان يتحقق الامر ، فلمس الاوراق بفمهِ ، فكانت نباتاً لا أثر للحيوانية فيهِ ، بل تذوق فيها طعم نبات لم يعهده . وتفرس الشجرة ساعة ثم مضى يهمس بكلمات خافتة :

« أما وقد فاتني ان تكوني لي زوجة ، فلن يفوتني ان تكوني شجرتي . سأتخذ منك إكليلاً ألبسهُ فوق رأسي . سأجمل بكِ قيثارتي وجعبة سهامي . فاذا جاء الوقت الذي سوف يقود فيهِ ابطال الرومان جحافلهم قافلين الى الوطن أثر انتصاراتهم التي سوف يشهدونها ، فهنالك يعقد من اغصانك اكاليل تتوج رؤوسهم . وكما اني قد خصصت بهبة الشباب الابدي ، فكذلك ستكون اوراقك دائمة الاخضرار ، فلا تجزني ولا تكون هشيماً . انت يا شجرة الغار » .

الحب الصوفي

٤ — عاطفة الاستسلام

ايها القلب المريض الذي اقتنع بجمال المرأة
ابحث هنالك — في مكان أبعد
وضع امانيّك ومسراتك في مثل اسمى
وناشد الطبيعة الكاملة ان تمنح نفسك
حبّاً اوسع آفاقاً ، يليق برغابك

لتبدأ حياة حبيبة جديدة في نفسك
مكثرة فيك الفرح والشقاء .
وانظر الى الانسانية كأنها كونك الواسع
واجعل لنفسك آماله وسكره ودموعه !

في هدوء الحواس وصفائها
يعرف العاقل ان يزدري التأثير القبيح الذي يحمله الينا الجمال المروّع
بواسطة الاتحاد الصافي للالوان والخطوط .

حارب بدون أمل ولا سأم من نفسك ،
واقفاً كل كيانك على بلوغ المثل الاعلى .
واذا ما غُلبت على أمرك فصن دائماً لون الكبرياء في عينيك
لانك تعمل عملاً مقدساً ، وتحل محل الآلهة .

اربعون مثل سليمان حكموا طوراً بعد طور
— قبل ان يولد آدم — على جماعات لاعدد لها تجهل كل حب .
كانت تلك العصور يغمرها ظل من الابد الكثيف البعيد .

ثم ظهرت ذرية آدم نافضة عنها كثيراً من الوحشية الاولى

ولكن الغريزة الحيوانية لا تزال تجري في عروقها .
طينتها حالت تراباً ، ثم أصبحت سامية ، فخلقت آلهتها .

على أنها تفوقت بقوتها وعظمتها على الاجداد
برغم جبلتها المخلوقة من طين ، وعدمها المماثل لها .
فلتكن يوماً اهلاً لتكون خليفةً في الكائنات ،
ولتبدع نفسها على صورة آلهتها الطاهرين

العاقل يبصر ان قابيل مع هابيل ،
والفضيلة مع الرذيلة يخرجان من نبعة واحدة .
والعاقل — على عجبهِ بهذا السر المبهم —
— وعلى رغم دنس الوجود — يظل قلبه نقيًّا .

ألا اين الراحة ؟ وكل شمس من هذه الشموس السابحة في الفضاء
يسوقها ترنح أزلي ،
وهذه الاعاصير من حب وقوة وصفاء
تتدحرج غارسة الحياة حيث تنحط زوابعها.

الهواء والماء ، الصخر الصلد والكائن الفائض بالحياة
النبات والحيوان انما هي ابخرة متجمدة .
ولكن من أين فاضت النفس فينا ؟
ومن أين اقبلت افكارنا الينا ؟
أكانت أبخرة الشمس تفكر من قبل ؟

ان رابطة الشفقة تربطك بكل الاشياء
انها رابطة الهية سريعة العطب لا ينبغي ان تقطعها
فاعذر الخطيئة وتفهم اسبابها
ولتحمل نفسك قبلة العطف الى المحزونين

ان من يضحي بحياتهِ الضيقة الحدود ،

ويعرف الموت في سبيل ملكوت الوجود
هو السلطان الذي أغبطه

ومن يتقبل الألم ليجعل حبه اكثر عنفاً وقوة ،
وينتصر على سر الحياة وهو محب سعيد .

ذهولك في الموت أغبطك عليهِ دائماً ،
ايها المؤمنون المراعون للحب حتى العذاب
ويا من تعرفون تذوق اللذات المرة
لتكونوا شهداء حبكم .

امزج نفسك المتأثرة بالكون
وتابع الحياة في كل مكان ، في اعماق الهوات السحيقة
او الحياة المضيئة الصافية الهادئة على رؤوس القمم
ثم اسقط هادئاً نشيطاً في « العمل » !

اعز الفقير — ملك الفقراء !
الذي يستميح قوته
ولكن نفسه المحبة مشعلة من نار !
هنالك توّابون شبيهون بالأسود .
وتوّابون يشبه غضبهم غضب الكون وتمرده
وتوّابون ترتجف امامهم الملوك

ماذا تستطيع ان تتمنى ايها القلب الاكبر من الوجود
شيئاً غير الحب ، وغير الجنون فيهِ ، وغير مؤازرتك بدون نهاية للشقاء الذي يدوي ، شقاء من في نفوسهم ظمأ
وفي اجسادهم جوع

إذا كان الملكوت الحقيقي هو في المعرفة ،
واذا كان العاقل متدرعاً بمثل هذه القوة ،

سيداً على نفسهِ وسيداً على الاشياء ،
فان الـكنز الحقيقي الرائع هو في افئدة العاشقين ،

ينبغي لهُ ان يعطي عينيهِ ، ويجود بنفسهِ ،
ويودع شفتيهِ ويسمح بدمه وهواه وناره ،
ويعطي نفسهُ كلها كما تفعل الشمس
قبل ان يغرق في النعاس الأزلي

الصوفي يعلم الرغبة المتأججة في صدور الناس ليكونوا سعداء ،
ويعلم ان في سيئاتهم سيئات الاجداد
ولـكنهُ رفيق محب مشفق عليهم
يوزع هبات قلبه وحبه على جميع الـكائنات .

وراء ملذاتك لا تزال لك ملذة اخرى :
ان تذهب فقيراً حقيراً مأخوذاً بجنون الحب نحو المتألمين
تلثمهم بكل نفسك وقلبك ،
اولئك المتألمين الاموات المرتعشين في الليل البارد الذي يُرخي سدوله عليهم.

اجعل حلمك أليفاً مع الابدية
وعوّد عينيك النظر في هوة الفضاء .
وفي كل هذا الغمر المجهول الذي تتضاءل عنده جرأة الانسان المحدودة

وهكذا تتدحرج المادة كنهر كبير .
وكل شيء يتبدل . ولا شيء يموت .
في الهاوية العميقة تدور الاسباب ، وتتحول الاعمال
والاشياء تتآلف وتتفكك بلا انتهاء !

ان المتأمل في الحياة الخالدة الذاهل في مادتها كأنهُ متلاشٍ فيها ،
يري الغد لا شيء عنده ، ولا الامس ولا اليوم .
ويجد ان الحياة والموت كلمة لا معنى لها

(انتهى)

سير الزمان

الرئيس ماساريك

رأيه في الديمقراطية والفاشية

لعلي أدهم

الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٧

جذب ودفع — امتحان القوة — الحربان في اسبانيا والصين — سقوط هيبة القانون — القرصنة ومؤتمر نيون — روسيا ترتد الى القومية — من محور الى مثلث ضد الشيوعية — تزاور الاقطاب. المانيا والمستعمرات — ايطاليا والعصبة

الرئيس ماساريك

رأيه في الديمقراطية والفاشية

لعلي أدهم

في ١٤ سبتمبر من العام الفارط مات توماس ماساريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا السابق فطويت بموته حياة سرية وختمت سيرة عاطرة وغاب عن ميدان السياسة الاوربية سياسي من اعالي الابطال صانعي التاريخ وبناة الدول . ولعل اكبر عزاء لامته عن فقده انهُ مات بعد ان نضجت سنه وأدى واجبه وأبلغ رسالته على اتم ما يكون اداء الواجب وتبليغ الرسالة وارتقى ذروة المجد الخالد وظفر بالتقدير القمين بمثله والجدير بما تم على يديه

وقد استطاع ماساريك خلال تلك السنوات المليئة بالحوادث العاصفة التي تلت الحرب الكبرى وبين الانقلابات الهادمة والتغيرات الطارئة ان يحتفظ بتشيكوسلوفاكيا واحة مزدهرة ظليلة في وسط صحراوات جرد من الديكتاتوريات وحكومات الغشم والطغيان ولقد كان في سعيه الى تأسيس الجمهورية وتولي رآستها مثلاً من امثلة العزم الصارم والشجاعة الخارقة وقد اثبت في السنوات التي تولى فيها الرآسة وأشرف على مقاليد السلطة انهُ سياسي بعيد النظر رحب الافق نبيل المقصد

وقد ولد ماساريك عام ١٨٥٢ في قرية صغيرة وبدأ حياته مملقاً منقطع النصير وحيداً من الخلان وزاول في صدر حياته بعض المهن الشاقة والحرف الكاسدة ثم عالج التدريس بفضل صبره وقوة احتماله وبعد جهد شاق استطاع ان يحرز اجازة في الفلسفة وقد مكنته سعة المامه بمذاهب الفكر وتضلعه من الفلسفة من ان يصل وهو في سن الثانية والثلاثين الى منصب استاذ الفلسفة في جامعة براج وهناك تجلت مواهبه ونبه شأنه وسمت مكانته

وأتاح له ذلك فرصة التوفر على البحث والتحرر للكتابة فاخذ يضع غرر التصانيف وينشر روائع البحوث في الادب والنقد والفلسفة والسياسة ويلقي شائق المحاضرات ويضمنها سديد الآراء وناضج الافكار وامتاز بخصلتين بارزتين ميله الشديد الى العدالة الاجتماعية وشدة تأثيره في نفوس تلامذته ومريديه حتى صاروا يتخذونه قدوة لهم ويتأثرون خطواته في طلب المثل العليا ونشدان الكمال. ومهد لهُ ذلك السبيل الى دخول مجلس النواب، وحدثت محاكمة هلسنر اليهودي لاتهامه بقتل فتاة بوهيمية واقتنع ماساريك بعد بحث تلك القضية وتغلغله الى دقائقها ببراءة هلسنر فانبرى للدفاع عنه وصمد لذلك في وجه التهم والاقاويل التي كانت تنهال عليه جزافاً وقد اثبت موقفه

النبيل في هذه المحاكمة انهُ كان يجمع في نفسه بين العاطفة القوية والبصيرة النافذة ، وعارض السياسة النمساوية التي كانت ترمي إلى اضعاف شخصية أمته وإدماجها في العنصر الالماني وفي سنة ١٨٩٠ حمل لواء الحركة الوطنية التشيكوسلافية ولمس روح قومه واخذ يعمل على اثبات كيانها وتحقيق وجودها ، وثارت الحرب الكبري فنبت بهِ بلاده وجاب الاقطار حتى انتهى بهِ المطاف الى لندن حيث اختارتهُ كلية الملك ليكون ضمن اساتذتها وهناك تهيأت له الفرصة لتدبير أمر استقلال بلاده وتنظيم حركته وكان يؤيده في ذلك ويشد ازره صديقه بينش، وترادفت عليهِ المتاعب واعترضت طريقه الصعاب فلم يتداركه وهن وتغلب بثاقب عزمه على العقبات المعترضة وقد كان انتصاره انتصار رجل محلق الاحلام بعيد الآمال ولكنهُ أوتي قوة العزيمة على تحقيق احلامه وتصديق آماله

وكان من الطبيعي ان لا تنسى لهُ امته بعد ذلك سابق خدماته وسالف تضحياتهِ وكده في نيل حريتها وتأثيل مكانتها فاصطفتهُ لرئاسة الجمهورية ولم يكن ذلك من هين الامور فقد كان عليهِ أن يعبّد لقومه الطريق الوعر ويقيم لهم الحدود ويرسم لهم الخطط ويبتكر مستحدث التقاليد وكانت هناك اقليات عليهِ أن يحسن السياسة معها ويلتزم القصد ليزيل نفورها ووحشتها ويؤلف بين قلوبها ،وكان عليهِ أن يبث حماستهُ في الاعمال الادارية وان يفيض من ضوء عبقريتهِ على التفاصيل اليومية الدارجة وبرغم ما يؤخذ عليهِ بعض نقاد سياستهِ من الاخطاء ووجوه التقصير فان الذي يلقي نظرة شاملة على سياسته لا يخالجهُ شك في أن ماساريك قد اجاد وضع الاساس وأحسن تشييد البناء حتى اصبحت تشيكوسلوفاكيا بفضل سياستهِ ومبادئهِ السامية قوة ادبية يلوذ بها طلاب الحرية

وقد نهض بالتعليم نهضة صادقة ورفع مستواه حتى صارت معايير التشيكوسلافيين الفكرية محلاً للتقدير وسما بالتشريع حتى اصبحت قوانين بلاده تضارع قوانين أرقى الامم وأعرقها حضارة وتمديناً وقد لقن قومه حب الحرية السياسية وعلمهم اذا اقتضى الامر ان يجودوا بارواحهم في الذود عن حياضها

والعمل الذي قام بهِ ماساريك باهر راجح من اية ناحية تواجهه وبأي ميزان تحاول وزنه، وإذا عزونا نجاحه وتوفيقه الى قوة الظروف والملابسات والى ان امبراطورية النمسا العتيقة المتهدمة قد طوعت لهُ الفرصة السانحة وافسحت لهُ مجال العمل ثم جاءت الحرب الكبرى فمكنتهُ من أن يتحين الظروف المؤاتية والى انهُ قد وجد في صديقه بينش خير عضد له ، فانهُ لا نزاع بعد ذلك في أن الرجل قد راض قومه على اساليب الحكم الصالح وضرب لهم خير الامثلة وعوّدهم الديمقراطية الصحيحة الحقة ، فالانتخابات في تشيكوسلوفاكيا حرة والتعليم هناك

يفسح المجال للاستباق في مضمار النبوغ وحرية الاجتماع مكفولة وحرية ابداء الرأي والنقد مصونة وليس بين من تخرجوا في مدرسة ماساريك من يفكر في الانقلاب على الديمقراطية والتنكر لمبادئها ، ومن اقوى الادلة على اقتداره انهُ استطاع توطيد مبادىء الديمقراطية وتعزيز مكانتها في الظروف الاليمة التي يعانيها هذا العصر المضطرب وفي تلك الليالي الحبالى بكل عجيبة

وقد ظلَّ هذا الاستاذ الاديب والسياسي الفيلسوف يأتيهِ التشريف ويوافيهِ الاعجاب من مختلف اطراف الارض وهو مع ذلك مؤثر للبساطة في عاداتهِ واخلاقهِ لا يزهى ولا يتكبر ولا تأخذه نشوة الشهرة ولا تضلهُ سطوة الحكم وظل كدأبه ولوعاً بالدرس عاكفاً على مطالعة الروايات والتملي من فنون الادب وفي سويعات فراغهِ واستجمامهِ يرتاض في الخلوات مشياً على القدم او ممتطياً صهوة جواده ولا ينفض عنهُ الناس ولا يقصيهِ عنهم الحجاب ولم ينس انهُ نشأ من سواد الشعب وان قوته قائمة على تصديقهم بمثله الاعلى ومشاركتهم لهُ في الايمان بهِ فهو في العصر الحديث خير نموذج للحاكم الفيلسوف الذي تصوره افلاطون

ويرى الاستاذ لاسكي ان السر في نجاح ماساريك يرجع الى شخصيتهِ الجذابة المحببة وأخلاقهِ المتينة الرضية وجمعه بين العقل المفكر الرزين والعاطفة الحارة الفوارة وتزاوج الرأي بالشجاعة ، ولم يكن ماساريك فظًّا غليظ القلب فينفض من حوله الانصار بل كان اخلاصه التام وتفانيهِ في خدمة مبادئهِ وافكاره يدني منهُ قلوب عارفيهِ ويمكنهُ من قيادهم مختارين مغتبطين لانهم يستظلون بدوحتهِ ويستمتعون بأنافيض آرائهِ ومنثور حكمتهِ ، ولقد كسب الحرية لمواطنيهِ ومزجها بنفوسهم واجراها في طبائعهم ولم يلمس شيئاً الاَّ اضاءه بذكائهِ المشرق ونقاه من الاوشاب بصفاء نفسه ونزاهة اغراضه

ماساريك والفاشية

وأنقل هنا رأيه في الحكومة الفاشية ودفاعهِ عن الديمقراطية لأعرض على القارىء مثالاً من تفكيره وسديد نظراتهِ معتمداً في ذلك على احاديثه مع الكاتب المعاصر اميل لودفج أحد نوابغ كتاب التراجم في العصر الحديث وهي أحاديث امينة الرواية صحيحة الاسناد — قال عن الفاشية « ليست الفاشية كتاباً للسياسات العملية والادارة الحكومية وانما هي مذهب من مذاهب الحياة وأسلوب من أساليب تقويمها فهي فلسفة اقرب ما تكون الى الفلسفة الاخلاقية . لقد عنيت بنظرة الفاشية الى الحياة فأوسعتها بحثاً من الوجهة النظرية واقتفيت آثار سياستها ولقد شرح موسوليني المذهب الفاشي في دائرة المعارف الايطالية شرحاً شائقاً وأنا اقره على بعض ما ورد فيهِ واخالفهُ في بعضهِ وانما اريد الموازنة بين المبادىء

الديمقراطية والمبادىء الفاشستية ، لقد اعلن موسوليني عداءه للمادية والوضعية واكد روحية نظرتهِ الى الدنيا والحياة دون ان يصف في شيء من التفصيل افكار فلسفته الاساسية ، وقد دارت اكثر احاديثه وكتاباته حول مسألة الدولة والوطن . والفاشية مثل كل نظام سياسي يعنيها ويشغلها تحديد العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعي ، وموسوليني عدو للفردية وهو لا يعرف الفرد الاَّ باعتباره جزءاً متمماً للدولة والدولة في نظره تطور تاريخي وهي الضمير العام والارادة الشاملة ، وأنا من الوجهة النفسية ومن الناحية التاريخية ومن الجانب الاخلاقي كذلك لا استطيع التسليم بان الضمير الفردي مستغرق في ضمير عام ملفوف في تضاعيفه ولا اصدق بوجود ما يسمونهُ الضمير العام او الارادة العامة فليس هناك سوى ضمائر فردية ومن الوجهة السياسية فاننا لا نرى امامنا سوى مجاميع من الافراد وهؤلاء الافراد يمكن ان تتكوَّن منهم وحدة ويجمعهم نظام مختلف الاشكال والفاشية اسلوب من اساليبهِ

ولاعتقادي بالفردية لا استطيع ان اقبل فكرة ان الحكومة او الوطن او الشعب يتجسم في افراد قلائل او يجتمع في فرد واحد ، واعرف ان بين علماء الاجتماع واصحاب النظريات السياسية من يؤمنون بوجود ضمير عام وينكرون الضمير الفردي ولكن هذا التصور لا يقوم على اساس علمي وهو مشتق من تبعة الفكرة الارستقراطية في السياسة

والدولة عند الفاشية هي جماع كل شيء فهي اعرق من الوطن والشعب وهي تكون الوطن والوطن لا يكونها فهي صميم الوجود وروح الروح ومعنى هذا ان ضمير الدولة وهو الوحي الذي يستلهمه جميع الافراد من خاملين وبارزين ويعمل بمقتضاه الفنانون والمفكرون والسياسيون ، فليس عمل الحكومة الفاشية مقصوراً على سن القوانين ووضع الشرائع وادارة دفة السياسة وانما يشمل تنظيم الحياة الروحية ورسم القواعد الاخلاقية والدولة هي السلطة الوحيدة المتفردة المتمادية ولاحدود لنموها لانها غير محدودة وانهُ لما يروق ويعجب ان يسترسل الانسان في بسط تعاريف الفاشية وبيان اغراضها ومنازعها واكتفي ان ألاحظ انها من ثمرات الخيال اكثر مما هي من نتاج العقل

والدولة الفاشية لا تروم تشكيل صور لوجود الانسان على انماط جديدة فحسب وانما ترمي الى تنقيح محتويات ذلك الوجود بما فيهِ من رجال واخلاق ومعتقدات ولهذه الغاية تحاول ان يكون لها سلطة تامة تهيمن بها على العقول وتسيطر على الاخلاق بلا معارضة ولا تعقيب ، وفي رأي الفاشية ان عصر الديمقراطية قد انتهى بالحرب الكبرى

ويبدو لي ان الدين والكنيسة قد كان لهما شأن كبير في تكوين عقلية موسوليني وصياغة افكاره وأثرا فيهِ اكثر مما اثرت النظريات السياسية والآراء التي يتلقاها الانسان في ابان نشأته من

المدرسين الذي يحبهم ومن والديه لها تأثير كبير ، فالروح الدينية الصارمة والقول بتنزيه الكنيسة عن الخطاء وتسويغ سلوكها في مختلف الشؤون لقداستها وارتفاعها عن النقد تصبح تنزيهاً للحكومة والامة وتحيطهما بقداسة تحرم النقد وتفرض الطاعة والولاء فرضاً ، وقد اقتبست الفاشية من الكاثوليكية مظاهرها ورموزها ونظامها ، وتتظاهر الفاشية بمناصرة الدين المسيحي ولكنها ترمي من وراء ذلك الى غاية سياسية لان المبدأين المسيحيين الهامين وهما مبدأ حب الناس بعضهم لبعض ومبدأ الاخاء العام للنوع الانساني مما يحير الفاشية ويربكها وهما في نظرها اوهام وخيالات سمادير والفاشية تنبذ المثل الاعلى للسلام لان الحياة عندها معركة ابدية ومن ثمَّ تدريبها الشبان وتلقينهم الروح الحربية

ومحاولة الفاشية احياء الروح الرومانية جدير بالتساؤل اذ يشك في قيامه على اساس تاريخي متين لان كبار فلاسفة الرومان واليونان كانوا يبشرون بالمثل الاعلى للانسانية وأنضج العقول في روما وأنبل الشخصيات كانت تقاوم النزعة الحربية والروح الاستعمارية

ولم تستطع الفاشية السائدة ولا النزعة الالمانية المتطرفة ان يزعزعا ايماني بالديمقراطية ، ولتحليل الفاشية يلزم بطبيعة الحال أن ننظر الى منشأها وتطورها وان نكشف عن عواملها المختلفة وقد ذكرت تأثير الكنيسة وفكرة احياء الامبراطورية الرومانية ورغم معارضة موسوليني للمركسية او بسبب ذلك فانَّ في تعاليمه قدراً كبيراً من المركسية من امثال ذلك محاولة نقل الجماعات الى الدولة وفكرة إقامة الديكتاتورية

الديمقراطية والدكتاتورية

ولقد سألتني [1] عن الفاشية لتوازن بينها وبين الديمقراطية من ناحية مسألة السلطة والحرية وأنا اقول بان الديمقراطية تعترف بالسلطة ولكنها تحرص على ان تجمع بينها وبين الحرية

ولقد كانت الحكومة الدينية سابقة للديمقراطية وكان هذا النظام العتيق نظام السلطة التيوقراطية يعترف باستمداد السلطة من الله أو من الآلهة ويقول بان القساوسة والحكام ورجال الدين على اختلاف طبقاتهم يستمدون سلطتهم من ذلك المصدر المقدس وكانت الانظمة التي قامت على هذه العقيدة انظمة دينية ارستقراطية مطلقة ، ولكن الحكومة الديمقراطية ليست من نوع الحكومات المطلقة فهي تسمح بالنقد وترحب به ومن مزاياها الاعتدال وهي ترتكز على

(١) الحديث موجه هنا الى اميل لودفج

الاخلاق لا على الدين وتقوم من الوجهة الفكرية على العلم والفلسفة لا على اللاهوت والفقه الديني

ولقد كانت الحكومات في سالف الزمن تستعين بنظرية السلطة المطلقة لتخرس النقد وتكمّ الافواه ولكن الحكومة التي يباشر اعمالها في العصر الحديث اعضاء يستمدون سلطتهم من الامة لا يمكن ان تدعي العصمة لاعمالها ، والحكم القائم على الارادة المطلقة ونظرية الحق المقدس ادى الى قيام الثورات وبسبب آثاره السيئة لا تزال روح الثورة تختلج في النفوس ، وكل من يستطيع ان يفكر تفكيراً سياسيًّا منظماً يعترف بنظرية السلطة ويصبر على ضرورة الولاء للدولة ولكنهُ يقف في نفس الوقت الى جانب حقوق الحرية والحرية معناها حق التجديد والابتكار في كل فرع من فروع الحياة وكل ناحية من نواحيها وبخاصة في العالم السياسي . وهي تستلزم قبل كل شيء عرض الافكار والنظم والسلوك السياسي على محك النقد ومن ثم فان اول ما تعمل الديمقراطية على ايجاده هي فضيلة التسامح والاعتدال وبذلك تستطيع ان تتغلب على روح الثورة المتمكنة من نفوس القوم في العصر الحديث وتمحو الاسباب التي تدعو الى الصراع والكفاح بين الديمقراطية والنظم الارستقراطية التي اخلقت جدتها وذبلت نضارتها ، بل اني اقول الصبر بدلاً من الاعتدال واقصد به الصبر السياسي والصبر لازمة من اللوازم لنجاح الديمقراطية وتوفيقها »

ويعلل ماساريك الاخفاق الذي منيت به الديمقراطية الحديثة بقوله « ان الديمقراطية الحديثة لا تزال في دور الحداثة والنظام القديم قد استغرق آلاف السنين ليستتم نموه ويكتمل نضجه وقد تأصلت جذوره واستطالت فروعه في حين ان الديمقراطية نشأت مع الثورة الفرنسية فهي في دور النشوء والنمو والمستقبل لها . واذا نظرنا الى خريطة اوربا وجدنا ان اكثر دولها جمهوريات او ملكيات دستورية فلا يزال اغلبها مستمسكاً بالديمقراطيـة ، وليس مما يزري بالديمقراطية ان اصرح بانها لا تزال بعيدة عن الكمال ولا تزال يعتورها النقص وهل كانت حكومات المانيا والنمسا والروسيا الملكية كاملة من الوجهة الديمقراطية ؟ وما الذي احدث الحرب الكبرى ؟ ومن الذي فقد الحرب ؟ هل هي الديمقراطية ؟ وما الذي ادى الى الازمة الاقتصادية ؟ هل هي الديمقراطية ؟

اما عن الديكتاتوريات فانتظر وستعلم خاتمتها ، وأوربا رغم ذلك كلهِ آخذة في نبذ النظام القديم فليس هناك امة تحاول قبول النظام القديم مهما كان رأيها في الديمقراطية ، واني احرص على ضرورة التفريق بين الديمقراطية والفوضى وان اميز الديمقراطية السلبية من الديمقراطية الايجابية ؛ وقد كانت بعض الامم تستجيب لاسمى مبادىء الديمقراطية في مقاومتها للنظام العتيق ولكنها عند ما اسقطت ذلك النظام وحاولت تطبيق الديمقراطية اي القوة السياسية والحكم بارادة الشعب لا بارادة الله شاب تفكيرها وعلقت بأساليبها طرائق التفكير القديم وجرائيم العهد

البائد وليست الديمقراطية مجرد نظام سياسي واسلوب من اساليب الحكم وانما هي فلسفة حياة يحترم بمقتضاها كل مواطن زميله وصنوه ومعنى الديمقراطية هو تساوي الحقوق

ومن شأن النظرات السياسية المتطرفة ان لا تصيب الهدف عند أول محاولة وقد كان هذا هو حال الثورة الفرنسية وردود الفعل المختلفة والانتكاسات التي تعقب الثورات ليست بالشيء الحديث . وهي لا تقدح في البرنامج ولا تعيب النظام وانما هي تنال من سياسة ابطاله والموكول اليهم امر تطبيقه ، ولقد كانت اوربا معملاً للتجارب السياسية وستظل كذلك ردحاً من الزمن وهذا واضح الوضوح كله لكل من له ادنى المام بالسياسة ، ونحن نعيش في عصر انتقال كبير والنظام القديم يتحول من جميع نواحيه الى نظام جديد ، وعند ما ينادي موسوليني وجبلز بان انظمتهما هي اصفى انواع الديمقراطية ارى في ذلك اعترافاً بفضل الديمقراطية التي اتحدث عنها

واجل ما في الديمقراطية ان اعمالها لا تحاط بالاسرار ولا تنجز في الظلام وانما تبحث في وضح النهار وعلى مسمع من العدو والصديق ، وفي النظام الديمقراطي لكل مواطن الحق في اعطاء صوته ويلزمهُ ذلك ان يكون على بينة ودراية بسير الاحوال ومن ثمّ ضرورة الصحافة الحرة الراقية النزيهة والمجالس النيابية والديمقراطية بطبيعة الحال كسائر انواع الحكم في حاجة الى ادارة قديرة وحكومة مستنيرة ورجال تقدم وعرفان لهم قدرة على التوجيه وحسن استعداد للبناء ولهم تجربة صحيحة وخبرة مستفيضة بتصريف الامور ومعالجة الشؤون المختلفة ونظرة سياسية متسعة المدى. واني اقول لمن يشكون الحرية السياسية وينكرون على الصحافة حريتها ان العلاج الوحيد لذلك هو الاكثار من الحرية وليس معنى الحرية تمهيد السبيل للفوضى والجهل والعجز

علي أدهم

طريق الحق

لما شاهد المسافر الطريق الى الحق
اخذهُ العجب لانهُ رأى الاعشاب تغطيهِ
فقال : أرى ان احداً لم يسر عليهِ منذ زمن
طويل . ثم تبين ان كل عشبة سكين حادّة :
فقال لا بدَّ ان يكون هنالك طرق أخرى

عن : ستيفن كراين

الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٧

اذا خلا الباحث الى نفسهِ ، وارتدَّ بذهنهِ الى حوادث العام الماضي في حلبة السياسة الدولية ، تبين اتجاهين عامين ، ينتظمان معظم هذه الحوادث . اما الاتجاه الاول فجذب ودفع بين فريقين من الدول احدهما فريق يريد تبديل الحالة القائمة،وحكومات دولهِ قائمة على مبدأ الزعامة فهو في شئون السياسة الخارجية ، مقدم يعمد الى امتحان قوة الدول الاخرى بالتهديد آناً وبالمطالبة بتنقيح بعض الاتفاقات والمعاهدات آناً آخر . ومن هذا القبيل تعزيز محور روما برلين وتحويله الى مثلث بانضمام ايطاليا الى الاتفاق الالماني الياباني ضد الشيوعية ، وامداد قوات الجنرال فرانكو في اسبانيا ، وتأييد موقف اليابان في الشرق الاقصى داخل مؤتمر بروكسل وخارجه،وخروج ايطاليا من العصبة واعترافها بمنشوكو

اما الاتجاه الآخر فهو سقوط هيبة القانون الدولي والعرف المتبع في العلاقات الدولية ، وقد اشار الرئيس روزفلت الى ذلك في خطبتهِ المشهورة التي ألقاها في شيكاغو في ٥ اكتوبر الماضي اذ وصفهُ بوباء يجب كفاحه بفرض — الحجر الصحي — عليهِ . وهو متمثل في غزو اليابان للصين خارجة في ذلك على معاهدة الدول التسع وميثاق تحريم الحرب المشهور بميثاق كيلوج بريان ، وفرضها الحصر البحري على سواحل الصين مع ان حرباً لم تعلن . ومن هذا القبيل حادثة اصابة السفير البريطاني في الصين ، واغراق المدفعية الاميركية باناي في نهر الينجتسي ، وتفشي القرصنة في البحر المتوسط ، الى ان وضعت قرارات مؤتمر نيون حدًّا لها

الحرب الاهلية الاسبانية

يلخص ما تمَّ في اسبانيا من ناحيتها الداخلية ، في فوز قوات الجنرال فرانكو في شمال اسبانيا وسقوط بلباو وسنتندر وجيجون في الشمال ، ومالقة في الجنوب في يديها ، فصار الحكم الفعلي في نحو ثلاثة أخماس اسبانيا للجنرال فرانكو وصحبه . وكان الظن انهُ بعد هذا الفوز في الشمال تطلق قواته الشمالية او معظمها فتنضم الى سائر قواته في هجوم حربي عام في منطقة مدريد ومنطقة اراجون وترويل،ولكن فصل الشتاء اقبل ببرده وزمهريره وهذا الهجوم لم يقع

ولذلك قدر الـكتاب الحربيون ان ساعة الحسم في الحرب الاهلية الاسبانية لا بدّ ان تتأخر الى الربيع القادم عند ما يصبح الجو الاسباني في النجدين القشتالي والاراجوني صالحاً مواتياً للاعمال الحربية الواسعة النطاق

اما في ناحية الحـكومة ، فقد سقطت حكومة كاباليرو وألفت وزارة نجرين يؤيده فيها السنيور انداليسيو بريتو فاتجهت الوزارة الجديدة الى هدفين ، الاول تعزيز مكانتها الداخلية بضم العناصر المعتدلة اليها ، وفرض النظام والقانون على العناصر المتطرفة الى اليسار واشراك قطلونية في أعمال الدفاع ، ولهذا الغرض انتقلت الوزارة الاسبانية من بلنسية الى برشلونة . هذا هو الهدف الاول ، والـكتّاب الذين زاروا اسبانيا في العهد الاخير ، مجمعون على ان وزارة السنيور نجرين قد حققت كل ما تبغيه في هذا الصدد او معظمهُ على الاقل

اما الهدف الآخر فهو تنظيم جيش قومي مدرب يعتمد على نفسه ، وكذلك تنظيم مصانع الاسلحة حتى تستطيع ان تمد ذلك الجيش بأكثر ما يحتاج اليه. والهجوم العنيف الذي قامت به قوات الحـكومة على ترويل في الايام العشرة الاخيرة من السنة الماضية دليل على مبلغ ما أدركتهُ الحـكومة الاسبانية في هذا المضمار

ولـكن هذا لا ينفي أن جيش الحكومة في حاجة الى استيراد المـدافع الضخمة والدبابات والمدافع المقاومة للدبابات والطيارات ، علاوة على حاجتها الى مواد الطعام لان ما تنتجه البلاد التي لا تزال في قبضتها من الطعام لا يكفيها مقداراً ونوعاً . ولا سيما اذا تمكنت قوات الجنرال فرانكو من فرض الحصر البحري على سواحل اسبانيا الحـكومية . وهذا في نطاق قدرتها من الناحية البحرية لان معظم الاسطول الاسباني موال لها ، ولها في جزيرة ميورقة من جزائر البليار قاعدة لا تفوقها قاعدة للقيام بهذا العمل . ولـكن يلوح أن انكلترا لن ترضى بالتخلي عن حقوقها في هذا الصدد زاعمة ان القانون الدولي لا يجيز للجنرال فرانكو فرض هذا الحصر وهو لم يمنح بعد حقوق المحاربين وليس في وسعه أن يجعله حصراً فعالاً . وقد أرسلت وزارة البحرية البريطانية التعليمات الى اسطولها في البحر المتوسط بأن لا تذعن سفنه لما يصدر من سفن الجنرال فرانكو الحربية الى السفن البريطانية التجارية

***

خطة عدم التدخل وملابساتها

كانت سياسة عدم التدخل التي اقترحتها فرنسا وايدتها انكلترا ونكلت ايطاليا والمانيا في قبولها ، بدعة في السياسة الدولية لانهُ من المفروض عقلاً وقانوناً دوليًّا الامتناع عن

التدخل في شؤون دولة اجنبية إذا وقع فيها خلاف داخلي · بل من المفروض ان تؤيد الحكومة الشرعية القائمة حتى تتمكن من خضد شوكة المنتقضين على سلطتها . ولكن اسبانيا واقعة عند مدخل البحر المتوسط وتملك جزائر البليار ، فموقعها الجغرافي والحربي ، وما في شبه الجزيرة من مصادر المواد الخام — كل ذلك ذو شأن عظيم في نظر الدول الاوروبية المتناضلة ، ولذلك اصبحت ميداناً لنزاع ايديولوجي بين الفاشستيين والشيوعيين. حالة ان انكلترا وفرنسا ترغبان في ابقاء الحال فيها على ما هي فاقترحت خطة عدم التدخل ، لكي تكون واقياً لاوربا من خطر التدخل الرسمي ، وحتى لا يتعدى النزاع الدولي في اسبانيا حدودها فيصبح نزاعاً اوربيًّا

فاذا أخذنا خطة عدم التدخل على انها رمت فعلاً الى منع التدخل في شؤون الحرب الاهلية الاسبانية ، فالحكم انها اخفقت كل الاخفاق، وحسبنا ان نشير الى ما تعترف به المصادر الرسمية من وجود عشرات الالوف من المتطوعين الاجانب الذين اشتركوا مع الفريقين المتنازعين علاوة على الاسلحة والذخائر الاجنبية . اما اذا نظرنا اليها على انها ستار يخفي وراءه التدخل ، فلا يوسم بالسمة الرسمية ، لمنع خطره الدولي ، فالخطة قد حققت ما قصد اليه بها

ونحن اذا نظرنا الى أعمال اللجنة الدولية لعدم التدخل بلندن ، خلال السنة الماضية ، وما دار فيها من النضال والاخذ والرد ، والتراشق بالتهم ، ثبت لنا انها كانت بمنزلة صمام للتنفيس عن الضغائن الدولية ، ولاسيا ما كان منها ايديولوجيًّا

وقد عنيت اللجنة خلال السنة الماضية بمشروعين كبيرين، أحدهما الرقابة البحرية على سواحل اسبانيا ، لمنع وصول المدد الى الفريقين المتقاتلين من الدول التي تظاهرها . وفعلاً اشتركت اساطيل انكلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا في هذه المراقبة ، وظلت قائمة فعلاً الى ان حدثت حادثتا الطرادين الالمانيين — الدويتشلند (مايو) — واللييستش (يونيو) — فقد أُلقيت على الطراد الاول قنابل من الجو ، اصابت دكته وقتلت بعض بحارته ، فثأرت المانيا لنفسها بضرب المرية وتهديم بعض مبانيها . وخرجت من اللجنة ثم عادت اليها بعد مفاوضات دقيقة ، وما كاد الامل يتجدد بامكان التعاون ، حتى حدثت حادثة اللييستش ، وملخصها ان غواصة اطلقت عليها قنبلة تحت الماء اصابتها ولم تحدث فيها عطلاً ، فطلبت المانيا اجراء مظاهرة بحرية مشتركة امام بلنسية بحسب الاتفاق الذي عادت الى اللجنة على اساسه ، فأبت انكلترا وفرنسا وروسيا ذلك قبل تحقيق الحادث وتعيين التبعة . فخرجت المانيا من نظام المراقبة . وجارتها ايطاليا . وظلت اللجنة تجتمع ، والنقاش يدور فيها حامياً ، الى ان بدأت حوادث الاعتداء على السفن التجارية في البحر المتوسط ثم استفحلت وهاج الرأي العام الدولي من جرائها ، مستعيداً ذكرى القرصنة في العصور الوسطى

عند ذلك رأت فرنسا وانكلترا وجوب القيام بعمل حاسم لحماية الطرق التجارية البحرية من اعتداء القرصان ، فدعتا الى عقد مؤتمر نيون ، في الاسبوع الاول من سبتمبر ، فابت ايطاليا الاشتراك فيه ، بعد مذكرة من روسيا اتهمتها فيه بأن الغواصات الايطالية هي المعتدية ، ولكن المؤتمر اجتمع ووضع قراراته بسرعة وحزم وهي قرارات فنية لا دخل للعنصر السياسي فيها وترك المجال فيها مفتوحاً لانضمام ايطاليا ، فأبت أولاً ، ولكن بعد مفاوضة طويلة ، قبلت ان ترسل خبراءها الى مؤتمر ثلاثي بباريس يشمل خبراء انكلترا وفرنسا وايطاليا البحريين ، فتمَّ الاتفاق هناك على نصيب ايطاليا في مشروع الرقابة وحماية المواصلات في البحر المتوسط

وكانت انكلترا قد اعلنت بعيد مؤتمر نيون انها ستكف عن اعمال المراقبة على سواحل اسبانيا لكي تعبئ سفنها لحماية المواصلات البحرية بحسب مؤتمر نيون، فكان في ذلك ختام المشروع الاول الذي حاولت به لجنة عدم التدخل الدولية تنفيذ خطة عدم التدخل في اسبانيا

***

اما المشروع الثاني الذي حاولته لجنة عدم التدخل ، فهو سحب المتطوعين الاجانب من اسبانيا ، وكان الرأي اولاً ان نجاح المؤتمر الثلاثي في باريس من شأنه ان يقوي الامل بنجاح مؤتمر ثلاثي آخر يحضره مندوبو انكلترا وفرنسا وايطاليا لبحث مسألة المتطوعين ، ولكن ايطاليا أبت ان تشترك في مؤتمر لا تدعى اليه المانيا ولا تشترك فيه ، وذهبت الى ان لجنة عدم التدخل هي الهيئة التي يقع على عاتقها معالجة هذا المشروع . فافضى هذا الرد الى هياج الرأي العام الفرنسي ، وجعلت الصحف تطالب بفتح الحدود الفرنسية الاسبانية ، ولكن السياسة البريطانية خففت من اندفاع الرأي العام الفرنسي وانسياق الوزارة الفرنسية في تياره ، فعادت المسألة برمتها الى لجنة عدم التدخل وبعد بحث طويل ، ومقترحات تقابلها مقترحات ، اتفقت لجنة عدم التدخل على الرضى ، بمبدأ السحب ، وانهُ عند ما يبلغ سحب المتطوعين مرتبة كافية — تقررها اللجنة — يعترف للجنرال فرنكو بحقوق المحاربين . وقد ابلغت نصوص هذه القرارات الى حكومتي الفريقين الاسبانيين ، فقبلتا المبدأ واعترضتا على بعض اساليب التطبيق ، وحتى آخر السنة لم يشرع في تنفيذ القرار

اليابان والصين

ان بواعث النزاع العنيف بين اليابان والصين — ولا ندعوه حرباً لان حرباً لم تعلن بحسب قواعد القانون الدولي — ليست بوليدة العهد الاخير ، وانما هي ترتد الى اواخر القرن الماضي ، عند ما اصبحت اليابان دولة صناعية ، لا يقوم لشعبها اود الاَّ بالصناعة والتجارة

الخارجية ، فهي لذلك تحتاج الى المواد الخام من ناحية والى الاسواق تبيع فيها منتجاتها من ناحية اخرى

وقد اقتطعت اليابان من الصين الكبرى كوريا اولاً ، ثم رسخت مصالحها المالية في منشوريا فلما نشبت الحرب الكبرى وانصرفت دول الغرب عن العناية بالصين ، عنيت بها اليابان ، وقد حاولت ان تفرض عليها سيطرتها في مطالبها المشهورة فأبت عليها الدول ذلك فاستردتها . ولما عقد مؤتمر وشنطن البحري سنة ١٩٢٢ اتفقت انكلترا واميركا واليابان على تحديد قوة البوارج في الاساطيل الثلاثة وفقاً للنسبة ٥ : ٥ : ٣ وصحب وضع المعاهدة البحرية المذكورة وضع معاهدة الدول التسع ، وفيها قطعت الدول عهداً باحترام وحدة الصين الجغرافية والسياسية ، والتزام سياسة الباب المفتوح في علاقاتها المالية والاقتصادية بها ، وظلت هاتان المعاهدتان قاعدة النظام السائد في الشرق الاقصى ، الى سنة ١٩٣١ عند ما شرعت اليابان في اقتطاع قطعة اخرى من الصين فاحتلت منشوريا وجهول سنتي ١٩٣٢ و١٩٣٣ وأنشأت منهما دولة منشوكو وأقامت امبراطوراً عليها هو آخر أباطرة الصين . فأفضت هذه الحوادث الى تحقيق لجنة ليتون المندوبة من قبل عصبة الامم ، فلم يرق هذا التقرير حكومة اليابان ، فتذرعت بما انطوى عليه من الحكم ضدها الى الخروج من عصبة الامم

الآن منشوكو لم تحقق لليابانيين من الناحية الاقتصادية ،كل الآمال المعقودة عليها ، فبذلت المساعي ، الى تنشيط حركة الاستقلال الذاتي ، في الولايات الصينية الشمالية ، مما يلي منشوكو، وهي غنية بالمناجم فيها الفحم والحديد والبترول ، علاوة على كونها سوقاً واسعة يقطنها نحو ثمانين مليوناً من الصينيين. فخبطت هذه المساعي على الغالب ، وصحب ذلك تعزيز الحكومة الصينية المركزية بزعامة المارشال شانغ كاي شك فاغتنمت اليابان فرصة انشغال الدول الاوربية التي لها مصالح كبيرة في الشرق الاقصى بشؤون أوروبا في السنة الماضية ، فتقدمت الى تحقيق فكرتها العريقة وهي انشاء شركة اقتصادية كبيرة في الشرق الاقصى ، تكون هي فيها الشريك الاكبر ، وكانت قد عززت مكانتها أزاء روسيا بعقدها الاتفاق الالماني الياباني لمقاومة الشيوعية في شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٦

لذلك لما حدثت حادثة جسر ماركو بولو على مقربة من بكين في ٧ يوليو من السنة الماضية، تعذرت تسويتها ،لان اليابان أبت ان تسويها مع حكومة الصين المركزية ، واصرت على تسويتها مع السلطات المحلية ، وأبت حكومة نتكين ذلك لانهُ يعد تنازلاً عن سيادتها على شمال الصين ، فبدأ القتال والقراء قد تتبعوه في الصحف اليومية ، فاحتلت الجيوش اليابانية الولايات الخمس الشمالية وهي شاهار وهوبي وشانسي وسويان وشانتنغ أو معظمها ، وسارت جيوشها من شنغاي

حيث لقيت مقاومة عنيفة ، الى ننكين وهانغتشو ، ويقال ان في النية الآن الزحف جنوباً الى كانتون ولكن حكومة شانغ كاي شك انتقلت الى داخلية البلاد ويقال ان عزمها على المقاومة لا يزال قويًّا

وكان من الطبيعي ان يفضي تغلغل اليابانيين في الصين ، الى الاصطدام بالمصالح الاجنبية فيها ، فنشأ عن ذلك حوادث متفرقة أثارت الرأي العام الاوربي والاميركي ومن اشهرها حادثة الاعتداء على السفير البريطاني السر ناتشبول هيوجسن واصابته بجراح خطيرة ، واغراق المدفعية الاميركية باناي في نهر الينجستي امام ننكين

وقد توسلت الصين بعضويتها في عصبة الامم ، وبالدول الموقعة لمعاهدة الدول التسع ، فدعت الى تنفيذ ميثاق العصبة في مساعدتها . ولكن العصبة رأت وهي لم تزل تعاني آثار الاخفاق في فرض العقوبات على ايطاليا ، ان تكرار التجربة في فرضها على اليابان يعرضها حتماً الى اخفاق آخر . فأصدرت قراراً بلوم اليابان وتذرعت بموقف الولايات المتحدة الاميركية واهتمامها بشؤون الشرق الاقصى الى عقد مؤتمر بروكسل ، حتى تبعد المسألة عن محيط جنيف وكان حبوطه متوقعاً من قبل اجتماعه ، ولكنهُ دعي الى الاجتماع ، فمثلت فيهِ ايطاليا وأبت اليابان حضوره ، وحجتها ان معظم اعضائهِ دول اشترك ممثلوها بجنيف في لومها قبل الدعوة اليهِ . واصرت على وجوب حل المشكلة بينها وبين الصين بغير تدخل اجنبي . وحاول المؤتمر في غير قرار واحد ان يحمل اليابان على حضور المؤتمر او قبول التوسط فأبت ، وانفض على ذلك

وقد دعيت اليهِ المانيا كذلك ، ولكنها اعتذرت بحجة انها ليست من الدول التي وقعت معاهدة الدول التسع

ومما يتصل بمشكلة الشرق الاقصى انضمام ايطاليا الى الاتفاق الالماني الياباني لمقاومة الشيوعية في اوائل شهر نوفمبر وقد اسفر هذا الانضمام عن اعتراف ايطاليا بدولة منشوكو ووقوفها موقف المؤيد لليابان في الملابسات الدولية الناشئة عن حربها في الصين

الاستهتار بالقانون الدولي

ليس القانون الدولي بقانون في ادق معانيهِ . اي انهُ ليس اعرابا عن مشيئة سلطة ذات سيادة تملك تنفيذه ومعاقبة الخارج عليهِ . وانما هو عرف ، مستخرج من القواعد والمبادىء المقررة في المعاهدات المختلفة ، ليس لهُ سلطة القانون من الناحية الشرعية ولكن لهُ سلطة القانون من الناحية الادبية . وقد جرت الدول على احترامه وحساب الف حساب لما ينشئه الخروج عليهِ او الاستهتار بهِ من اثر سيء في الرأي العام الدولي

وقد عانت الآداب والقوانين الدولية في السنة الماضية سقوطاً في هيبتها ، واستهتاراً في نقضها ، حتى وصف الرئيس روزفلت هذه الحالة في خطبة شيكاغو المشهورة « بوباء الاستهتار بالقانون » — والامثلة على ذلك كثيرة

خذ مثلاً على ذلك الحالة في الشرق الاقصى . ليس في التاريخ الحديث — حالة — عقد لضمانها من المواثيق والمعاهدات ما عقد لضمان الحالة في الصين . فسياسة الباب المفتوح ومعاهدة الدول التسع وميثاق تحريم الحرب كل اولئك عهود دولية قطعت ودونت في وثائق رسمية وهدفها الاحتفاظ باستقلال الصين ووحدتها والحيلولة دون تميز دولة على اخرى فيها . والنتيجة ان اليابان تجاهلتها جميعاً فاقتطعت منشوريا وجيهول سنتي ١٩٣١ و١٩٣٣ وها هي الآن في غمار حرب غرضها الاول انتزاع شمال الصين ولا يعلم احد الى اين ينتهي

ومع ذلك كله لم تعلن حرب حتى يعرف للقتال قواعد يجري بمقتضاها وذلك لان « الصين لم تفهم مقاصد اليابان فيجب ان تفهمها — او — ان تؤدب حتى تجثو على ركبها » على قول البرنس كونوي

او خذ الاعتداء على سفير انكلترا في الصين ، ليس ثمة من يقول بان اليابان قصدت الى الاعتداء عليه ولكن الاقوال اليابانية الاولى في هذا الصدد كان مؤداها ان الطيارين اليابانيين ظنوا ان المارشال شان كاي شك في السيارة وان العلم البريطاني كان صغيراً لم ير وان القيادة اليابانية لم تتنبأ بانتقال السفير البريطاني على تلك الطريق . ومن هذا القبيل ضرب المدن المكشوفة بقنابل الطيارات واغراق المدفعية الاميركية باناي

او انتقل من الشرق الاقصى الى البحر المتوسط وقف قليلاً عند حوادث الاعتداء على السفن التجارية والحربية . فهي انتهاك لحرمة الملاحة والقانون الدولي والمعاهدات القائمة . فبعد سعي دام ستة عشر عاماً قبلت الدول البحرية المادة ٢٢ من معاهدة لندن البحرية وغرضها مستمد مما عانته الدول اثناء الحرب الكبرى من اهوال الغواصات وهو انهُ لا يجوز لغواصة ما في اثناء الحرب ان تغرق سفينة تجارية او تعطلها عن السير الاَّ بعد انذارها وتأمين سلامة ركابها وملاحيها ومستنداتها . واذا كان ذلك متفقاً على مراعاته في الحرب فأحرى بهِ ان يراعى ابان السلام ولاسيما مع سفن دول محايدة تقوم باعمال التجارة المشروعة

هذا الاستهتار بالقوانين الدولية والآداب الدولية ، ظاهرة خطيرة يتصف بها هذا العصر كما اتصفت بهِ بعض عصور الانحطاط الماضية ، وهو منبع طائفة من المشكلات التي تعانيها الامم ومن العبث ان تعالج بعض هذه المشكلات على حدة اذا لم يصد مد هذا التيار . فكيان الدولة الواحدة لاقوام له الاَّ بهيبة القانون واحترامه احتراماً ناشئاً عن الاقتناع بانهُ لازم لمصلحة الفرد والجماعة اكثر من نشوئهِ عن خوف العقاب

تزاور الاقطاب

وقد امتازت السنة الماضية في حلبة السياسة الدولية ، باتصال اقطاب الدول زيارة ومكاتبة ، وفي مقدمتها تبادل الرسائل بين المستر تشمبرلين والسنيور موسوليني ، واساسها الرغبة في تصفية المسائل المعلقة بين الدولتين، بحيث يجعل « اتفاق الكرام » الذي عقد في مستهل السنة ، اتفاقاً ذا شأن عملي ، وزيارة موسوليني لالمانيا حيث استقبل بحفاوة عظيمة فاسفرت زيارته عن تعزيز محور برلين روما والتأكيد بانهُ غير موجه ضد دولة بعينها وانهُ ليس بمحالفة ولكنهُ تنسيق لموقف الدولتين ازاء مشكلات اوربا العامة وفي طليعتها المشكلة الاسبانية ومكافحة الشيوعية وتنظيم قلب اوربا على أساس من التعاون الاقتصادي . ثم هناك رحلة لورد هاليفاكس الى المانيا واجتماعه بالهر هتلر لاستكشاف نية المانيا في ما يتعلق بالمستعمرات وشرق اوربا وميثاق اوربا الغربية وغيرها ويزعم بعض الباحثين ان زيارة موسوليني لالمانيا افضت الى تحويل محور برلين روما الى مثلث برلين روما طوكيو. وان زيارة لورد هاليفاكس لالمانيا عجلت في خروج ايطاليا من عصبة الامم

وقد عقب زيارة لورد هاليفاكس لالمانيا رحلة شوطان رئيس الوزارة الفرنسية والمسيو دلبوس وزير خارجيتها الى لندن حيث اجتمعا بأقطاب الوزارة البريطانية وتباحثا مليًّا في المشكلات الدولية القائمة على ضوء الحقائق التي تبينها لورد هاليفاكس في رحلته الالمانية ثم تلا ذلك رحلة المسيو دلبوس الى عواصم بولندة ورومانيا ويوجوسلافيا وتشكوسلوفاكيا لتعزيز اواصر الصداقة بين فرنسا وهذه البلدان التي كانت في ما مضى والى عهد قريب من اخلص اصدقاء فرنسا واوثقها ارتباطاً بها. ومن هذا القبيل زيارات اخرى قام بها اقطاب السياسة كالجنرال جورنج والهر فون ربنتروب لايطاليا ، وستويادينوفتش الى باريس ولندن وروما. وليس امامنا متسع لتفصيل هذه الرحلات وانما الغرض الاشارة اليها لتبيان العناية الكبيرة التي تعلقها الحكومات الآن على اتصال اقطابها باقطاب الحكومات الاخرى

حوادث واتجاهات متفرقة

في خلال السنة الماضية احتفل بتتويج الملك جورج السادس ملكاً على المملكة المتحدة وامبراطوراً على الهند والممتلكات البريطانية وراء البحار وتوالت المساعي الى تصحيح الحالة الدولية الاقتصادية ، بتخفيف بعض القيود التي تقيد بها التجارة الدولية وعهد الى المسيو فان زيلند رئيس وزارة بلجيكا في دراسة الحالة ووضع تقرير يضمنه مقترحاته في هذا الموضوع وقد انجز هذا التقرير وكان تقديمهُ الى حكومتي انكلترا وفرنسا منتظراً قبيل نهاية العام — ومضى ستالين في اضطهاد خصومه واعدامهم ، كما انه وضع الدستور السوفيتي الجديد موضع التنفيذ فجرت

انتخابات عامة في ١٢ دسمبر ويقال في تفسير هذا وذاك ان ستالين مرغم بمنطق الحوادث الدولية ان يرتد عن ارث لنين في الشيوعية الدولية ، الى تعزيز النزعة القومية في روسيا لتتمكن من التاهب لمواجهة اعدائها في الشرق والغرب — واشتدت مطالبة المانيا بمستعمراتها السابقة حتى اصبح هذا الموضوع من الموضوعات التي تعنى الحكومات به ولا سيما الحكومة البريطانية. وبريطانيا ازاءه فريقان، فريق متصلب يرى الامتناع بتاتاً عن ارجاع مستعمرات المانيا السابقة اليها وآخر يوافق على ارجاعها على ان يكون ذلك جزءاً من تسوية عامة — واسقطت وزارة بلوم في فرنسا على اثر اختلاف وقع بينها وبين مجلس الشيوخ على مسائل مالية ، فالفت وزارة جديدة برئاسة شوطان وانتظم فيه الاشتراكيون برئاسة زعيمهم بلوم رئيس الوزارة السابقة وخفض الفرنك تخفيضاً كبيراً

وعظم شأن الاضطرابات في المغرب الاقصى ، فقمعتها الحكومة بالشدة وعينت المسيو سارو وزير الدولة في الوزارة القائمة للاشراف على دراسة الحالة ووضع النظام اللازم لمعالجتها — ووقع انقلاب حكومي في البرازيل اذ أقام السنيور فارجاس نفسهُ دكتاتوراً ينوي ان يجعل البرازيل دولة نقابية بغير ان ينضم الى فريق ايديولوجي دون آخر في السياسة الدولية — ونشرت اللجنة الملكية التي عينت لبحث مشكلة فلسطين تقريرها الذي اقترحت فيهِ تقسيم البلاد، الى منطقتين رئيسيتين احداها لليهود واخرى للعرب . فاشتد الاعتراض على هذا الاقتراح من العرب جميعاً ومن بعض الانكليز — وتمت الانتخابات في الهند وفقاً للدستور الجديد ، وبعد ما امتنع حزب المؤتمر عن تولي الحكم في الولايات التي فاز فيها بالاكثرية تمَّ التفاهم بينهُ وبين الحكومة البريطانية على تفسير بعض نصوص الدستور فتولى الحكم في معظمها — واعلنت انكلترا وفرنسا (٢٤ ابريل) والمانيا (١٣ اكتوبر) ضمانها لسلامة البلجيك — واعلن تنفيذ دستور ارلندة الجديد ابتداء من منتصف ليل ٢٩ ديسمبر الماضي

وفيات

وقد توفي في خلال السنة الماضية خمسة من اكبر اقطاب السياسة العالمية هم السر اوستن تشمبرلين السياسي البريطاني المشهور باشتراكه في عقد معاهدة لوكارنو، والمسيو دومرج رئيس الجمهورية الفرنسية سابقاً ، والمسيو ماساريك منشىء جمهورية تشكوسلوفاكيا ورئيسها الاول والمستر رمزي مكدونلد زعيم العمال في بريطانيا ورئيس وزارتيهم في سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٩ والمستر كيلوج وزير خارجية اميركا سابقاً وصاحب ميثاق تحريم الحرب المشهور باسم ميثاق — كيلوج بريان

القاهرة : ٣١ دسمبر ١٩٣٧

رابطة الإصلاح الاجتماعي

يوم الطفولة

الدوره الثانية

يناير ١٩٣٨

تقدمة

باسم الله وبحمده ، وفي ظل مليكنا المحبوب ، مناط آمال الامة ، ومعقد رجائها في النهوض والاصلاح ، حضرة صاحب الجلالة « فاروق الاول » . تقدم « رابطة الاصلاح الاجتماعي » رسالتها عن الطفولة المعذبة الى جمهور المثقفين المشتغلين بالخدمة الاجتماعية ، والمعنيين بالحركة الاصلاحية ، ولقد قدمت بالامس مجموعة محاضراتها التي القيت في (مؤتمر الطفل) فنالت من تقدير رجال التربية والتعليم . ما جعل وزارة المعارف تنوه بهذا المؤتمر وغيره من مؤتمرات الرابطة في تقارير رسمية ارسلت للدول الاجنبية عن مدى النهوض الاجتماعي في مصر ، وتقدم العمل في ميدان الطفولة . فكان ذلك مشجعاً للرابطة على المضي في طريقها الذي رسمته لنفسها ، فدعت الى عقد مؤتمر تبحث فيه شؤون الطفولة المعذبة في أهم نواحيها . وقد تم ذلك على الوجه المرضي إذ اقيم « يوم الطفولة » وحضره جمهور عظيم من العلماء والفضلاء والادباء ورجال التربية واساتذة الجامعة وفضليات السيدات والاوانس وكثير من طلبة معهد التربية ، وخطب صفوة من المتوفرين على دراسة مسائل الطفل خطباً نفيسة عزز أكثرها بعرض الافلام السينمائية مما كان له أكبر الأثر في نفوس الحاضرين . ورغبة في تعميم الانتفاع بهذه المحاضرات والدراسات عملت الرابطة على نشرها في المقتطف الأغر واخراجها في رسالة على حدة راجية أن يكون لها من حسن الاستفادة مثل ما كان لسابق الرسائل التي اخرجتها الرابطة في ضروب الاصلاح الاجتماعي

والله الهادي الى سواء السبيل

سيد مصطفى
السكرتير العام

يوم الطفولة

للدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

في مثل هذا اليوم من العام الماضي دعت رابطة الاصلاح الاجتماعي الى عقد مؤتمر للطفل بحثت فيه اهم المسائل المرتبطة بهِ وقد لاقى هذا المؤتمر نجاحاً كبيراً اذ وجّه النظر الى ما لهذا المخلوق الضعيف من اثر كبير في تكوين الامة فاذا قيل ان الطفل هو أبو الرجل او ان الطفل هو عماد المجتمع حتى انهُ يلقب « بصاحب الجلالة الطفل » فلنصدق هذا القول ولنؤيده بالعمل على حماية الطفولة من جميع الاخطار التي تهددها حتى نغذي المجتمع بأيدٍ عاملة قوية وأدمغة صحيحة متزنة . هذا هو اهم ما تعنى بهِ بلاد العالم المتمدين في الوقت الحاضر الذي اصبح من اهم مميزاته دراسة الاطفال والعمل على اسعادهم حتى يخرج منهم جيل صالح سليم العقل والجسم ولهذا سمي هذا العصر بعصر الطفل The Century of the Child ولقد تغيرت في السنوات الاخيرة القواعد الخاصة بتربية الاطفال ورعاية صحتهم عما كانت عليهِ من قبل فبينما كان الاطفال يعاملون أولاً معاملة الكبار وتطبق في تربيتهم وتهذيبهم وعلاج أدوائهم نفس الوسائل التي تطبق على من تعدوا سن الطفولة أصبح للصغار الآن كيان خاص ومقام يختلف كل الاختلاف عن مقام الكبار فللاطفال مشكلات خاصة تحل بوسائل تصلح لهم ولتربيتهم أساليب خاصة ولعلاجهم مما ينتابهم من أمراض طرق علاج خاصة ، تجدون هذا ظاهراً في نواحٍ متعددة ففي الطب اصبح علاج الاطفال اختصاصاً قائماً على حدة لهُ من القواعد والاساليب الحديثة ما لم يكن معروفاً من قبل

وفي التربية والتعليم وضعت طرائق بعينها للاطفال بل وضعت طرائق لكل طبقة منهم تغاير الطرق القديمة فانتهى عهد التخويف والتأديب الجسماني ولم يعد المعلم يطبق ما كان يقولهُ الآباء من قبل في سبيل التوصية على أولادهم « اضرب وأنا أداوي » بل اصبح هم المعلم ان يغرس في نفوس الاطفال ثقتهم بأنفسهم ومحبتهم للعلم والمدرسة — كذلك تغيرت معاملة الاطفال اذا ارتكبوا جرماً يستدعي محاكمتهم او عقابهم فافردت لهم محاكم خاصة لا علنية فيها بل اشبه ما يكون بمجالس عائلية يتبين فيها القاضي حالة الطفل وظروفه وبيئته والاسباب التي دفعتهُ الى الاجرام ويبحث عن طريق لانقاذه واعادته الى الطريق السوي ولا يقف في سبيل القاضي للوصول الى هذا الغرض ارتباط الطفل باسرته بل أصبح هذا الارتباط ثانوياً ازاء الغاية التي تنشد من انقاذ الطفل فيستطيع القاضي في البلاد الغربية ان ينتزع الطفل من السلطة الابوية غير الرشيدة ويقضي بسقوطها وهذا نظام لم يقتبس بعد في مصر مع شدة حاجتنا اليهِ اذ كثيراً ما نرى ان السبب في فساد كثير من الاولاد او ضلالهم يرجع الى القدوة السيئة التي يجدونها من اب

مجرم او غير صالح للابوة . واذا ظهرت حاجة الطفل الى الاصلاح او التهذيب فانهُ يوضع في دور خاصة لذلك هي دور الاصلاحيات ولا يرسل الى سجون عادية كما كان الامر قبلاً. وكذلك اصبحت للاطفال نظم تتفق وحاجتهم . على ان هذه النظم ذاتها اصبحت تختلف باختلاف طبقات الاطفال اذ اصبح لكل نوع من الاطفال اسلوب خاص يتلاءم مع احوالهم فهذا طفل شاذ لضعف في عقله او قوة تفكيره او لضعف في بصره او سمعه او لعي في نطقه وبذلك لا يمكن ان يكون في مستوى واحد مع غيره من الاطفال الاقوياء بل يجب ان يدرس سبب شذوذه ويعالج من اساسه . ستسمعون الآن ابحاثاً في شؤون بعض انواع الطفولة المعذبة وستتبينون منها أن لكل حالة علاجاً خاصاً — وما المشكلات التي ستعرض علينا الليلة الا قليل من كثير والغرض من عرضها اثارة اهتمام الجمهور بمسائل الطفولة . فقد آن الوقت أن تنظم دراستها في مصر تنظيماً صحيحاً ويا حبذا لو انشئت ادارة خاصة تضم كل ما يتعلق بشؤون الاطفال من صحة وتهذيب وقضاء واصلاح ويتولى العمل فيها اخصائيون يستطيعون بحث مسائل الاطفال بطرق علمية صحيحة — وليس هذا بأمر جديد بل قد قامت بعض الدول مثل ايطاليا بانشاء مثل هذه الادارة لتجعل جميع شؤون الاطفال في يد من يحسنون فهمها وعلاجها حتى ان الدفاع عن الاطفال في القضايا قصر على طبقة خاصة من المحامين لهم من الخبرة والدراسة والاستعداد ما يمكنهم من فهم الاطفال وعرض مسائلهم عرضاً صحيحاً على القضاء . وقد انشئت في اوربا في هذا العام هيئة دولية تسمى بالحزب الاجتماعي للطفل Social Party of the Child بمقتضى قرار أصدره مؤتمر دولي عقد في صيف هذا العام في كوبنهاجين ويقصد بهذه الهيئة ابراز مقام الطفل وما لهُ من شأن عظيم والعمل على ايجاد اخصائيين يتولون شؤون الاطفال ويدافعون عنها في الحكومات وفي الهيئات التشريعية المختلفة كمجالس النواب حتى يأتي اليوم الذي تنشأ فيه في كل دولة وزارة للطفل

هذا هو مبلغ اهتمام القوم في اوربا وقد آن الوقت لمصر ان تشترك بنصيب في هذه الحركة حركة العناية بالطفل واني لارجو ان يتاح لنا في القريب العاجل عقد مؤتمر بل جملة مؤتمرات تمثل فيها جميع الهيئات المشتغلة بمسائل الاطفال من حكومية وغير حكومية وتقوم بمباحث منظمة في أهم المسائل المتعلقة بالطفولة في مصر ثم تقدم اقتراحات عملية لعلاج ما يحتاج الامر الى علاجه وتنظيم النواحي التي لا تزال في حاجة الى التنظيم وهي كثيرة فاطفال القرى واطفال الشوارع في المدن والاطفال الشواذ وغيرهم — كل هذه مسائل تحتاج الى درس بل الى درس عميق طويل حتى تتكشف اسبابها ويوضع لكل منها علاج يجتث الشر من اصوله . فاذا وفقت رابطة الاصلاح الاجتماعي الى تنمية روح العناية بالطفولة في مصر فانها تكون قد اسدت الى البلاد خدمة جليلة في ناحية من اهم نواحيها الاجتماعية . سدد الله خطى العاملين لرفعة الوطن وهداهم سواء السبيل

الطفل الشريد

لكامل كيلاني

سيداتي سادتي : اتأذنون لي — متفضلات ومتفضلين — في أن أصارحكم ، فأقص عليكم من امري حديثاً عجباً ؟ لقد شعرت بحيرة عجيبة حين مضيت افكر في هذا الموضوع ، وتشعبت امامي اطرافه ،وكادت تلتوي طرائق البيان له ، وأساليب التفكير فيه ، على الرغم من وضوحه ، وأكاد اقول على الرغم من بداهته

ولقد قلت في نفسي : اي طفل شريد يعنون ؟ واي طفل طريد يريدونني على التحدث في أمره ؟ ان كل من في الحياة — اذا امعنا في الفكر ، وأطلنا التأمل — ليس الا طفلاً شريداً ، فاذا ابى أحد واستكبر ، ولم يرض ان يكون طفلاً ، فهو رجل طريد شريد

فأي هؤلاء الاطفال والرجال يعنون ، والى اي نوع من التشريد يقصدون ؟ فان ضروب التشريد — في بلادنا التاعسة — أفانين اعندنا مشردون في الثقافة ، ومشردون في الاخلاق ، ومشردون في العقائد ، ومشردون في كثير من ألوان العيش وأسباب الحياة . . . .

كلاً لن يقتصر التشريد على الصعاليك والمفلوكين ، كما يتوهم المفكر أول وهلة ، بل ان تشرد هؤلاء هو أيسر مراتب التشرد ، أما عليا مراتب التاعسين المشردين الغرباء في هذا العالم ، فهي وقف على افذاذ الفكر ، واساطين المعرفة من عباقرة الجنس الانساني الجاحد الكنود

وقديماً قال شاعر في وصف عبقري من اولئك الأفذاذ : غرَّبته اخلاقه الزهر فيهم . . . .

وقال أبو العلاء : أولو الفضل في اوطانهم غرباء   تشذ وتنأى عنهم القرباء

ثم قال وأبدع : متى ما يأتني اجلي بأرضي   فحيِّ على الجنازة للغريب

ولعلكم تذكرون ان ابن الرومي قد جمع في حياته بين تشريد النفس والجسم ، وقضى حياة الغريب وهو في أهله ، وعاش عيشة البائس وهو في وطنه وعشيرته . حتى بلغت صيحاته آذان العالم العربي في عصره وما تلاه من العصور الى اليوم ، وان لم تجد سميعاً من أقرب خلصائه وأصحابه الأدنين في ايام حياته . أليس هو القائل :

حرمت في سني وفي ميعتي   قراي من دنيا تضيفتها

لهفي على الدنيا، وهل لهفة   تنصف منها ان تلهفتها

بلى! وهو القائل : ألا أين عنى الصائنون لصحتي   فهاهي قد اضحت أذل من النعل

بلى! وهو القائل : لا تعجبنّ لمرزوق أخي هوج   حظًّا تخطى اصيل الرأي طرافا

فخالق الناس اعراء بلا وبر   كاسي البهائم أوباراً واصوافا

ثم هو القائل المبدع : ان للحظ كيمياء اذا ما مسّ كلباً أحالهُ انسانا

ماذا ؟ أتراني احاضركم في ابن الرومي الشاعر الشريد في هذه الليلة ؟ لا ، فلنجتزئ بهذا القدر ، وليشرد بنا القول وجهة أخرى ، علّنا نصل الى الطفل الشريد الذي خصصت له الرابطة بضع دقائق للحديث عنهُ ، فأضعت أكثرها في غير ما أرادت الرابطة

سيداتي سادتي — إن الطفل الشريد الذي نحدثكم الليلة في أمره ، هو الطفل البائس الذي حرم نصيبه من مائدة الحياة ، وأغفل حقه في طيباتها ولذائذها ، وإن ظفر من صنوف الشقاوة فيها بأوفر قسط ، وأوفى حظ . ولعل أسعد هؤلاء المشردين حظّاً من يظفر بركن مظلم في في معارج الطريق ينام فيها آمناً لا ينالهُ من الشرطة العنت والتفزيع

وعندي أن كل وصف لهذا الشريد الذي ترونهُ حائراً بمدرجة الطريق ، لن يفيه حقه مهما تفنن الواصف وأبدع ، واستمد ما شاء من النعوت والاوصاف

وعندي كذلك أن كل نداء يتوجه بهِ دعاة الاصلاح الى استدرار عطف القادرين ، هو نداء قليل غناؤه ، ضعيف أثره ، فقلما يجدي الوعظ المجرد من إشعار السامع بالفائدة العملية التي يجنيها من اتباعه لما يراد عليهِ ، أو الخسارة المادية التي تلحقهُ اذا خالف الواعظ الى ما نهى عنهُ

فواجب الداعين الى الاصلاح — فيما أرى — أن يتركوا الوعظ قليلاً ، وأن يوجهوا جهودهم إلى شرح الفوائد التي تعود على المجتمع من إغاثة الطفل الشريد ، والمضار الهائلة التي تهدد الوطن من جراء إهمالهِ وإغفال شأنهِ . واليكم أقصوصة صغيرة تمثل لكم ما أعنيه :

كان عند أحد الملوك وزة من خالص الذهب ، عيناها لؤلؤتان ، من أنفس اللآلئ . وعنّ لهُ ان يتفكه متفنناً في هبة الإوزة لمن يقص عليهِ قصة مكذوبة على أن يرغمهُ على ان يصارحهُ بانهُ كاذب فيما قص. فجاءه رجل يخبره أنهُ ركب جملاً ذات يوم ولم يكن معهُ الاّ تمرة واحدة ، فأكلها ، وألقى بالنواة ، فوقعت على رأس الجمل ، فاذا هي لساعتها نخلة باسقة ، واذا ثمرها جنيّ ، فصعد اليها ، وظل يأكل ما شاء ، ويلقي بالنوى في الصحراء يمنة ويسرة ، فلما عاد من رحلتهِ وجد الصحراء حاشدة بالنخيل المثمر ، فابتسم الملك ، وقال : جلت قدرة الله ! .. فرجع الرجل يائساً ، فجاء ثانٍ يخبر الملك بانهُ خرج للصيد ذات يوم ، فأبصر ظبية شاردة ، فصوّب اليها سهماً ، فانفتلت يمنة ، فحاد اليها السهم ، فانعدلت يسرة ، فسايرها السهم ، فقفزت فتابعها السهم قافزاً ، ثم هبطت فهوى السهم اليها فأصابها ، فقال لهُ الملك : ما أبرعك صياداً . . . . ! وجاء ثالث ورابع وخامس وآخرون رجعوا من قصصهم بحظي صاحب الجمل والصياد ، وبعد حين جاء الملك رجل أفاق خبير باقتناص الفرص ، ومعهُ جرة كبيرة . فأخبر الملك بأن اباهُ كان صديقاً حميماً لوالد جلالته ، فلما نشبت الحرب بين هذه الدولة والدولة المجاورة ، وأعوز الملك الراحل

المال ، اقترض من أبيهِ ملء هذه الجرة ذهباً ، على أن يردها اليه ، فان لم يفعل كانت ديناً في ذمة ولده . فلما انتهى من قصتهِ لم يستطع الملك ان يقره على ما قص ، كما اقر الكذبة السابقين ، فعاجله بقولهِ : أنت كاذب ! فقال لهُ الرجل من فورهِ : عليَّ بالإوزة ! فقال الملك : دونك فخذها . وهكذا عرف هذا الرجل من اين يؤخذ الإوز ! ....

ومغزى هذه الاسطورة الطريفة ان المرء — كما قلت لكم — لا يبالي الأمر ، مهما يجل خطره ، إلاَّ اذا اتصل الامر بذات نفسه وذات ماله من قريب !

وأي جدوى تعود على السامع حين انشدهُ قول المعري :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته فقير معرّى او أمير مدوّج
وقد يرزق المجدود أقوات امة ويحرم قوتاً واحد وهو أحوج

أو قول القائل : كان يحيي ميتاً من عطش فضل ما أوبق ميتاً من غرق

إنهُ ليتأثر زمناً طال أو قصر ، ثم يذهب تأثره بعد حين الى غير عود !

ولا شك ان الأحجى ان يسلك الدعاة الى الاصلاح طريقاً اخرى ، هي — عندي — اهدى واقوم ، ولأضرب لحضراتكم مثلاً يوضح ما اعني :

يقول بعضهم : لقد انشأت الحكومة جمعية للرفق بالحيوان ، فهلا فكرت في انشاء جمعية للرفق بالانسان ؟ حتى تؤوي أولئك المشردين التاعسين . ولو شئنا ان نجاري الوعاظ والدعاة في هذا الاسلوب لاربينا ، وقلنا : ولقد أنشأت الحكومات جماعات للرفق بالنبات وحفظه من الآفات ، وإنقاذه من غوائل الجراد والحشرات . فما بالها تقسو على هؤلاء الاطفال المشردين ولا تعنى بأمرهم

هذا اسلوب — كما ترون — خيالي فياض بالشاعرية ، ولكننا نسائل انفسنا ، اذا توخينا الجد : هل تحمي الحكومات النبات رحمة به ؟ ام تحميه لأنهُ عماد الغذاء ، ومصدر الثروة ، فإذا استولت عليهِ الآفات وفتكت به ، كانت المجاعة المخيفة ، وكان الفتك الذريع بالاهلين ؟

الجواب من الوضوح بحيث لا يحتاج الى بيان ، فواجب المصلحين ان يتجهوا بجهود المخلصين من القادرين الى العناية بالطفل الشريد ، بحجة ما يهدد المجتمع الانساني من الاخطار الهائلة التي تحل به اذا لم يعن اشد العناية بحماية الامة من شر التشرد . فلا بد من تأمين الحقل الآدميّ من اخطار المشردين ، كما أمنت الحقول النباتية من اخطار الجراد والدود . واذا جاز للمعري ان يقول :

شر اشجار علمت بها شجرات اثمرت ناسا

جاز لنا ان نستعير تعبيره الطريف ، فنقول ان اول واجب على الحكومات ، هو ان تؤمّن هذه الشجرات التي اثمرت الناس ، وأن تحوطها برعايتها من خطر الشجرات السامة والآفات الراعبة الاخرى وأي سم أفتك من سم تلك الجراثيم الانسانية التي اذا اهملنا امرها ، وضنّ عليها القادرون

منا بفتات المائدة ، ونبذوهم من المجتمع ، وشردوهم في الطريق ، ولم يعنوا بامرهم صغاراً ، أحفظوهم كباراً على البيئة الانسانية ، ونزعوا من صدورهم حب الخير ، وعرفان الجميل ، فامتلأت نفوسهم حقداً على العالم كله . ومن ثم تنشأ الحوادث التي نقرؤها كل يوم في صحفنا ، وهي متشابهة ، تكاد تدور حول محور واحد وهو مقابلة الاحسان بالاساءة ، فمن ضيف يقتل من آواه ، ومن خادم يفتك بمولاه ، ومن أفاق وشريد يحترفان السطو والنهب والاعتداءات المنكرة ، وما الى ذلك من أفانين الاجرام والتنكيل . واني لأتمثل في كل طفل شريد قصة الجني التي الخصها لكم فيما يلي :

كان من عادة صياد طاعن في السن ان يرمي شبكته كل يوم في الماء ، ويرجع فرحان بما يجيء به ، ففي صبيحة يوم طرح شبكتهُ على عادتهِ ، فلما جذبها وجدها ثقيلة ، فبذل أشد الجهد في إخراجها حيث تمكن من ذلك بعد عناء لا مزيد عليهِ ، فاذا بالشبكة قمقم من نحاس اصفر مرصّص ، فقال في نفسهِ : لعلَّ في القمقم كنزاً ، ثم عالج الرصاص حتى نزعه فارتفع غطاء القمقم عن دخان كثيف لم يلبث ان تجمع واكتمل مارداً يروع الناظر ، فقال للصياد : اختر لك ميتة ! فقال لهُ : اهذا جزاء احساني اليك باخراجك من القمقم واطلاقك من المحبس ؟ فقال لهُ : لقد حبسني وزير النبي سليمان لعصياني اياه منذ اعوام مئات ، فقلت في أثناء المائة الاولى : من اطلقني تكفلت له بكنوز الارض اضعها بين يديه ، فلم ينقذني احد ، فقلت في اثناء المائة الثانية : من اطلقني اغنيته وكفيته وما تركت له حاجة الاّ قضيتها مهما تكلفني ، فما عبأ بي احد ، فقلت في أثناء الثالثة وقد عيل صبري ، وامتلأت غيظاً من الناس : من انقذني قتلته انتقاماً من بني آدم اجمعين !

هذه هي قصة الجني ايها السادة وايتها السيدات ، وما أشبهها بقصة الشريد ، يقول لنا في طفولته : أنقذوني اكن لكم خادماً حياتي كلها ، اقيلوا عثرة والديّ بي ، فلعلي اكون في مستقبلي مقيلاً عثرات الامة في اخطر المزالق . . . . ثم لا يزال الطفل الشريد يصيح لسان حاله بهذا ، حتى اذا لم يجد منقذاً له ، ولا مقيلاً اياه ، امتلأ قلبهُ بالحقد على الانسان ، وغلت في دمه معاني الانتقام لطفولته المعذبة ، فيكون رجلاً كل خواطره حرب على المجتمع ، واغتيال لما تناله يداه منهُ .

واول واجب علينا وعلى كل من يتصدى للاصلاح ، هو ان نعنى بامر هؤلاءِ المردة المشردين وهم في اول مراحل الحياة ، قبل ان يستفحل الشر في صدورهم ، ويكبر الاثم بين جنوبهم ، ويكفروا بكل معاني الرحمة والعدالة ، فيقسموا : ليقتلنّ كل من استطاعوا لهُ قتلاً ، وليملؤُنّ اسواق الناس اعتداء وسلباً ونهباً . فعلينا ان نعمل على ان يكونوا قوى عاملة على خير الامة واسعادها ، بدلاً من ان يكونوا ادوات شريرة فتاكة

أمامك فانظر : أي نهجيك تنهجُ طريقان شتى : مستقيم واعوج ...

الطفل اللقيط

للدكتور علي فؤاد بك

مدير قسم رعاية الطفل بوزارة الصحة

سادتي — سمعتم الليلة قصة الشريد فهزت مشاعركم واستدرت دموعكم، والآن احدثكم عن طفل آخر فاق زميله الاول في الشقاء لا يعرف ابًا ولا امًا ينتسب الى احدهما بل كل آماله ان ينتسب الى الانسانية الظالمة المخطئة . يستصرخكم هذا الطفل من ساعة ولادته ويستنزل با لامه ومحنته الغضب والمقت واللعنة على من كانا السبب في شقوته وتعاسته

سادتي — اللقيط احق من يتمثل ببيت ابي العلاء حيث يقول : —

هذا جناهُ ابي عليّ وما جنيت على احد

ألم ينبذ نبذ النواة من ام قسا قلبها فتركتهُ في الطرقات عديم الحول والقوة ؟

ألم يحرم من حنان الاب وعطف الاسرة؟

ألم يفقد حبور الاخوة والاخوات، والاصدقاء والصديقات ؟

ألم يفقد صلته بالمجموع وانتسابهِ للشرف ؟

ألم يسبغ عليهِ لقب مرذول فدعي ابن السفاح ؟

هذا هو اللقيط الذي عرفته حكومتنا بانهُ كل من وُجد على قارعة الطريق، وابن سفاح ووليد خطيئة ومهده الاول ارصفة الشوارع والطرق وصناديق القمامة . كل حقه على الحكومة ان يسلمهُ من يجده للبوليس في المدن او للعمدة في الارياف كي يحرر بشأنهِ المحضر اللازم فان اخذت الرأفة بهِ من وجده اعطي اليه والاّ فانهُ يسلم الى احد المحسنين ممن حسنت سمعتهم وكان قادراً على رعايته والاّ ارسل الى احد الملاجىء للاهتمام بهِ الى حين .

سادتي — لكل لقيط سره الخاص . ولكن قصة الجميع تنحصر عن اصل ثابت ورواية تكبر وتصغر بحسب ما وضعها مؤلفها بطلاها رجل وامرأة دفعتهما عواطف الشباب والشهوة الجامحة الى تيار ينتهي الى هوة العار والتعاسة والشقاء والذلة والمسكنة لهذا الطفل الذي من يوم ولادته تسلمتهُ المراضع وتحكم في اطعامهِ ثديها بدون رحمة ولا حنان. هي مكرهة اذ لولا الحاجة ما كشفت عنهما لغير ابنها. ولا تنظفهُ الاّ مضطرةً حتى الماء الذي بلا ثمن لا ينالهُ الاّ بعد ان تأخذ الرحمة احد المارين بهِ . يبيت الليل يبكي فلا يجد من يواسيه . حتى اذا كبر وترعرع ترعاه القوة الرحمانية

خاف أقرانه منهُ فابتعدوا عنهُ لما يسمعونه من تسميتهِ بابن الحرام. وكذلك في المدارس

سادتي — لا تتصوروا أني أبالغ في ما قلتهُ بل لم أحدثكم ان بعضهم يتصورون انهُ اذا اصبح الصباح عليهِ ونظر في وجه أحدهم كان يومه يوم شؤم عليهِ . بل يعتقد البعض انهُ اذا وجد في منزل جلب اليهِ الخراب

طفل هذا حاله كان فيما سبق يتحتم عليهِ ان يخرج الى الشوارع لا يلوي على من يؤويهِ فيكون من المتشردين البؤساء . لا من المتشردين فقط

أسائلكم . من المتسبب في شقاء هذا الطفل الذي لا يفصله عن أشرف الابناء الاَّ نقطة واحدة هامة هي الزواج ليكون زينة الحياة الدنيا ومحط آمال أسرة واعزاز أخوة ومفخرة أصدقاء

أسائلكم عن الجاني . هل هو الرجل ام المرأة؟ سيقول البعض هو الرجل اذ بدونهِ لا تلد المرأة . وسيقول فريق هي المرأة اذ بدونها لا يكون حمل . وفريق ثالث يشرك الرجل والمرأة في الجرم دون ان يعين أيهما اكبر وزراً وأعظم جريرة

ولكني لا أتردد فيما اصارحكم بهِ من رأي فأقول : —

حقيقةً ان الرجل شريك في الجرم فالمرأة باستسلامها وضعف ارادتها وخلقها وطيشها وعدم تبصرها واستهتارها مكنت احد الذئاب البشرية من جريمة يذهب ضحيتها طفل بريء. فهذه الأم وهذا الاب مجرمان في حق الانسانية والامومة والطفولة . ولكل عقابه في الدنيا وعقاب الام يبدأ من يوم شعور المرأة بالجنين فهي لا تفتأ تعمل جاهدة للخلاص منهُ . تجتهد في اشهر حملها الاولى في ازاله بشتى الوسائل فمن دواء مر الى اشربة ضارة ومن دق على البطن وقفز ووثب واجهاد في حمل اثقال الى تعرض للبرد والحر مما يعرضها لكثير من الاخطار. فاذا تشبث الطفل بمكانهِ وأبى ان يغادره راحت كل هذه الجهود عبثاً

ماذا تعمل هذه المرأة الآن وشبح العار واقف بالمرصاد . انها تقاسي من الآلام النفسانية فوق ما تحتمله اعصابها وقواها فتجد الامراض والافكار السوداء سبيلاً اليها . ويتغير تبعاً لذلك نظرها الى الحياة فكثيراً ما تقدم على الانتحار لتضع حدًّا لكل ذلك . ولكن الطبيعة تقسو عليها فتمنيها بزوال آلامها ومخاوفها عند الوضع اذا عرفت كيف تخفي عن العيون سرها . لذلك نراها ترجع عن فكرة الانتحار وتبدأ في خلق الاسباب للابتعاد عن الناس وتتحاشى مقابلتهم فتنزوي بين الجدران . تشد بطنها بالاربطة وتتفنن في الحيطة وتبالغ في كتمان امرها الى اقصى حد تستطيع معهُ اخفاء حملها عن المحيطين بها كما سأبينه لكم بالحوادث — الواقعة الحقيقية . هذه الآلام المبرحة تستمر شهوراً طويلة ليعقبها ما هو شر منها حين يأتي المخاض . في هذه الساعة الرهيبة تستجمع كل قواها الباقية وتتذرع بالمعاذير لتلد في مكان بعيد لا ينم على فعلتها .

تكبت آلامها فلا تتأوه ولا تئن خوفاً من سماع صوتها وانكشاف امرها . فاذا انتهت هذه الآلام المبرحة وهذا العذاب النفساني أخذت تفكر في اخفاء عارها فألقت بهِ في سواد الليل وغفلة العيون على قارعة الطريق وولت هاربة تظن في كل طرقة على الباب يد البوليس المؤذنة بالقبض عليها . اما المجرم الثاني فله من عذاب الضمير اكبر عذاب طول حياتهِ . ومن لعنات ابنه عليهِ حتى بعد مماته ما فيه الكفاية .

سادتي : — هذا ملخص بسيط لحياة حمل مستكن قدر لهُ أن يدعى لقيطاً . والآن انتقل لمسألة أخرى على جانب كبير من خطر الشأن وهي : —

ماذا اعددنا لهذا الطفل البريء وكيف نعوضه ما سلبتهُ يد الشر والفجور

هذا الطفل بريء لا ذنب له وهو ان كان غريباً عن المجتمع لما يحوطه من سر فهو على كل حال ابن الانسانية له حقوق اهمها : —

اولاً — ان نعمل على بث روح الفضيلة في نفوس الشباب وزرع بذور الدين لتثمر ثمرتها فلا تقع امثال هذه الجرائم الشنيعة مستقبلاً .

ثانياً — هذا الطفل له استعداد جميع الاطفال الآخرين فهو مساوٍ لهم في القوة والفكر والذكاء فيجب ان نفسح له طريقاً بين الآخرين .

ثالثاً — هذا الطفل البريء يجب ان يعوض فيساهم الاغنياء وأهل البر في رعايته الى جانب ما تقدمهُ لهُ الحكومة من ملجأ يأوي اليهِ فيتعلم ويعيش عيشة فاضلة .

رابعاً — يجب ان يكون هذا الطفل محل عطف بعد ان فقد كل شيء يجب ان نمنحهُ عطفنا ورعايتنا .

ويسرني جداً ان اقول لكم ان كثيراً من هؤلاءِ الاطفال في الملجأ الذي اشرف على اطفاله يجد من عطف اولي الامر ما يحسده عليهِ الآخرون وكثيراً ما يتبنى بعض اهل اليسار لقيطاً وينزل لهُ بمحض ارادتهِ عن املاكه الواسعة بعد ان يبذل العناية في تربيتهِ

ان في بعض هؤلاءِ اللقطاء ذكاء يجب ان يستثمر ونفوساً غضة يجب ان تنشأ على الخير والفضيلة فالواجب يحتم علينا ان نهتم بهم لنكفر بعملنا الخيري عن جريرة الآخرين

والآن اقدم لكم فلماً سينمائياً عن اطفال الملجأ يبين لحضراتكم مبلغ ما نقوم بهِ نحوهم اسأل الله ان يوفقنا جميعاً للخير والسلام

الطفل اليتيم

للسيدة نبيهة علي

سيداتي . آنساتي . سادتي : قد تفضل من سبقوني بمحاضرتكم الليلة فذكروا الكثير عن الشريد واللقيط من النواحي النفسية والعلمية والصحية وأفاضوا في بيان ذلك التشرّد وقد وفّوا الموضوع حقه . لذلك رأيت ان أختصر عجالةً تستحق التطويل لولا ضيق وقتكم الثمين . تلك العجالة عن اليتيم . الذي هو أقوى اسباب التشرد والاجرام . فاللقيط تأويه ملاجىء حكومية ترعى مهد طفولتهِ وتهيء لهُ عيشةً صالحةً . أما اليتيم الفقير فلا ناصرَ لهُ ولا معين غير الله تعالى الذي جعل في قلوبكم الرحمة وأنزل فيها الحنان . لتشملوه بمجهودٍ عمليّ ملموسٍ يقيهِ التشرد والاجرام . ويخفّف من ألم نفسهِ فيصرفها عن الطالح ويُغذيها بحب الغير والعمل لخيرهم . قال تعالى (يسألونك عن اليتامى قل اصلاحٌ لهم خيرٌ) صدق الله العظيم

حقّاً ان بيان القرآن لسحرٌ حلال — إيجازٌ كلهُ حثٌّ وأمرٌ لاصلاح اليتيم غنياً كان أو فقيراً لان الآية الشريفة لم تحدّد نوعَ اليتيم . فاليتيم الغنيُ يحتاج الى اصلاح حالهِ وتربيتهِ وقد حماهُ الشرع ممثلاً في المجالس الحسبية . اما اليتيم الفقير البائس فلا حول لهُ ولا قوة ولا معين سوى محسنٍ كريم وعطوفٍ رحيم . ورُبَّ ذي يُتم لأم او اب اذا وصّيَ عليهِ امينٌ يخاف الله لم يذق في يتمهِ لوعة الاسى كما ذاقها حرّى يتيمُ الفقر

ودَّ اليتيم لو ردَّ عن امهِ او ابيهِ بما يستطيع غائلة الموت حتى يتربى في ظلهما ويعيش بمجهودهما وحتى لا يكون كلاًّ على المجتمع يستجدي الاكفّ لان ذلك كبيرٌ على نفسهِ . رأيت طفلاً مرةً يبكي بحزنٍ وحرقة في وحدة فأزعجت عليهِ خلوتهُ وسألتهُ « ما الذي يُبكيكَ ايها الصغيرُ ولا ينقصك شيءٌ في الحياة ؟ » فقال « يُبكيني تعبُ امي ونضالها في الحياة لاستكمال مطالبي واستدرار عطفٍ من بيدهِ الامر لانني يتيمٌ ! ! ويؤلمني جدّاً ان اسمع انني يتيمٌ » فشاركتهُ بدمعةٍ اخفيتها عنهُ وطيّبتُ خاطره قائلةً « اعتمد على اجتهادك وستصبح رجلاً في المستقبل فتريحها من هذا التعب وتعوّض عليها ما فقدتهُ من راحة وسعادة عيشة راضية هادئة مطمئنة تلك التي يعيشها الطفل المتمتع برعاية الابوين الصالحين المثقفين . فينشأ ثابت الجنان مطمئنّ النفس كامل العقل . نشيط الجسم متوقد الذكاء يعيش في جو كلهُ مرح وسعادة فهنيئاً لهذا الطفل الذي حباه ربه بتلك النعم . وما أشقى واتعس حياة اليتيم . اليتيمُ عضو الامة المسكين الذي قست عليهِ الحياة قسوةً عاتية فصدمتهُ بموت امه او ابيه او كليهما فانتزعت منهُ مصدر الرحمة وينبوع الحنان والرعاية . وبدّلت سعادته بؤساً ونعيمه شقاءً فاصبح يضطرب ويقسو وتلتهب في نفسهِ جذوةُ الانتقام وتنبت في صدره بذور الحقد والشكِ لا سيما إذا دخل عليهِ دخيل

بعد فقد احد الابوين فتثور نفسهُ . فاما ان يصير خنوعاً ذليلاً كسيرَ القلب ضعيف الارادة . واما ان يصبح متمرداً وقد يجرُّه التمرد الى التشرد والاجرام . وقد يرجع احد الأبوين الذي لم يمت كثيراً من الطمأنينة الى نفس اليتيم بما يبدي من عطف وزيادة في العناية به والسهر على مصلحته فتهدأ نفسهُ ويخف بعض ألمه ولوعته . ولليتيم الغني في ذلك حظ اوفر من اليتيم الفقير

ولو بحثنا في اسباب إجرام من آوتهم الاصلاحيات . لوجدنا اكثر الحالات هناك ناشئاً عن فقدان احد الابوين والاتيان بدخيلٍ على الطفل يسلبهُ حنان الوالد الباقي له . فينقمُ على المجتمع ويحاول الانتقام منهُ عن طريق الاجرام

وما من عابرِ سبيلٍ قط او سائرٍ في طريق من طرق العاصمة . إلاّ وافسد عليه جمال الطريق . إما جمعٌ من ابناء الشارع وإما شرذمةٌ من بناته . وليت القبحَ مظهرهم فحسب . إنما اولئك جموعٌ نفثهم الرذيلة وانحطَّت مداركهم بعد إذ تدهورت اخلاقهم فجاسوا سبل الضلال. وسبرُوا غوْرَ كلِّ قبيح وبذا اصبح هذا النبتُ الشائن وذاك الغراس المعيب خطراً داهماً على مظهر الامة ومدنية البلاد — هم اولاء اليتامى الذين لا عائل لهم . او من حكمنا ظروف الفقر القاهرة بالتفرقة بينهم وبين ابويهم . فهل نكون لهم او عليهم ؟ وهل نتركهم هائمين على وجوههم يتضورون جوعاً وعرياً . او نعمل على ايوائهم ومبرتهم ؟

انتم وازواجكم واولادكم في ظلال بيوتكم . على الارائك تتكئون . لكم فيها دفءٌ ونعيمٌ مقيم . لكم في حدائقها فاكهة ولكم ما تشتهون — إذا كان هذا حظكم السعيد من الحياة الدنيا فادخروا فعل الخير للآخرة عملاً بقوله تعالى « ولا الآخرة خيرٌ لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى . الم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فاغنى . فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر واما بنعمة ربك فحدِّث ». ما كان اليتيم ليرضى لنفسه اليتمَ والحرمان لو كان مخيراً ولكن ذلك تقدير العزيز العليم . (ليبلوكم ايكم احسن عملا)

فتسابقوا إلى البر . واجمعوا شتات اليتامى واسقوهم كأس العطف مترعاً . وكونوا لهم آباء وضعوا نُصب اعينكم فعل الخير كما فعل الرسول اذ مرّ النبي صلى الله عليه وسلم في يوم عيد بصبيةٍ يلعبون ويمرحون — ووجد بينهم صبيًّا ينحى عنهم ناحية ولمح على وجهه الكآبة فسأله « لِمَ لمْ تشاركهم فرحهم بالعيد ؟ » فقال « لاني يتيم » . فضمه النبي صلى الله عليه وسلم الى صدره وقال له « ايرضيك ان اكون اباك وعائشة امك وفاطمة اختك؟ » واخذه وآواه ورباه

وارحمتاه لليتيم ان لم يعد يتذوق للرحمة مذاقاً . ولا يستسيغ للعطف طعماً ان يحمل بين جنبيه من العذاب الواناً ومن الشقاء انواعاً . وما ذلك الاّ لموت عائله . لقد تقطعت به الاسباب واعوزته الوسائل وسدت في وجهه السبل ولم يبقَ منها الاّ سبيل احسانكم . يصرف جل

وقته في بكاء وحنين وامل ورجاء . يبكي عائله الذي كان بالامس واليوم يطويه الرمس . تراه يلاعب قرينه ويضاحكه وما بقلبه شعاع المرح لقد ابى عليهِ ثغرُ الزمان الا بتسام له فاختطف عائلهُ وعمادهُ في الحياة . لقد غابت شمس سعادتهِ في أفق من دمٍ بعد ان كانت في أفقٍ من نورٍ متلألىءٍ وضاحٍ . فيا ايها الاباء امسحوا دموعَ اليتامى البؤساء وارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء. ولو تراحمَ الناسُ ما كان بينهم جائعٌ ولا عريان . ولا مظلومٌ ولا مغبون، ولأَقفرت الجفونُ من المدامع واطمأنت الجنوبُ في المضاجع ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو الصبحُ مدادَ الظلام . ولقد أعجبني قولَ الشاعر المرحوم الشيخ عبد المطلب في وصف اليتيم

يقول يا رب عيل صبري فهل درى ما لقيتُ جاري
يا جارنا لو أمَلت احدى اذنيك من ظاهر الستارِ
سمعتَ خلفَ الستار صوتاً ينبيك عن صبية صغار
تشكو اليك بالنهار لما امضّها الجوعُ بالنهارِ
ولو سألتَ الظلامَ عنها تجيبك الانجمُ السّواري
فهل دَرَى جارُنا عيالاً غرثى إلى كسرةٍ قفارِ

بعد هذه الابيات لا يسعني الاّ ان اقول لكم ما قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم « من ضم يتيماً من بين يتامى المسلمين الى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله تعالى اوجب الله له الجنة البتة الاّ ان يعمل عملاً لا يغفرهُ الله لهُ »

***

وقد جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليهِ وسلم وشكا اليهِ قسوة القلب فقال له النبيّ صلى الله عليهِ وسلم « إن سرّك ان يلين قلبك فامسح برأس يتيمٍ واطعمهُ »

الكلام في وصف اليتيم كثير وجزاء الله للمحسن فلنتكاتف ونتعاون على إقالة اليتيم من ألم يُتمهِ ونسرع باخراجهِ من وحدة شقائه وخيرُ البرّ عاجله وافضل ما يعمل لهؤلاءِ اليتامى ايجادُ منازل لايوائهم وإطعامهم وسد حاجاتهم . اما امر تعليمهم فيوكل الى وزارة المعارف . وافضل ما يكون من امر تعليمهم ان يتعلموا مع ابناءِ الشعب حتى لا يشعروا بألم اليتم . وباختلاف حالهم عن غيرهم والطفل شديد الاحساس سريع التأثر . يتعلمون نهاراً في المدارس العامة ويلجأُون ليلاً الى منازل معدة لراحتهم . يجدون فيها من الحنان ما يعوض عليهم ما فقدوه بفقد الوالدين . هذه المنازل لا يمكن ان توجد نفسها ولا ان تدبرَ المال اللازم للانفاق عليها وإنما جودكم واحسانكم وعطفكم على الانسانية هو السبيل الوحيد لانشاء تلك المنازل فجودوا يزدكم الله من خيره (وهو ولي التوفيق)

الطفل الاعمى

للدكتور محمود عزمي القطان بك

سيداتي وآنساتي وسادتي : لا ارى افصح في التعبير عما يمكن عمله للترفيه عن الطفل الاعمى وتدرجه في مراحل التعليم من ان اعرض على حضراتكم شريطاً سينمائياً لمعهد العميان الرئيسي بأميركا المعروف بمعهد بركنز Perkins Institats بالقرب من مدينة بوستن بالولايات المتحدة الاميركية وسترون فيه طرق التعليم من رياض الاطفال الى درجة الكلية ونظم المعيشة والالعاب الرياضية والتعليم الصناعي مما يدعو للاعجاب حيث ربى الطفل الاعمى ويتدرج في التعليم حتى يحصل على قسط وافر من الثقافة يجعله في مستقبل حياته عضواً نافعاً للمجتمع . وكم كان شعوري بما عليه بلادنا من التقصير نحو العميان المصريين عند ما اطلعت على ما تفعله تلك البلاد للقيام بالواجب نحو عميانها . ومما يجعل المقابلة اشد ألماً إن نسبة العميان في مجموع تعداد القطر المصري اكثر بمراحل من اي نسبة اخرى ولم يكن بمصر حتى القريب اي عمل جدي نحو رعاية العميان الى ان أنشئت الجمعية المصرية لرعاية العميان في عام ١٩٣٢ برئاسة المغفور لهُ الدكتور محمد شاهين باشا فأسست معهد الغلمان الضريرين بالزيتون ولا إخالكم إلاَّ قد شاهدتم شريطاً سينمائياً عن هذا المعهد في دور السينما حديثاً اخرجتهُ شركة بنك مصر . وسعت الجمعية لدى وزارة المعارف العمومية فتكرمت الوزارة بأن تقوم بنفقات المعهد المذكور وهو الآن تابع لها كنواة لماتنوية من تعليم العميان بمصر على الطرق المستحدثة . وقد أخذت الجمعية على عاتقها ان تجد العمل لخريجي معاهد العميان فبدأت بانشاء المصنع الحالي التابع لها بجهة الزيتون ايضاً حيث يقوم اول فوج من خريجي معهدها القديم بصنع الفرش من كافة الاصناف بنجاح عظيم يبشر بالخير لهذه الفئة المسكينة . وقد اضافت الحكومة الى سخائها السابق ان اعطت للجمعية أرضاً في جهة الدقي بالجزيرة مساحتها ٦٠٠٠ متر مربع لكي تبني عليها ملجأ ومصنعاً للعميان يتسع لاكبر عدد ممكن من الصناع المتخرجين من معاهد الوزارة الحالية والمستقبلة . والجمعية لها كبير الامل في ان يعضدها الجمهور بالاشتراكات والتبرعات لكي يمكنها القيام بهذا المشروع الكبير

ومما لا شكَّ فيه ان مكافحة العمى خير بكثير من ان ندرس الوسائل التي نكفل بها هؤلاء المساكين بعد وقوع المصاب . ومن الممكن بواسطة التعاون الاجتماعي ان نمنع العمى عن الكثيرين من مواطنينا الفقراء وهذا ضمن حدود الواجبات التي تأسست من اجلها الجمعية المصرية للخدمة الاجتماعية التي كانت البلاد في اشد الحاجة الى مثلها من زمن بعيد . واذا اردنا لبلادنا حياة عزيزة وجب لكل فرد منا ان ينسى نفسه لخدمة المجموع والواجب على كل فرد منا ان يكون جندياً يدافع عن الانسانية المعذبة في هذه الديار وعليه ان يقدم نفسه الى القيادة العامة التي تمثلها هذه الجمعيات المباركة فلا يبخل عليها بماله او علمه أو جهوده فالى العمل منذ الآن

باب المراسلة والمناظرة

الدهن والشحم

والقول الفصل فيهما

Oil and fat

للقرينو امين المعلوف

في مقتطف يناير الاخير مقالة ممتعة للاب انستاس موضوعها الدهن جاء فيها ما يأتي : الدهن في كتب اللغة مصدر لدهن الشيء اذا بلّهُ. فكل ما يبل شيئاً يسمى دهناً . هذا من باب التعميم واما من باب التخصيص وعلى ما يتحصل من كتب الادب والعلم بل من اسفار اللغة نفسها فان الدهن كل مادة دسمة.

ولما كان الدسم يوجد في الحيوان والنبات والجماد كان تعريف الدهن كل جوهر دسم من حيوان ونبات وجماد ونحن نؤيد هذا القول بالنقل عن الائمة

وجاء في هذه المقالة الدهن النباتي ما يستخرج من عصر بعض الانبتة التي فيها زيت كالبان والزيتون والزنبق والخردل والسمسم والجوز واللوز والجلوز والمشلوز وهي كثيرة جمة العدد

واحسن دليل على وجود الدهن في النبات ما جاء في سورة المؤمنين « وشجرة تخرج من طورسيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » فليس شيء اوضح من هذا الكلام على وجود الدهن في الزيتون ولا جدل في هذه المسألة — انتهى كلام الاب المحترم ثم زاد على ذلك وصف الدهن والزيت وقال ما محصله ان الدهن غير الزيت وانهُ مادة دسمة تدخل في بعض الزيوت . قلت وقد ذكرت هذه الآية في مقتطف ابريل من سنة ١٩٣٦

الى ان قال: وجود الدهن في الحيوان امر لا ينكر . قال ابن البيطار في ترجمة (القاوند) : أبو العباس الحافظ : هو دهن معروف لونهُ مثل لون السمن ، وقوامهُ في الجمود كذلك . وهو

معروف بالحجاز يؤتى به من اليمن ومن بلاد الحبشة . ويأتيهم من الهند » الى آخر ما قالهُ وهو لا يريد زيت الزيتون ولا غيره . أما الدميري فيقول :« القاوند طائر يتخذ وكره على ساحل البحر » . وهذا الطائر المتخذ منهُ « شحم » القاوند المعروف وهو يقيم المقعد . . . » الى آخر ما قال . فما سماه ابو العباس الحافظ «دهناً» سماهُ الدميري شحماً لانهما شيء واحد . قلت ليس هما شيئاً واحداً فاذا دققنا كان الصواب في جانب الدميري لان الدهن على التدقيق لا يكون في الحيوان بل عادة في النبات وهذا حيوان . الى ان قال الاب انستاس وهذا أبين دليل على ان الشحم والدهن من جنس واحد فهو شحم اذا كان جامداً وهو دهن اذا ماع او لم يمع . قلت فقولهُ من جنس واحد كقولنا الضأن والمعز من جنس واحد فالضأن من ذوات الصوف والمعز من ذوات الشعر وكلاهما غنم ولكنهما مختلفان فالدهن مختلف تمام الاختلاف عن الشحم في الفصيح من الكلام كما سيجيء

الى ان قال : وأهل بغداد يسمون السمن دهناً ومنهم من يقول دهناً حرًّا لتمييزه عن سواه من شحم وزيت الى غيرها ويقولون « هذا اللحم دهين » اذا كان كثير الودك والشحم فقول الاطباء والكتبة المواد الدهنية اصح من قولهم المواد الشحمية لشهرة اللفظة عند جميع الناطقين بها من مصريين وسوريين وعراقيين الى غيرهم . قلت فليسمح لي الاب انستاس ان اقول ان هذا الكلام فيهِ شيء من مخالفة الواقع فالعراقيون لا يقولون دهناً بهذا المعنى بل يقولون دهيناً كما مرّ والدهين غير الدهن الى ان قال الاب انستاس لان صحة الدهن لا غبار عليها اذ تعني الشحم والزيت وكل مادة دسمة اذ في الالية دهن وشحم وفي الانسان دهن وشحم وفي الامعاء دهن وشحم ، قلت هنا فيه شيء من مخالفة الواقع ايضاً وخطأ فسيولوجي والصواب ان يقال الشحم فقط في جميع هذه المواضع اي يقال ان في الالية شحم وفي الانسان شحم وفي الامعاء شحم فلماذا دهن وشحم فان كان الدهن هو ما يريدهُ الاب انستاس فليحذف منهُ الشحم وإن كان الشحم فليحذف الدهن اي يحذف واحدة منها ولكن الاب انستاس لا يزال يعتقد ان الدهن بلغة مصر والشام صواب ويصعب زحزحتهُ عن هذا الاعتقاد فليأتني بشاهد واحد من كتب اللغة ان الدهن معناه الشحم ولكنهُ لا يقدر . ألا ترى ان أحمد فارس وقد رأى

اميرة لبنانية في صومعة راهب « في مار الياس » شويّا قال قد ملأت الطنفسة شحماً ولحماً ولو تكلم بلغة لبنان وهو لبناني لقال لقد ملأت الطنفسة دهناً ولحماً ولكنهُ آثر اللغة الفصحى فقال شحماً ولحماً . الى ان قال الاب انستاس هذا فضلاً عن أن الشحم كلمة مبتذلة صارت اليوم من لغة القصّابين واللحّامين والشحّامين فما قول الاب المحترم في آية وردت في سورة الانعام والآية هي « وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما الاَّ ما حملت ظهورهما او الحوايا او ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » الآية . ولا اظن الاب المحترم يقول الآن انها مبتذلة ومن لغة القوم الذين ذكرهم ولا أفهم كيف يغفل عن ذلك وهو لا يغفل عن شيء ثم إنهُ لم يأت بشاهد واحد يثبت ان الشحم هي الكلمة الفصحى ولكنهُ وجه كل عنايته للفظ الدهن ومن الصعب زحزحته عنه فالشحم هي الكلمة الفصيحة لهذا المعنى والدهن عامية بلغة مصر والشام ولهم عذر في الشام لانهم يستعملون الدهن في لبنان وبعض قرى الشام بمعنى الشحم المذاب اي الاهالة وهو سبب خطأ اهل الشام في ما اظن

هذا وقد ورد ذكر الشحم مراراً عديدة في التوراة وهو بمعنى الشحم في القرآن الكريم وانكليزيته Fat or grease وفرنسيته Corps gras ou graisse وقد ذكرت هذه الالفاظ خدمةً للمعهد الطبي في دمشق حتى يأخذوا بها

اما الدهن والزيت فوردا مراراً في التوراة وهما بمعناهما في القرآن الكريم على ان الدهن معناه في التوراة وفي بعض الاماكن منها المطيب من الزيت والزيت في اماكن اخرى فكلهُ زيت. اما الدهن فانكليزيته وفرنسيته Oil or huile ومن قال غير ذلك فليقنعني بكتب اللغة لا بغيرها

ان كلمة دهن هي الشائعة في جميع انحاء الشام للشحم واريد بالشحم ما هو وارد في القرآن الكريم اي ان الشحم هو الودك جميعه لا كما يظن العامة هو شحم الامعاء فقط ولكنهم يقولون في لبنان وجميع قرى الشام دهن للشحم المحفوظ ويسمونهُ قاورمة وهو اللحم بعد قطعه قطعاً صغيرة واضافة شحم الالية وغيره من الشحم وطبخه وهم يسمونه ايضاً قاورمة واظنها تركية وهو السبب على ما اظن في تسمية الشحم بالدهن والله اعلم

هندسة الكون

بحسب ناموس النسبية

رد على نقد

لنقولا الحداد

اشكر لحضرة البحاثة الدكتور اسمعيل احمد ادهم عنايتهُ بنقد كتابي « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » في مقتطف يناير الاخير (صفحة ١١٤ — ١١٧) وارحب بملاحظاته القيمة ترحاب المفكر والمتبحر في كل فكرة دقيقة عميقة . واشكر لهُ ايضاً ثناءهُ وتقديره قيمة تجشم المشقة في بحث موضوع النسبية الذي يُعَدُّ اعوص الموضوعات العلمية في هذا العصر

وأهم ما في نقدهِ ملاحظته بشأن تفسير ظاهرة تقلص الاجسام في اتجاه سرعتها . وقد فهم من تفسيري لها اني اعتبر هذا التقلُّص حقيقةً فوزيقيةً اي حقيقة طبيعية واقعة . ثم يوعز بوجوب التفريق بين الواقع والظاهر بقولهِ بحروفهِ : — « يجب ان نفرق بين ما هو داخل في نطاق الفوزيقا الثانية مما هو راجع لاعتبار انساني ، وبين ما هو ضمن الفوزيقا الاولى مما يعرض لعالم الطبيعة من حيث هي . لان موضوع الفوزيقا الثانية يتصل بعالم المظاهر ، بينما موضوع الفوزيقا الاولى يتصل بما هو واقع . اذن فلنا ان نسأل هل ظاهرة التقلص في الاجسام في اتجاه حركتها حقيقة واقعة ام هي حقيقة تتصل بعالم المظاهر ، فان كانت حقيقة تتصل بعالم المظاهر فهل يصح تفسيرها تفسيراً واقعيًّا ؟ »

يجد حضرتهُ جوابي عن هذا السؤال : أولاً في اسفل صفحة ٢ وأعلى صفحة ٣ ثانياً في الفصل السادس ولا سيما في اواسط صفحة ٥٩ حيث ختمت الفقرة بهذه العبارة : تقرَّر ان هذه المسافة تعتبر متقلصة : اي انها في نظر عمر أقل مما هي في يقين زيد . اي ان هذا التقلص حقيقةٌ ظاهرةٌ في نظر عمر . ولكنهُ غير حادث بتاتاً في يقين عمر . وهذا هو المراد بالنسبية

وفي فصل التواقت (السابع) يتضح جيداً هذا الفرق بين الواقع في يقين احد مراقبين والظاهر في نظر المراقب الآخر

والظاهر لي ان حضرته يشير بالخلط بين الواقع والظاهر الى تفسيري للتقلص في الفصل الثاني (صفحات ٣٥ — ٤١) ، او انهُ يحسب ذلك التفسير تفسيراً للتقلص الظاهر كأَنهُ تقلص واقع حقيقة

على ان ادينغتون نفسه الذي بنيت تفسيري ذاك على قولهِ الموجز في تعليل التقلص يسأل نفس السؤال الذي يسأله حضرة الدكتور اسمعيل . ثم يقول ادينغتون : ان هذا التقلص حقيقي واقعي Real وحقيقي يقيني True ولبيان الفرق بين الحقيقتين ننظر نظرة الى الرسم الذي فسّرت بهِ التقلص تفسيراً وصفيًّا ورياضيًّا

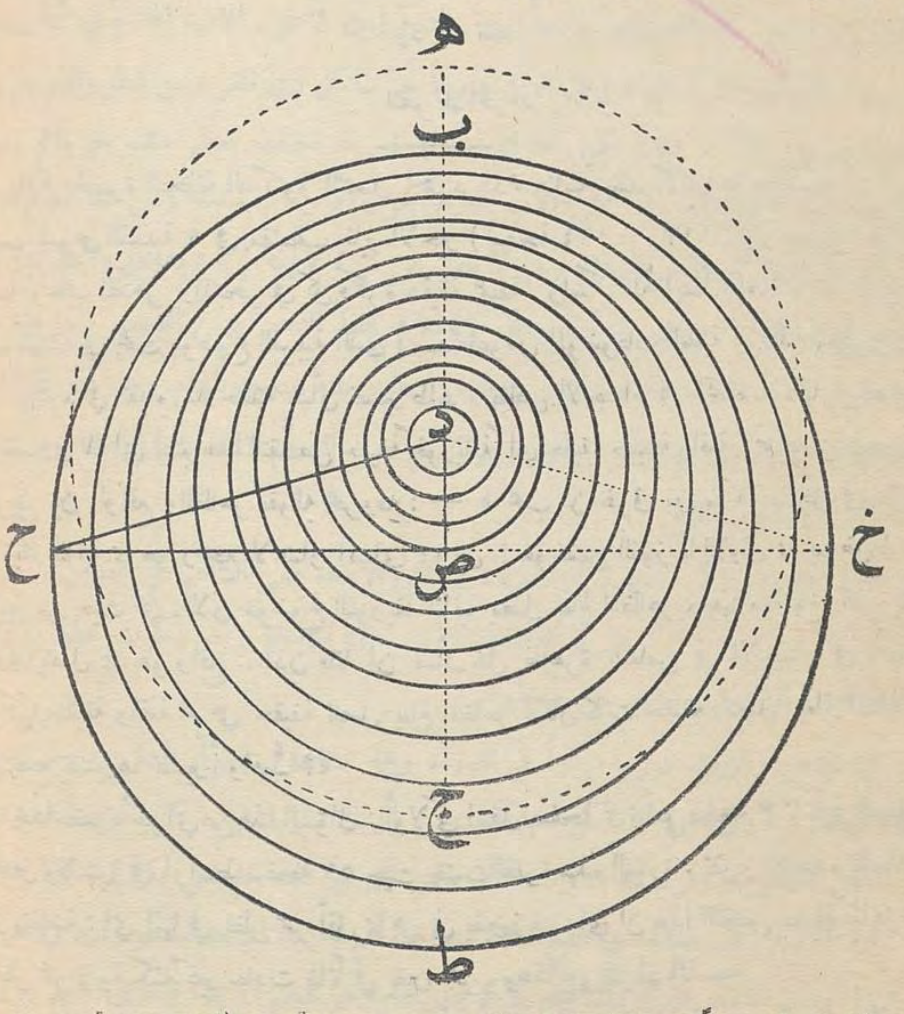

لنفرض ان زيداً يقيم في النقطة (ص) وهي تنتقل بهِ الى النقطة (د) فالواقع عنده Really ان المسافة التي ينتقلها من (ص) الى (د) لا تتقلَّص . واما عمر المراقب وراء (ج) خارج الرسم مثلاً فالحقيقة Truly في يقينهِ ان تلك المسافة متقلصة . — لان الامواج الكهرطيسية التي تبلغه خبر انتقال زيد لا تصل اليهِ إلاَّ بعد ان يكون زيد قد تجاوز النقطة التي كان فيها حين صدرت الموجة منها ورحلت الى عمر

اذن التقلص الذي علته هو حقيقي true في يقين عمر وان كان غير واقعي not Real عند زيد . وعلى هذا الاعتبار قامت النسبية

ولو انتقل عمر الى جنب زيد بغتة لانتفت هذه الحقيقة عنده . والدكتور اسماعيل نفسهُ يعترف (في وسط صفحة ١١٥) بان « الراصد اذا نظر الى جسم مسرع بسرعة النور لا يعود يراه الاَّ كصفحة رقيقة ». وازيد على قوله ان الجسم اذا تجاوزت سرعته سرعة النور لا يعود الراصد يراه بتاتاً ، لان النور لا يدرك الجسم المسرع لكي ينعكس عنه الى الراصد . واذا كان الجسم المسرع نفسه منيراً فلا يصل نوره الى الراصد الاَّ احمر او ما تحت الاحمر infra-red . وان زادت سرعته ايضاً فلا يعود الراصد يشعر بنوره بتاتاً لان امواجه تصبح من طبقة Octave غير الطبقة النورانية التي يحس بها البصر الانساني

فهل يا ترى تقلص الجسم المسرع (كسرعة النور) الذي اصبح كلوحة رقيقة ، ثم اختفاؤه ، ثم اختفاء شعاعه ، بتاتاً عن عين الراصد — هل هذه الحالات الثلاث اوهام في خيال الراصد مخالفة للواقع ؟ ام هي حقائق يقينية لهُ ؟

لا ريب انها حقائق (true) يقينية لهُ . اذاً الجسم المسرع متقلص تقلصاً حقيقيًّا في يقين الراصد ، وغير متقلص في يقين من هو راحل معهُ (اي مع ذلك الجسم) . وعلى هذا الاعتبار قامت نظرية النسبية

وحاصل القول انه ليس في مباحث الكتاب ما يثبت اني لا افرق بين النظرين — نظر المراقب البعيد للجسم المتحرك ونظر من هو مرافق للجسم المتحرك ، خلاف ما توهم حضرة الناقد

بقيت ملاحظة حضرته في قضية « التواقت » واعترف بكل تواضع اني لم افهم ماذا يعني بها . وقد راجعت ما كتبتهُ في صفحتي ٦٨ و ٦٩ فلم اجد التباساً ولا غموضاً فيهِ يوهم ما يخالف نظرية اينشطين . بل بالعكس فيهِ صراحة ووضوح يوافقان النظرية

وقد اشار حضرته اشارتين الى قضية انحراف شعاعة النور عند مرورها على مقربة من الشمس ، وقضية تحدُّب الابعاد الاربعة . ولم يفصح فيها عن ملاحظتيهِ

« وضرب حضرته صفحاً عن الاخطاء الاصطلاحية وهي كثيرة في الكتاب » في رأيهِ . فحبذا لو ارشدنا اليها ودلَّنا على تصحيحها في متون لغتنا العربية او في اعمال المجمع العلمي اللغوي الموقر . فنزيده شكراً على شكر

واخيراً ارجو من حضرته ومن كل من يطلعون على الكتاب ان يثقوا اني لا ادعي العصمة — معاذ الله — ولا اتبرأ من الخطإ في بحث النسبية العويص ، الاَّ اذا قدِّر لي ان اكون اينشطين نفسهُ او احد انداده . وهو الامر المستحيل

مكتبة المقتطف

العشرة المقدمون في تاريخ الفكر العربي

قرار لجنة التحكيم

اجتمعت اللجنة في تمام الساعة الخامسة من مساء الجمعة ١٤ يناير سنة ١٩٣٨ وحضر جلستها كل من الاستاذ ا . ه . ر . جب استاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد وعضو مجمع اللغة العربية الملكي والاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق استاذ الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية والاستاذ احمد امين استاذ الادب العربي بالجامعة المصرية واسماعيل مظهر سكرتير المجمع المصري للثقافة العلمية وفؤاد صروف محرر المقتطف ، وقرئت الرسائل وعددها خمس ، وقد رأت اللجنة ان رسالة منها غير مستوفية لشروط المسابقة وهي الرسالة التي رمز صاحبها لاسمه بحرفي « ك . ن »

أما الرسائل الاربع الاخرى التي استوفت شروط المسابقة فقد رأت اللجنة ان كاتبيها لم يلحظوا تماماً الاسلوب الذي اختير لكتابة الرسائل ، ورأت فوق ذلك ان اصحابها اعتمدوا على الترجمة في الاكثر دون الرجوع الى المظان الاصلية ، فوقعت اخطاء في بعض الاسماء المشهورة واخطاء اخرى في اسماء كتب عربية معروفة ، وانهم جروا على طريقة العرض لا على طريقة التحليل الفلسفي او الأدبي الذي يظهر سر العبقرية والعظمة في شخصيات من اختاروهم من العظماء

وبعد البحث والمقابلة قررت اللجنة ان لا تمنح الجوائز التي نشر عنها لأحد من الكاتبين واحتفظت بالاظرف المحتوية على اسماء حضراتهم غير مفضوضة ، وقررت كذلك ان توجّه الشكر الخالص الى حضرة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا وان ترغب اليه ان يبقي هذا المبلغ من المال رهن عمل ادبي آخر رأت اللجنة ان يكون على غير اساس المباراة بان يعهد الى كتّاب مختصين في كتابة فصول في موضوعات مختلفة وأن يوزّع عليهم هذا المبلغ مكافأةً لهم ، ثم تقوم إدارة المقتطف بطبع هذه الفصول في كتاب تهديه لمشتركيها باسم سعادة الواهب لذكرى الدكتور يعقوب صرّوف

ويلي ذلك : التوقيعات

في منزل الوحي

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك

كثيراً ما تمنيتُ لو ان المشتغلين بالتصنيف الفني العميق من كتّاب العربية الذين زاروا الحجاز وعرفوه، يُعنون بهذه الناحية كعناية علاّمة الهند السيد سليمان النّدْويّ في كتابهِ (أرض القرآن)، وكعناية شيخ مستشرقي هولندا هرغرونجه في كتابهِ الكبير عن مكة والحجاز. ولما أقمتُ في مكة والحجاز شطراً من سنوات الحرب العظمى أخذتُ أستعدُّ لهذه المهمة، وجمعتُ لها مواد أغتبط بها (١)، لكني تهيبتُ اخراجها في كتاب ارتضيهِ، لان الموضوع أعظم من ان يلمّ بهِ محبُّ الكمال ما لم ينقطع لهُ. والى الآن لا تزال المكتبة العربية مفتقرة الى الكتب الجيدة عن بلادنا المقدسة، وعن سائر بلاد العرب وأقطار المسلمين، وكان من حق قراء العربية على كتّابها ان يملأوا هذا الفراغ ويتفنّنوا فيهِ، لولا ان المشتغلين بالتصنيف اتخذوه في الحقبة الاخيرة وسيلة للاستغلال والكسب وقلّ من ينقطع منهم لخدمة العلم لاجل العلم وحده

أما كتاب (في منزل الوحي) الذي اخرجهُ للناس في هذه الايام معالي الدكتور محمد حسين هيكل بك، فان اثر العناية والبحث والتفكير بادية للقارىء في كل فصل من فصوله. وقد قال في مقدمته يصف ما توخاه فيهِ: « لقد وجّهت اكبر عناية الى آثار الرسول الكريم في البلاد المقدسة، وجعلت جلّ همي ان اسير حيث سار، ألتمس ما في حياتهِ من اسوة وعبرة، وأرجو ان أقف على شيء من السر الذي هيأ هذه البلاد لتكون منزل الوحي الى النبيّ العربي خاتم الانبياء والمرسلين. ولم أتقيد في تفكيري وتأملي أمام شيء مما رأيت بغير منطقي وعقيدتي الذاتية اللذين كوّنتهما الطريقة العلمية الحديثة. فأنا لا اسلم بالعقيدة الموروثة اذا لم يكن لها اساس غير ما وجدنا عليهِ آباءنا، ما لم امتحنها وأمحصها، وما لم اصل من امرها الى الايمان بانها هي الحقيقة كما يسيغها عقلي ويطمئن اليها ضميري. ولقد جعلت السير في اثر الرسول غرضي من يوم اتممت مناسك الحج. والحق اني لم اجد مشقة في تعرف الآثار التي هدم الوهابيون قبابها، لكني انما وجدت المشقة في الاهتداء الى آثارٍ لها في تاريخ المسلمين الاولين اثر بالغ. من ذلك اختلاف الاقوال على موقع حُنين حيث كانت الغزاة التي تركت في تاريخ الاسلام اثراً قل كمثله اثر. ومنه اختلافهم على موقع عكاظ سوق العرب جميعاً في الجاهلية وفي صدر الاسلام. وانما سوّغ

(١) نشرت منها في السنة الخامسة من مجلة (الزهراء) فصلا عن عهد جرهم في الحجاز، ونشرت في السنة الثانية من المجلة السلفية فصلا من الكتابات الباقية على بعض جبال الطائف وفي طريق الطائف الى مكة

الجهلُ الذي خيم على بلاد العرب من عصر العباسيين هذه الجناية النكراء ، كما سوّغ امراً لا يقل عنها نكراً ، فقد اقيمت آثار لحوادث وقعت وليس في التاريخ ما يدل على انها وقعت حيث تقوم هذه الآثار ، واقيمت آثار لحوادث لا يعرف التاريخ الحق من امرها شيئاً . وتحقيق ذلك كله وبيان قيمته العلمية امر جدير بكل من يريد الحقيقة . وقد حاولت من ذلك ما استطعت . لكن هذا التحقيق يحتاج الى أضعاف الزمن الذي قضيته بالحجاز . وكان حديث الآثار الصحيحة التي وقفنا عندها كله البلاغة في التعبير عما تدل عليه وتوحيه الى النفس من آي الجلال والعظمة. فجبل حراء والغار في قمته ، ومسجد عدّاس بالطائف ، ومسجد العقبة وجمرتها ، وجبل ثور ومختبأ رسول الله وابي بكر بالغار فيه ، والطريق الذي سلكه النبي الى المدينة في هجرته من مكة، ومسجد قُباء ، والمسجد النبوي والآثار الكثيرة بالمدينة ، وميدان بدر حيث وقعت الغزوة الاولى بين قريش والمسلمين ، هذه المواقع وما اليها كانت تثير امام ذهني ذكرياتٍ مليئةً بالحياة كانما حدثت بالامس ، وكانت توحي اليّ معاني الاكبار والاعظام وتزيدني اجلالاً لهذه الاماكن في صمتها العميق لم يغيّر منهُ توالي القرون »

الى ان قال : « ليس هذا الكتاب مرجعاً من مراجع التاريخ الاسلامي ، ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب . انما هي وقفات وقفتها في بلاد الوحي ومنزله استوحي فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله .وهناك في هذه المواقف تجرّدت نفسي وسمتْ روحي وكررتُ بالعصور والقرون اطويها ورحت اتمثل هذا الهادي الكريم ، واتمثل المسلمين من حوله ألتمس في ذلك الاسوة والعبرة آملاً ان اشرك فيهما اخواني . لم اتقيد في هذه المواقف بما جاء في كتاب غير كتاب الله ولم أخضع تفكيري لحكم غيري . لقد تركت نفسي على سجيتها ، تتوجه بوحي روحي وتستلهم الحقّ من حولي ، وتستعرض ما تستلهم على حكم عقلي وتقدير ضميري ، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا ابغي الاّ رضاء الله وحسن ثوابه»

ثم قال « كيف نستطيع ان ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق ، وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم . لقد خفي هذا الكلام عني سنوات كما لا يزال خفيًّا عن كثيرين . وقد حاولت ان انقل لابناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً ، لكنني ادركت بعد لأيٍ انني اضع البذر في غير منبته فاذا الارض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلاً لوحي هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن واذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة . ورواْتُ فرأيت ان تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرّك النفوس وتجعلها تهزّ

وتربو . ولابناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين »

***

هذه مقاطع من كلام المؤلف عن موقفه من موضوعه ، ووصفه العمل الذي اقدم عليه ، وهو يعتبره تمهيداً لبحوث جامعية يؤمل في اهل البحث من رجالنا ان يقوموا بها ، لان تركة السلف لا تزال بكراً وفي حاجة الى الايدي الرفيقة من اصحابها لتنظيمها وبعث الحياة فيها واستمداد الحياة منها

وهذا السفر النفيس الذي تقدم بهِ هيكل بك الى قراء العربية في هذه الايام يتألف من ستة كتب اولها في فرض الحج والرحلة اليهِ حتى وقفة عرفة وايام التشريق . والثاني عن البلد الحرام وصف فيهِ مكة الحديثة وابن السعود بمكة والجمعة في الحرم وجوف الكعبة وآثار مكة وغار حراء وغار ثور وظاهر مكة . والثالث عن الطائف وآثارها وباديتها وما كان للعرب فيها من اسواق . والرابع عن طريق المدينة ووحي المدينة . والخامس في المدينة ومسجدها وآثارها وبقيعها وظاهرها . والكتاب الاخير عن بدر وشهدئها وأوبة الرضا . ثم تساءل في خاتمة كتابه : ما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الايمان ؟ ويعلل الدكتور ذلك بان تعاليم عصور الانحلال انصرف الحظ الاوفر منها الى الجانب المادي من الحياة والى تنظيمه بكتب الفقه وقواعد الشرع ، فنشأ عن ذلك تفريط في جانب الحياة الروحية التي تصوروها صورة مادية لا يزيد مداها عما يقع عليهِ الحسّ وينحصر في حدود ادراكه ، فخضعت الامم الاسلامية لغيرها بسبب ذلك التفريط واذعنت لسلطان من آتاهم العلم مفاتيح السلطان . ولا مفرّ لبعث الحياة في الامة من تضافر مقررات العلم ومقررات الالهام لتنظيم الحياة، ولا مفرّ من الاحاطة عن طريق العلم والالهام جميعاً بحياة الكون الى غاية ما ندركه من مدى الزمان والمكان ، لنعرف موضع الانسانية منهما وما تطيقه من نشاط فيهما ، لتؤدّي رسالتها في الكون على خير وجه ، بان تبذل في الانتاج العقلي والروحي اخصب مجهود واحكمه واعظمه ، ولتؤدّي هذه الرسالة عن ايمان بها هو الحافز الصحيح للعمل المثمر

***

ان كتاب (في منزل الوحي) لا يقتصر على انهُ وصف للانطباعات التي شعر بها الدكتور هيكل بك وهو في منزل الوحي ، بل هو فوق ذلك حلقة من تاريخ التطوّر الفكري عند المؤلف قد يكون لها شأنها فيما سيصدر عنهُ بعد اليوم من اعمال نفيسة اخرى . وهو كتاب خليق بان يقرأه الشباب المثقف من قراء العربية في جميع اوطانها

محب الدين الخطيب

كتب شرقية باللغة الفرنسية

— ٩ —

E. Dinet et El Hadj Sliman Ben Ibrahim—La vie de Mohammed, Prophète d'Aallah — Paris, G.— P. Maisonneuve, 1937.

أ. دينيه والحاج سليمان بن ابرهيم

سيرة محمد ، نبي الله

قد كثرت التآليف عن سيرة النبي العربي في السنين الاخيرة سواء في الغرب او في الشرق وهذا الكتاب يمتاز عن غيره بأن احد صاحبيه فرنسي أسلم وحسن اسلامه فراح يكتب في شؤون الاسلام كتابة المهتز قلبه المنشرح صدره

تضم هذه السيرة اهم اخبار النبي وهي مسرودة كأنها صور متلاحقة ، ويرجع ذلك الى ان المؤلف الفرنسي رسّام . ومصادر هذه السيرة لا تخرج عن المعروف من طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام والسيرة الحلبية . وقد التزم المؤلفان المنقول في تلك المصادر ولم يذهبا في السياقة مذهب الناقد ولا المنقب لانهما يعدان مثل هذا المذهب مدرجة للخطأ والتحامل

وربما يهمّ القارىء العربي ان يعرف رأي (ا. دينيه) في صيرورة الاسلام. فقد ذكر الرجل في خاتمة الكتاب ان اسباب انحلال الشوكة الاسلامية ترجع في رأيه الى ثلاثة امور. اما الاول فابتعاد جمهور المسلمين منذ القرن الاول عن السنة المحمدية . واما الثاني فهجوم خرافات الامم الداخلة في الاسلام على الدين الحنيف وانتشار مغالاتها . واما الثالث فاقلاع المسلمين في العهد الحديث عن نظام فائدة المال ذهاباً منهم انها تدخل في الربا . فبهدم هذه الامور تزول اسباب انحلال شوكة الاسلام . واما ما يُتهم به الاسلام من انه مبني على التعصب وتعدد الزوجات والاستسلام للقدر فكلام لا محصول له في الواقع لان في الاسلام الصحيح ما ينفي التشيع لدين على دين ولان تعدد الزوجات من طريق الشرع خير من الزنا ولان الاستسلام للقدر اسلام لمشيئة الله وليس بتوانٍ وقعود عن العمل ودليل هذا الجهاد

ثم يختم المؤلفان كتابهما ببسط الآمال الجسيمة المعلقة على الاسلام بعد ان ينفض المسلمون سباتهم الموقت عن اعينهم

— ٢ —

Out el Kauloub. Harem, Librairie Gollimard, Paris 1937

هذه مجموعة قصص قصيرة الفتها السيدة الجليلة قوت القلوب باللغة الفرنسية ونشرتها المجلة الفرنسية الحديثة فيما تنشره من المؤلفات المستقلة الخاصة بالاقصوصة الحديثة . وقد عمل الكاتب الفرنسي الشهير پول موران مقدمة لهذه المجموعة اشار الى خصائص فنها . ولا شك ان هذه القصص القصيرة تروق قراء الغرب لما فيها من الوصف الدقيق والبيان الواضح والتحليل النفساني الصادق لعادات الامة المصرية المنتشرة قبل تحرر المرأة في المدن . وكان يحسن باحدى النساء الفطنات ان تدوّن ما يتعلق بكل هذه العادات قبل ان تبيد فتبقى على تحول السير مرجعاً اميناً لمن يحب ان ينظر الى ما كان

فلهذه المجموعة اذن ميزتان . واسلوب الكتابة فيها سهل بسيط مطرد ، لا اغراب فيهِ ولا تعسف . الاّ انهُ ربما اندس في نواحيه تعابير عربية منقولة الى الفرنسية من غير تبديل فتدخل في الاسلوب الفرنسي شعاعاً شرقيًّا لا يخلو من اللطف

واظرف قصص هذه المجموعة حفلة الحِنّة ومدير القرية والذكر في جامع سيدي المغربي ويوم شم النسيم

— ٣ —

الوحدة السورية والصيرورة العربية

بقلم ادمون رباط من نواب سوريا

Edmond Rabbath, Unité Syrienne et Devenir arabe, Paris 1937.

هذا مؤلف نفيس يبحث في النظام السياسي القائم في سوريا نظراً الى وضعية التخوم وهيئة الدولة وشكل المعاهدات وفي الامة العربية من حيث انها مجموعة افراد يحسون احساساً واحداً بالقومية القائمة على وحدة الارومة والحضارة والاقتصاد من جهة، والارض والدم من جهة اخرى . ثم يبحث في نشأة الاستقلال اللبناني وشكله وتضخمه وانحرافهِ مع مايكتنفهُ من النزعات الاقليمية كنزعات الدروز والعلويين واهل اسكندرونة ثم يعرض لفكرة الولايات العربية المتحدة فيفحص عن النظام التي تقوم عليهِ من ملزمات حيوية ومعاهدات تجارة ووحدة « جمارك » ثم يختم البحث باسترسال في الكشف عن سياسات الدول الاوربية ازاء الشرق العربي مع الوقوف عند السياسة الفرنسية . وهنا ذهب الاستاذ ادمون رباط مذهباً فيهِ صراحة وقوة اذ لم يخف ان الحركة العربية سائرة في طريقها لا محالة بفضل العناصر المستنيرة وبفضل تكون الفكرة القومية فالحكمة ان تسلم فرنسا بالواقع فترعى هذه الحركة بدلاً من ان تعمل لخنقها

بشر فارس

المعجم القضائي — الجزء الاول

تأليف خليل شيبوب — صفحاته ٣٧٣ بقطع المقتطف — مطبعة البصير بالاسكندرية

عرف قراء المقتطف خاصة ، وادباء الضاد عامة ، شاعر الفجر الاول ، خليل شيبوب ، فلمسوا في شعره صدق العاطفة ، ولمحوا دقة الخيال والتصوير ، كما عرفوا فيهِ الديباجة المشرقة ، وها هو يطلع على قرائهِ من ناحية جديدة كنا ما نزال في حاجة قصوى الى أثر فيها ، فوضع للدوائر القضائية معجماً اصدر منهُ الجزء الاول الذي بدأهُ من حرف A الى منتصف الحرف D والذين يعرفون سعة اطلاعه على آثار لغته يدركون الدقة التي راعاها المؤلف في نقل مصطلحات هذا المعجم . والى القارىء جانباً من توطئتهِ التي اجمل فيها اغراضه وطريقته :

هذا الكتاب أمنيةٌ حققتها لأنها في نفسي صدى شعورٍ عميق بالحاجة الى مرجع يصيب منهُ المشتغلون بالامور القضائية قولاً شارحاً . يكون جامعاً مانعاً . يقفون بهِ من معاني اللفظ عند حدوده . ومن دلالتهِ عند المقصور على مقصوده . ولا يفي بمثل هذا الغرض الاَّ معجمٌ وجيزٌ تُبسطُ فيهِ الالفاظ القضائية كافةً . وتشرح شرحاً دقيقاً يستوعب معناها . ولا يتعداهُ الى سواها

ولا تزال اللغة العربية فَتيَّةً بصيغها القانونية الحديثة إذ لا يرجع عهدها بها الى ابعد من خمسين سنة . وهي فترة المهد لمثل هذا العلم اذا عرفنا ان غيرنا من الامم عالج موضوعاتهِ وصيَغهُ منذ عشرات القرون

بيد ان اللغة العربية حفلت بفرع من فروعه لا يتعدّى الموضوعات الفقهية المعروفة فزخرت كتبها بالتعبيرات الاصلية . والقوالب التالدة الطريفة . حتى إن المطالع المتريِّثَ لا يبرح مفتون اللب من مرونتها على تصريف أدق المعاني . واتساعها للاعراب عن أيسر خطفات المخالفات والموافقات . ولكن الإكباب على اكثر هذه الكتب . والإيغالَ في استنباط دقائقها أمرٌ شاقٌ مرهق . لما فيهِ من تطويلٍ في المتون . وشرحٍ في الحواشي . وتعليقٍ على الشرح . وشرحٍ على التعليق . مما يذهب بالصبر . ويضيق بهِ الصدر

***

أما المؤلفات الحديثة فقد حفلت بفروع القانون كافةً ولم تغفل منها فتيلاً ومنها ما يُعدُّ بحق آيةً من آيات هذه الصناعة . ونبراساً يهتدى بهِ في حلك الابهام . والتنقيب عن مستغلق اللفظ . ولكنها قلةٌ الى جانب الكثرة . والمؤلفون الاعلامُ ما برحوا يلتمسون طريق اللغة الى المعاني لأن العجمةَ طاغيةٌ عليهم . ودقائق تلك المعاني متنافرةٌ مع عقلية الفصحى اذا صحّ هذا التعبير

فلما عقدتُ العزيمة على وضع هذا المعجم عَنَّت لي طرائق ثلاث لم أرَ مندوحةً عن تخير احداها :

اما الاولى فكانت توجب عليّ الرجوع الى كتب اللغة والفقه . واستيعابها كافةً لاستخراج اللفظة العربية الصميمة التي لا يمكن تبديلها ولا تحويلها . ولكنني رأيت العمر اضيق من ان يتسع لمثل هذا العمل حتى ولو توفر لهُ كل الوقت وجاز الافتراض بأن قلماً منفرداً يقوى على النهوض بمثل هذا العبءِ الكبير

اما الثانية فهي الرجوع الى كتب القانون الحديث واستخلاص هذه الالفاظ من مظانها . واقرارها على ما هي عليهِ في مكانها من الترتيب الهجائي . الاّ ان هذه الطريقة ادنى خصائصها العجز والكسل . بل هي ادنى خطةً واحطُّ منهاجاً . ولا اكذب الله اني لا اقر كثيراً من الصيغ والالفاظ التي درج عليها الشرّاح الحديثون . فما الى هذا ذهبت . ولا في هذا رغبت

فلم تبق اذن إلاَّ طريقة وسطٌ يساق القلمُ فيها قدماً بين هاتين . وهي التي ذهبت اليها . ورغبتُ فيها . فقد راجعت كلّ ما توفر لي من كتب الشريعة الغراء وانتقيت منها اللفظ الذي رأيتهُ ملائماً للمعاني الحديثة . ثم راجعت عدداً كبيراً من كتب القانون الحديث . واستعنت على كثير من الالفاظ بكتب الادب وبما استقام لي من معرفة باللغة أصبتها من اشتغالي بها سنواتٍ طويلةً نظماً ونثراً

ولقد عملت على مجاراة العرف في كثير من اللفظ حتى يأنس القارىء بما الفهُ على ان يكون صحيحاً. أما اذا عرضت لفظة اصح مبنى ومعنى فقد رأيتني ملزماً بذكر اللفظة المشهورة الى جانب التي اراها أقوم في التعبير . واقعد في اداء القصد

واما التعريف القانوني فقد اعتمدت فيهِ على اصدق المراجع الفرنسية واخصها القاموس الذي وضعهُ حديثاً نخبة من جلة العلماء برئاسة الاستاذ هنري كابيتان. فقد نهجت نهجه واغترفت منهُ ولكنني لم اتقيد بهِ ولم اقصر همي عليه. بل كنت اطوف باللفظة على معاجم كثيرة . وكتب وفيرة . ثم اسهب في شرحها حيث الفائدة في الاسهاب . واوجز حيث الحاجة الى الايجاز . وربما استغنيت عن الفاظ جمة لا حاجة بنا اليها في معايشنا وانظمتنا . ثم انني تحريت كل التحري تبسيط التعريفات حتى ينتفع بها كلٌّ من له صلة قريبة او بعيدة بالحياة القانونية

***

وغني عن البيان ان هذا المعجم من المراجع التي لا تستغني عنها دوائر القضاء والمحاماة ولاسيما ونحن مقبلون بعد عقد اتفاق مونترو على عهد يتحول فيهِ القضاء وطنيًّا بحتاً

عشائر العراق

المجلد الاول

تأليف المحامي الاستاذ عباس العزاوي

اعتاد الاستاذ المحامي ، عباس العزّاوي ، في بغداد ، ان يهدي الى قراء العربية ، كتاباً مبتكر الموضوع . وقد الف في هذه السنة : (عشائر العراق) ، واصدر منهُ المجلد الاول . وهو يحتوي على العشائر التي احتلت العراق ، منذ اقدم العهد الى يومنا هذا ، وما يتعلق بعرفها ، وأنسابها ، وسائر اصولها ، فوقع في ٥٢٤ صفحة بقطع الثمن الكبير ، وزيّنهُ بست وعشرين صورة لمشاهير المشايخ الذين في عهدنا

ووضع له سبعة فهارس ، وحسبنا ذكر عناوينها ، للحكم على محتويات الكتاب ، وهي : ١ً فهرس المواضيع — ٢ً فهرس الكتب (وقد راجع منها ١١٥ تصنيفاً من مطبوع ومخطوط ، ومن قديم وحديث ، ومن عربي وفارسيّ وتركي) — ٣ً الامكنة والبقاع — ٤ً الشعوب والقبائل — ٥ً الاشخاص — ٦ً الالفاظ الغريبة (من عربية واعجمية وردت في تضاعيف الكلام) — ٧ً التصاوير

وقد انتقد حضرة الكاتب ، المراجع التاريخية التي وقعت بيده ، واستمدَّ منها ، وبيّن ما فيها من المغامز والمحاسن ، ومن الاطايب والشوائب ، فأظهر من سعة علمهِ في الموضوع الذي جال في ميادينهِ ، ما يدل على انهُ فارسها المغوار وعلى رسوخ قدمهِ في ركابهِ ، وحسن نظره وتدبره لكلام من سبقهُ ، فافاد علماء التاريخ فوائد جمة لا يستغني عن الوقوف عليها ، كل من يحاول بعدهُ معالجة هذا البحث

زدْ على ذلك انهُ ظفر بمخطوطات فذة ، بل بتعليمات لاوجود لها في خزانة شرقية اوغربية ، بذل فيها الدرهم والدينار وعن يدٍ سخية ، وجال في ديار تركيا والنمسا وسورية للبحث عنها ، فلخص كل ما اصابهُ فيها ، ونفى القشور عن كتابهِ ، ولم يودعهُ الاّ اللباب والحُوّارى

وقد نقل من هذا الصنف من التآليف ١٧ في المقدمة التي صدرّ بها سفرَه الجليل . فجاء الكتاب خزانة ثمينة حوت كل ما لذّ وطاب في هذا المعنى الذي عالجهُ ببراعة سهلة ممتنعة

***

ومن يقف على هذا الكنز الدفين ، يتحقق ان المؤلف من اصل عربي بدويّ قد تحضر ، ولهذا تراه اماط اللثام عن امور لا ينتبه لها الاّ من كان من صميم الاسرة البدوية ، ولا يمكن

لحضري ان يتوصل اليها مالم تكن صفتهُ تلك المذكورة . وبالحقيقة ان « العزاوي » الجليل ينتمي الى العزة من قبيلة ذوبع

وترى في هذا الديوان ابيات شعر كثيرة مع شرحها في اغلب الاحيان ، مما يدل على ان المؤلف — حفظه الله — جوّل تجويلاً في عشائر العراق من الشمال الى الجنوب، ومن الشرق الى الغرب . ولم يبخل بنفقات التنقل ليكون ما وضعهُ حجة ثبتاً بيد الباحث ، يقف فيه على اصدق الروايات واوثق التواريخ

***

ومما يحسن بنا ذكره هنا أن الانكليز وضعوا عدة تآليف عند احتلالهم العراق وهي تحوي اسماء القبائل وشيوخها وما تملك ايديهم من المال ، والكراع ، والسلاح مع ذكر الاراضي التي هم فيها ، والامكنة التي يرتادونها ، والمراعي التي ينتجعونها

وقد وضع هذه التآليف سيدة انكليزية اسمها جرترود لوثيان بل Miss Gertrude Lothian Bell وكانت تتقن العربية وجاست خلال ديار العرب وبواديها ودونت اموراً كثيرة لم يسبقها احد اليها . لكن لا يطلع على هذه الكتب احد ، اللهم الاّ نفر قليل من الموظفين، لانهُ كتب على ظهر كل مجلد باللغة الانكليزية « لا يمسّهُ إلاَّ الموظفون الانكليز » وعلى مجلدات أخر : « من كتب اسرار الدولة المحتلة ولا يعار لغير الموظفين البريطانيين »

والظاهر ان الاستاذ العزاوي رأى شيئاً من مؤلفات الآنسة (بل) ، لكنهُ لم يتمكن من الوقوف عليها وقوفاً تامًّا ، اذ يقول :

« وهذه الرسالة (التي وضعها السيد جرجيس حمدي في سنة ١٨٦٥ م) كالكتب الاخرى للمس بل وغيرها من كتَّاب الغربيين ، فانها كلها تقريباً مضت على هذا السنن في تآليفها ، وان كانت اشارت احياناً الى بعض الاحوال التاريخية عرضاً ، او لم تتمكن منهُ تماماً ، وانما اكتفت بالنبذة اليسيرة عن الماضي القريب ومضت . وخير هذه المؤلفات ما اوردت اسم القبيلة بالحروف العربية كما فعلت المس بل »

وقد جعل المؤلف ثمن الكتاب زهيداً بالقياس الى حجمه وجدة مباحثه اي ٢٥٠ مليماً او فلساً ليتمكن كل انسان من ان يشتريه . ونحن في انتظار الجزءين الباقيين وهما الثاني ويبحث في ادب البادية والثالث وهو في القبائل الريفية . وهناك جزء قائم بنفسه هو عشائر العراق غير العربية اي قبائل التركمان والكرد . حقق الله الاعمال واقام لنا في العراق اناساً يضارعون الاستاذ العزّاوي في نفع الوطن واللغة والامة !

الاب انستاس ماري الكرملي

الكاتب واللغة العربية

رسالة بالفرنسية — للدكتور بشر فارس — ٢٤ صفحة من القطع الكبير

نشرت مجلة «الدراسات الاسلامية» التي تصدر في باريس باللغة الفرنسية مقالاً مسهباً لصديقنا الدكتور بشر فارس في موضوع «المصاعب اللغوية والثقافية والاجتماعية التي يعانيها الكاتب العربي الحديث ولا سيما في مصر». وقد جاءتنا نسخة مستقلة من هذه الرسالة فاذا هي في اربع وعشرين صفحة كبيرة، حسنة التبويب دقيقة التلخيص كاملة الاسانيد. والواقع ان الكاتب راد بفكره الثاقب النهضة العربية الحديثة في ميدان الكتابة والتأليف، وخرج من ريادته بصورة واضحة لما يعانيه الكاتب من المشاق، سواء أفي اختيار الالفاظ والاساليب كان ذلك ام في التحرُّر من اساليب الكتَّاب القدماء واحوال السياسة والاجتماع السائدة في هذا العصر. وقد ضرب على كل ذلك الامثلة المنتزعة من الكتب والمجلات والصحف. ولكنهُ لم يكتف بذكر المصاعب، بل عمد في القسم الثاني من رسالتهِ الى بيان الذين جابهوا هذه العقبات، وكيف تخطَّوها او سعوا الى تخطيها وما لهم في ذلك من الأثر. ففي وسعك بعد قراءة هذه الرسالة النفيسة، ان تتمثل مواكب الكتَّاب والشعراءِ والعلماءِ، تليها مواكب الكتب والصحف اليومية والاسبوعية والشهرية، مارّة امامك، فتعرف ما لكل منهم ومنها من أثر في هذه النهضة المباركة ولو كانت لاتزال في مهدها، وفي املنا ان يعني المؤلف بنقل هذه الرسالة الى العربية لنفاستها

الشرق في الآداب الفرنسية بعد الحرب

١٩١٩ — ١٩٣٣

تأليف يوسف داغر — صفحاته ٣٠٤ من القطع الكبير — طبع بيروت — ثمنه ٥٠ فرنكا

كتاب نفيس وضعهُ باللغة الفرنسية الاستاذ يوسف داغر امين دار الكتب المساعد ببيروت بذل حضرته في اعداده واخراجه وتبويبه بهذه الصورة جهداً عظيماً وصبراً طويلاً، فيجد فيهِ الباحث كل ما كتب من بحث طويل او رسالة موجزة او مقالة مقتضبة عن الشرق باللغة الفرنسية من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٣٣ مع ذكر مقامها من حيث الموضوع الذي يعالجهُ وما ظهر عليها في كبرى المجلات الفرنسية من نقد وتعليق. فبدأ بعرض الابحاث تبعاً لاسماء مؤلفيها على الطريقة الابجدية ثم انتقل الى جدول مرتب وفقاً للمواد المدرسية ذاكراً المعلومات العامة من مصادر الابحاث والمكاتب والمخطوطات ومن علوم مساعدة للتاريخ كالآثار والنقود والوثائق والرقم ومن ديانات وفنون وتواريخ عامة لاحقاب الشرق فخرج السفر موسوعة كبيرة لا يستغنى عنهُ باحث في شؤون الشرق

المريد

تأليف پول بورجيه — ترجمة سليم سعده

فرحت فيما مضى بكتب مترجمة قرأتها بلهفة وشوق اذكر منها ، الحرية ، سر تقدم الانجليز ، روح الاجتماع ، محاورات رينان ، الابطال ، فلسفة الملابس ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مباحث في الاخلاق ، الامير ، سر تطور الامم ، الاسرار الزوجية ، روح التربية ، الاخلاق . وأحسب ان هذه أحسن الكتب المترجمة لا كلها ، وها انا افرح اليوم وأهلل لكتاب « المريد » الذي نقلهُ الى العربية حديثاً الاستاذ سليم سعده

افرح بهِ لسببين اثنين ، الاول لانهُ الكتاب الادبي الثاني الصادر في فترة الركود ، والثاني لان مؤلفه « بول بورجيه » قد نحا فيهِ نحواً فريداً في إقحام العلوم والمبادىء في فن الرواية ، وفي بسط تأثير التعاليم الفلسفية في العقول ، وفي استصراخ ابناء جنسه صرخات صادقات لا تصدر عن غير قلب مفعم بالمحبة الصادقة والاخلاص الطاهر حين يخاطب الشاب الفرنسي قائلاً « وليس الامر الآن ان تكون خفيف الروح ، طائشاً او ملحداً ، مهذاراً متشككاً او لعوباً ، فكف عن ذلك ردحاً من الزمن ، فان الله والطبيعة ، والعمل ، والزواج ، والحب والنسل ، كل اولئك من الحقائق المجلوة ، وهي تنتصب امامك ، فيجب ان تتجلى كلها وتحيا او تموت أنت »

ولقد استطاع بورجيه بذهنهِ المتوقد ، وومضات عبقريتهِ الخلابة ، وجلده الجبار ان يلفت العالم الى صرختهِ ويجعله يصغى الى كلامهِ ، فقد لقي فيهِ المؤمن والملحد موئلاً ، والعصري والرجعي نصيراً ، والثوري المتوفز والقانع المستكين ملاذاً ، والفرنسي وغير الفرنسي سميعاً ، ولا غرو في ذلك لانهُ قدر على ايقاظ كوامن الحياة وعناصرها في كل انسان وهزها بعنف ، ثم واجهها بصروف العقل ، ونوازل العاطفة ، وجبروت الغريزة ، وأفانين المدنية ، وتأثير التهذيب ، وترك الاعنة للخصال والمزايا تتطاحن في ميدان التجارب ، بيد انهُ لم يتباعد عن القارىء ليصفق للمنتصر ويضحك من المفكر اعتباطاً بل وقف الى جانبهِ يدله على مواطن الضعف التي اوجبت الانكسار ، وبواعث القوة التي توجتهُ باكليل الظفر

هوذا لمحات من مواضيع رواية « المريد » التي ليست رواية ولا كتاباً بل خلاصة جامعة لدائرة معارف الحياة الانسانية : جمعها وصنفها بول بورجيه العالم الاديب ونقلها الى العربية سليم سعده نقلاً أميناً

بقي لي ان اقول كلمة في ترجمة الرواية . ولما كانت ترجمتها لا تختلف الاّ قليلاً عن الروايات التي سبق للاستاذ سعده ترجمتها فاني اعيد ذات الرأي الذي ابديته فيه بعد تعديل يسير قلت انهُ « يفهم جيداً مرامي المؤلف واغراضه فيماشيها في الترجمة كلمة فكلمة وحرفاً فحرفاً، لا يقدّم في بناء الجملة ولا يؤخر ، وفي وسعك ان تعيد الكلمات والجمل إلى أصولها الفرنسية بدون عناء ولا جهد » وأزيد على ذلك أن المترجم الذي يضبط الكلمات والحروف ، ويقيد نفسهُ بروابط الجملة وفق القواعد الغراماطيقية والاصطلاحات الفرنسية إنما هوامين لا غبار على أمانته فلو توافرت لهذا المترجم المقتدر اسباب الغنى بمفردات اللغة والاسلوب السلس تنهض بالجملة العربية فتكسوها حلة فخمة كالتي ألبسها إياها « بول بورجيه » العالم الاديب القدير لكان بلغ مبلغ المترجمين الموهوبين

توجب الترجمة العلمية المترجم على التقيد بالمصطلحات أما الترجمة الادبية فأول موجباتها الروح الادبي ، والغنى اللفظي ، والسلاسة في الاسلوب ، والذوق في اختيار الكلمة التي لا سبيل لمرادفاتها ان تقوم مقامها

القاهرة حبيب الزحلاوي

***

ترجم الاديب سليم سعده قصة التلميذ للكاتب الفرنسي الكبير « بول بورجيه » ورأى ألاَّ يسميه التلميذ والكلمة صحيحة وجميلة ودقيقة الترجمة فسماهُ « المريد » وهي كلمة لا تمت الى التلميذ بصلة ولا نفهم معنى لها في هذا المقام فهي لذلك ليست صحيحة ولا دقيقة الترجمة . وفي المعجمات « المريد اسم فاعل من اراد وعند الصوفية المتجرّد عن ارادته او الذي اعرض قلبهُ عن كل ما سوى الله او من يحفظ مراد الله »

وهي مصدرة بمقدمة من قلم الاستاذ ابراهيم المصري ومهداة الى الاستاذ خليل مطران لانهُ اول من عرّف المصريين الى شخصية بول بورجيه

وكان الاستاذ عبد المجيد نافع قد ترجمها ملخصة وقلت كلمتي فيها على صفحات المقطم . وما قلتهُ حينذاك اقولهُ الآن فيما سوى ان الترجمة الملخصة اقل اخطاء من هذه المطولة . وان في الاولى غناء للبيب عن الثانية وان في افصاح الثانية ما لا نحبه للشبان والشابات اللذين واللواتي يقع في ايديهم وأيديهنّ . وما كان اعتراضنا على النسخة النافعية الاّ لأدبها المكشوف

نجيب شاهين

الانسان المجهول

تابع المنشور على الصفحة ١٥٨

وعلى الجملة نقول اننا لا نعرف : أتدل زيادة الحجم الجسمي والطول على حالة ارتقائية ، كما يُعتقد اليوم ، ام على حالة انحلالية ؟ وليس بنا من شكّ في ان الاولاد اسعد حالاً في المدارس التي امحت فيها طرق الالزام ، حيث ابيح لهم ان يدرسوا من صنوف المعرفة ماهو اكثر ملاءمة لميولهم ، وحيث قضي على الجهد العقلي والانتباه الارادي . ولكن ما هي النتائج المترتبة على مثل هذا الضرب من التعليم ؟ ان من مميزات الفرد في المدنية الحديثة كونه ذا نشاط عظيم يوجه بكليته الى الجانب العملي من الحياة ، ولكن مع جهل شامل ومع قدر غير قليل من المكر والتحايل ، مزودين بضعف عقلي يتركه نهباً لمؤثرات اي محيط يتفق ان يقع ذلك الفرد تحت سلطانه . ومما يلوح لي ان الذكاء نفسه ، يضمحل ويزول ، اذا ضعف الخُلق . ولقد نرى ان المثال العقلي في الولايات المتحدة ، ما يزال دنيًّا بالرغم من ازدياد عدد المدارس والجامعات

***

يلوح لي ان المدنية الحديثة عاجزة عن إنجاب افراد زُوّدوا بمقدرة التصور والذكاء والشجاعة . وانا لنشهد في كل مملكة نقصاً ظاهراً في « المعيار » العقلي والادبي لاولئك الذين يحملون مسؤولية الحكم وتصريف الامور العامة . كذلك نلفى ان المجموعات المالية والصناعية والتجارية قد بلغت سعة عظمى ، ولقد تتأثر هذه المجموعات ، فلا يقف تأثرها على حالات البلاد التي تنشأ فيها ، وانما يأتيها التأثير ايضاً من حالات البلاد المجاورة لها في انحاء الارض . والحالات الاقتصادية والاجتماعية في جميع امم الارض ، تنتابها تغيرات سريعة . ونظام الحكومة في كل بقعة من بقاع الارض لايلبث ان يستقر ، حتى تبدأ المناقشة فيه والتساؤل عن مقدار صلاحيته . والديمقراطيات العظمى في انحاء العالم انما تقف الآن لتواجه معضلات عظمى — معضلات تتناول وجودها وكيانها ، ولذا فهي تتطلب حلاً سريعاً فاصلاً . من جماع هذا قد تحققنا ، بالرغم من الآمال العظام التي عقدها الانسان على المدنية الحديثة ، أن هذه المدنية قد عجزت عن تكوين رجال فيهم من الذكاء وصلابة الخلق وقوة الشكيمة ما يكفي لقيادتها في ذلك الطريق الشائك الخطر الذي تتعثر فيه . وفي ذلك دليل على أن الخلائق البشرية لم تنمُ بنسبة السرعة التي نمت بها النظامات التي خلقتها عقولهم . والحق ان النقائص العقلية والخلقية التي يتصف بها زعماء السياسيين وجهلهم ، هي أنكى ما تتعرض له الامم من الاخطار

فهرس الجزء الثاني من المجلد الثاني والتسعين

١٢٥ الاشعاع قديماً وحديثاً

١ — مدى طيف الاشعاع

٢ — طبيعة الاشعاع

٣ — النشاط الاشعاعي الصناعي

١٤١ العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث : للاستاذ أنيس المقدسي

١٥١ الانسان المجهول : لاسماعيل مظهر

١٥٩ لماذا يغرد الطير ؟

١٦٤ في تاريخ العرب : للدكتور زكي محمد حسن

١٧١ التوائم وأثر البيئة والوراثة فيهم : للدكتور شريف عسيران

١٧٦ الدكتور محمد اقبال . رسالة شعره : للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

١٨٣ مكتشفات العلم في غور اليم : لعوض جندي

١٨٩ ايتها الارض (قصيدة) : لراجي الراعي

١٩١ عمرو بن العاص : لحسن حسن علي

١٩٧ مفردات النبات بين اللغة والاستعمال : لمحمود مصطفى الدمياطي

٢٠١ حديقة المقتطف * ابولون ودفني : رباعيات الغزالي — الحب الصوفي — عاطفة الاستسلام : نقلها خليل هنداوي

٢٠٩ سير الزمان * الرئيس ماساريك رأيه في الديمقراطية والفاشية : لعلي ادهم . طريق الحق . الشؤون الدولية في سنة ١٩٣٧

٢٢٥ باب التربية * رابطة الاصلاح الاجتماعي الدورة الثانية . تقدمة : لسيد مصطفى . يوم الطفولة : للدكتور محمد عبد المنعم رياض بك . الطفل الشريد : لكامل كيلاني . الطفل اللقيط : للدكتور علي فؤاد بك . الطفل اليتيم : للسيدة نبيهة علي . الطفل الاعمى : للدكتور محمود عزمي القطان بك

٢٣٨ باب المراسلة والمناظرة * الدهن والشحم والقول الفصل فيهما : للفريق امين المعلوف . هندسة الكون بحسب ناموس النسبية رد على نقد : لنقولا الحداد

٢٤٤ مكتبة المقتطف * العشرة المقدمون في تاريخ الفكر العربي . في منزل الوحي . سيرة محمد نبي الله . مجموعة قصص . الوحدة السورية والصيرورة العربية . المعجم القضائي الجزء الاول . عشائر العراق : المجلد الاول . الكاتب واللغة العربية . الشرق في الآداب الفرنسية بعد الحرب ١٩١٩ — ١٩٣٣ . المريد